الهداية

فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مجلة إسلامية دورية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
مملكة البحرين - العدد (٣٥٢)
السنة (٤٠) - صفر ١٤٤٠هـ - أكتوبر ٢٠١٨م

سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة..
في ذاكرة البحرين والعالم الإسلامي

فكر إسلامي معتدل يدرك الواقع ويستشرف المستقبل

مجلة إسلامية دورية تصدرها وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
مملكة البحرين – العدد (٣٥٢)
السنة (٤٠) – صفر ١٤٤٠هـ – أكتوبر ٢٠١٨م

هيئة التحرير

رئيس التحرير: الشيخ د. فريد يعقوب المفتاح
مدير التحرير: الشيخ د. محمد طاهر القطان
مشرف التحرير: أ. علي أمين الريس
مستشار التحرير: أ.د. عامر حسن صبري
التدقيق العلمي واللغوي: الشيخ فهمي المتولي الشيخ
د. محمد عبدالله الوائلي
سكرتارية التحرير: أ. زينب مجيد سلمان
أ.صفاء عبدالعزيز بوعلاي

ص.ب: ٥٦٠ المنامة – مملكة البحرين
هاتف: ١٧٨١٢٨٠٧ – ١٧٨١٢٨١٠
فاكس: ١٧٨١٢٨٤٩

البريد الإلكتروني: alhedaya@moia.gov.bh
وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف
www.islam.gov.bh

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

الفهرس

الافتتاحية

بقلم : معالي الشيخ عبدالرحمن بن محمد آل خليفة
رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية

٤

كلمة العدد

بقلم : معالي الشيخ خالد بن علي بن عبدالله آل خليفة
وزير العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف

٦

سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة في ذاكرة الأمة

بقلم : سعادة الدكتور فريد بن يعقوب المفتاح
وكيل الوزارة للشؤون الإسلامية

٨

أوصى بتأجيل المقال.. ونشره بعد وفاته
ومضات من سيرة أحد أبرز رواد البحرين

إعداد: هيئة التحرير

١٠

سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة..
شخصية إسلامية وطنية في ذاكرة البحرين والعالم الإسلامي

أ. وليد بكر

١٨

أكد أن نبراسها «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»
سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة مؤسس مجلة «الهداية»

٣٣

لا تبكه ...

شعر : أ. محمود آدم

٣٦

أسس الدولة المدنية في الإسلام «الحلقة الثانية»

أ.د. نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ ٣٩

التأمل والنظر في قصة
موسى والخضر عليهما السلام
«خمس وتسعون فائدة عقدية وفقهية وتربوية»

د. حبيب النامليتي ٥٨

الصحابة في القرآن الكريم - الجزء الثاني

د. طه الكبيسي ٨٨

الطفولة موطن الفطرة – الجزء الثاني

د. فريد هادي ١٢٥

أقسام الوقف والابتداء ومصطلحاته

د. محمد عبد الله الوائلي ١٤١

حسن الخلق

د/ حسني محمد الزبير ١٧٠

مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة
في كتابه التاريخ من المبتدأ إلى نهاية طبقات الصحابة

أ: خالد علي محمد اللهبي ١٨٢

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. أما بعد

فإن الحديث عن المغفور له بإذن الله تعالىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة طيب الله ثراه لا يمكن أن تستوعبه كلمات محدودة، فعلاقتي معه يرحمه الله علاقة وثيقة ووطيدة امتدت لعقود من الزمن، فقد عرفته منذ الصغر؛ إذ كانت تجمعه علاقة صداقة ومودة مع والدي رحمه الله، وكانا يتبادلان الزيارات كثيرًا، وكنت أحضر الكثير من تلك الزيارات.

وبعد أن تخرجت من المدرسة غادرت البحرين وتوجهت إلىٰ القاهرة للدراسة الجامعية، فزاملت أنجال سموه الكرام، وجمعتنا صحبة طيبة معهم امتدادًا لصحبة الآباء.

ولما تخرجت من كلية الحقوق في العام ١٩٦٧م ورجعت إلىٰ البحرين، عُيِّنت في السلطة القضائية وتدرَّجت في المناصب القضائية. وفي العام ١٩٧٥م تولىٰ سموه وزارة العدل والشؤون الإسلامية، فجمعتنا الأقدار في محطة جديدة وهي العمل، وطلب مني سموه رحمه الله أن أكون إلىٰ جانبه في إدارة الوزارة، فعُيِّنت وكيلاً لوزارة العدل والشؤون الإسلامية في ديسمبر ١٩٧٥م، فتوثَّقت العلاقة أكثر، وصرنا نعرف بعضنا عن قرب، وابتدأنا في مشوار حافل امتد لغاية وفاته رحمه الله في منتصف العام ٢٠١٨م.

وشهادة لله وللتاريخ، فإن العلاقة بيننا طوال تلك السنين كانت قائمة علىٰ التعاون والثقة والاحترام والتفاهم التام، ونجحنا ولله الحمد في أن نعمل برؤية واحدة واضحة ودقيقة، ولم يحدث يومًا أن اختلفنا في أمر علىٰ الإطلاق، وإن ذلك لهو أساس النجاح والتقدم والإنجاز، ومنه انطلقنا إلىٰ تنظيم المحاكم بدرجاتها كافة، وتأهيل الكوادر القضائية ورفع كفاءتها، وإعداد القوانين والأنظمة التي تكفل رقيّ المحاكم وسرعة البت في القضايا المرفوعة إليها، كما عملنا معًا علىٰ إطلاق فكرة مراكز تحفيظ القرآن الكريم في العام ١٩٧٦م والعمل علىٰ إنشائها إلىٰ أنْ انتشرت في جميع مناطق البحرين ولله الحمد، وفي العام نفسه أنشئت إدارة الشؤون الإسلامية

التـي أخـذت علىٰ عاتقها رعايـة الواقع الديني وصونـه وتعزيزه، كما أصدرنا أول مجلة شـهرية إسـلامية في العـام ١٩٧٨م، وهي مجلـة الهداية، وافتتحنـا مبنىٰ جديدًا وحديثًا للـوزارة في العام ١٩٨١م، إلـىٰ جانـب ما قمنا بـه في خدمة الجوامع والمسـاجد، وخدمة الحجـاج والمعتمرين، ورعاية وصون الأوقاف الإسـلامية وأموال القاصريـن، وتعزيز قنوات وأطر التكافل الاجتماعي من خلال صندوق الزكاة، وعملنا معًا أيضًا علىٰ مساندة فكرة الاقتصاد الإسلامي، وابتدأنا بإنشاء أول بنك إسلامي في البحرين، فكان نواةً للعمل المصرفي في البلاد، وصولاً إلىٰ تأسيس المجلس الأعلىٰ للشـؤون الإسـلامية في العام ١٩٩٦م في عهد المغفور له بإذن الله تعالىٰ صاحب السـمو الشـيخ عيسـىٰ بن سـلمان آل خليفة أمير البـلاد الراحل طيب الله ثـراه. وفي عهد حضرة صاحب الجلالـة الملك حمد بن عيسـىٰ آل خليفـة عاهل البلاد المفدىٰ حفظـه الله ورعاه، وبتكليف من جلالته أيده الله، عملنا علىٰ صياغة التصورات لتعزيز دور المجلس وإعطائه الاسـتقلال الإداري والمالي إلىٰ جانب المزيد من الصلاحيات، وهو ما كان في العام ٢٠٠٥م.

وفي العام ٢٠١٤م، صدر الأمر الملكي الكريم بتعييني إلىٰ جانب سموه رحمه الله مرة أخرىٰ في المجلس الأعلىٰ للشـؤون الإسـلامية حتىٰ انتقل رحمه الله إلىٰ جوار ربه. وهكذا قضيت معه أكثـر مـن ٤٠ عامًا في العمـل، وعرفته بما لم يعرفـه الكثيرون، فقد كان رحمـه الله رجلاً مخلصًا وصادقًا وحكيمًا ومتواضعًا، ومؤرِّخًا أثرىٰ تاريخ المنطقة، وقام بدور رائد وكبير علىٰ مدىٰ عقود من الزمن بكل جد وإخلاص ومسـؤولية، وترك بصمات طيبة في كل مكان، وكانت له الكثير من أعمال الخير والبر والإحسـان، مما أكسـبه حب الجميع وتقديرهم واحترامهم. فنسأل الله تعالىٰ أن يتغمده بواسع رحمته ورضوانه، ويكسنه فسيح جنانه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

عبدالرحمن بن محمد بن راشد آل خليفة

رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلاميـة

كلمة العدد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اليوم سأسطر يسيرًا مما رأته عيناي في مدرسة الوالد سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، فلقد كان رحمه الله مدرسة شامخة في الفكر والتربية، عاش لدينه ووطنه مسطرًا بأحرف من نور إنجازات سنين عمره علىٰ كل شبر من أرض البحرين الحبيبة، بصمات مدرسته الوسطية ستظل نبراساً لأجيال وأجيال ممن يعملون بإخلاص لدينهم ومجتمعهم وأمتهم، ولقد تشرفت بالعمل مع سموه في وزارة العدل قرابة ست سنوات كانت حافلة بالنشاط والإنجازات، حيث عملت معه علىٰ صياغة بعض القوانين ومراجعة الكثير منها، ومما لمسته في سموه اهتمامه الخاص بالقضاء والسعي لتأكيد استقلاله والعمل علىٰ الارتقاء بالمنظومة العدلية والقضائية.

وكان رحمه الله له أسلوبه الخاص في حل قضايا المتخاصمين حيث كان يحاول إرضاء جميع الأطراف عملاً بمبدأ التراضي والصلح، وذلك لأن الأحكام القضائية عادةً ما تحكم لطرف علىٰ حساب طرف آخر.

إن شخصية سمو الشيخ عبدالله بن خالد كانت مثالاً للتواضع والحلم، وكان مكتب سموه مفتوحًا للجميع.

وفي الحقيقة إن الكلمات تتقاصر عن وصف ما يجب أن يسطره القلم في وصف هذا الصرح الشامخ من الأعمال والإنجازات والذي شيَّده الوالد الكبير سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رحمه الله ليكون منارة للعلم والوسطية من جهة ولخدمة الوطن والمجتمع من جهة ثانية.

لقد بدأت مسيرة القرآن الكريم بمملكة البحرين علىٰ يديه رحمه الله وتطورت بمتابعته وتوجيهاته حتىٰ وصلنا اليوم إلىٰ مستويات مشرفة عالية، فها هي البحرين حاضرة بحفَّاظها المتقنين في المحافل الدولية يحصدون لراية وطنهم أسمىٰ المراكز وأعلاها.

وهـا هـي معاهد العلوم الشـرعية التـي غطَّـت محافظات البحرين واتسـعت لطـلاب العلم الشرعي الوسطي من الرجال والنساء تذكر له رحمه الله وقفته في تأسيسها ورعايتها ودعمها، وها هي مشاريع الخير ومشاريع التنمية وخدمة الإنسانية تذكر لسموه كل ما قدمه من إسهامات قامت عليها تلك الأعمال الجليلة.

وهـا هو صرح مركز عيسىٰ الثقافي بكل مـا يحويه من علوم ومعـارف وجوائز عالمية لخدمة الأعمال الإنسـانية يشـهد لسموه شـهادة صدق بأنه صاحب اليد التي نقشت علىٰ شاطئ الخليج صـورة ذلـك المعلم الثقافي العظيم، وسـتظل الأجيال تذكر لسـموه مـا قدَّمه للتاريـخ وللوثائق التاريخية من جهود لتبقىٰ إرثـًا حضاريًّا لمملكة البحرين، فهو الذي أسس مركز الوثائق التاريخية ومجلة الوثيقة ومجلة الهداية وتقويم مملكة البحرين.

وأما ما قدَّمه سـموه للعدالة وإرسـاء القانون وما شـهده الجانب العدلي والقضائي في مملكة البحريـن مـن تطور وتقدُّم متسـارع في ظل مسـيرته الخالدة فإنـه يُعدّ مفخرة أخـرىٰ تضاف إلىٰ إنجازات سموه ومفاخر ما قدَّمه لوطنه ومجتمعه.

والـذي ذكرتـه ما هو إلا غرفـة واحدة من نهر متدفـق بالعطاء والإنجاز، فلا أسـتطيع الإحاطة بتفاصيـل الكثيـر من الإنجازات التي قدَّمها رحمه الله لدينه ووطنـه ومجتمعه، لكن كل من يعيش علىٰ هذه الأرض الطيبة ويعرف معدن أهلها وحكمة قادتها سيذكر آثار سموه بكل تقدير وإجلال.

رحم الله والد الجميع وقدوة الأجيال سـمو الوالد الشـيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، وأسـأله سبحانه أن يجعل الفردوس الأعلىٰ مكانه.

خالد بن علي آل خليفة

وزير العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف

سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة في ذاكرة الأمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه،،

وترجّل شيخ الحكمة البحرينية، سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية طيّب الله ثراه.. ترجّل بعد أن سجّل له التاريخ صفحات مضيئة ومحطّات خالدة؛ فلقد انتقل إلىٰ جوار ربه بعد مسيرة إنجازات عظيمة وتاريخ حافل بالعطاءات الجليلة خدمةً للدين والوطن الغالي.

لقد كان رحمه الله من كبار المؤسسين للصرح العدلي الشامخ، وكان رمزًا من رموز مملكة البحرين وثروة تاريخية وأدبية هائلة، محبًّا للخير وللعلم، نشأ مع القرآن والعلوم الشرعية، ومنذ تعيينه وزيرًا للعدل في العام ١٩٧٥، إلىٰ أن أصبح رئيسًا للمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية كان رحمه الله مهتمًّا بكل ما يتعلق بالجوامع والمساجد، وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، فضلًا عن عنايته بالعلم والعلماء والاهتمام بكل ما يتعلق بالجانب الشرعي. ولقد تشرفت بالعمل مع سموه عندما كان نائبًا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرًا للشؤون الإسلامية، ونهلت من سمو أخلاقه وتعلمت في مدرسته الكثير والكثير من العلوم والمعارف والتاريخ، ومن خبرته الواسعه في مجالات عديدة، استفدت كثيرًا علىٰ المشتوىٰ العملي والوظيفي والحياتي.

ولقد كان لي الشرف في التعرف عن قرب عن أخلاقه العالية وتواضعه وبساطته التي ارتقت به في قلوب كل من عرفوه، لقد كان كثير التغافل عن الأخطاء والزلات تقديمًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة.

ولعلي أستذكر في هذه الكلمة المتواضعة بعضًا من أبرز محطّاته في المجال الشرعي، ففي العام ١٩٧٦ وجه الفقيد رحمه الله إلىٰ إنشاء أول مركز لتحفيظ القرآن الكريم وهو مركز أبي بن كعب لتعليم القرآن الكريم وتدريس علومه، ومنه كانت الانطلاقة الحقيقية لمراكز تعليم القرآن الكريم في مملكة البحرين حتىٰ وصل عددها حتىٰ اليوم إلىٰ ٣٥١ مركزًا وحلقة قرآنية تنضوي تحت مظلة وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، وكان لجهوده رحمه الله وتوجيهاته بالغ الأثر في تطوير مسيرة العمل القرآني وتحسين مخرجاته. وفي العام ١٩٧٨ أصدر رحمه الله مجلة الهداية، وهي أول مجلة شهرية إسلامية ترأس تحريرها معالي الشيخ عبدالرحمن بن محمد آل خليفة وكيل وزارة العدل آنذاك، ولا زالت الوزارة تصدر المجلة حتىٰ يومنا هذا، وفي نهايات القرن الماضي أسس رحمه الله عددًا من المعاهد

الشـرعية والحوزات العلمية، وفي العام ٢٠١٣م أشـرف المغفور له بإذن الله تعالىٰ علىٰ إصدار مصحف البحرين، ووجّه إلىٰ تزويد الجوامع والمساجد ومراكز تحفيظ القرآن الكريم بنسخ منه.

كان سـمو الشـيخ عبدالله بن خالد رحمه الله شديد الحرص علىٰ رعاية وحضور العديد من المحافل القرآنية والمناسـبات الدينية التي تنظمها الشـؤون الإسـلامية، كما كان الداعم والمؤسس الأول لجائزة البحريـن الكـبرىٰ للقرآن الكريم منذ انطلاقتها في العام ١٩٩٦ في عهد المغفور له سـمو الشـيخ عيسـىٰ ابن سـلمان آل خليفة، وكان لحضوره في هذه الفعاليات شـأنٌ كبير، فهو الداعم الأكبر للأنشـطة القرآنية المتميزة في مملكة البحرين.

والمتأمـل في سـيرة حياة سـمو الشـيخ عبـدالله بن خالد يـدرك مدىٰ مـا كان يتمتع به رحمـه الله من صـدق وحرص علـىٰ خدمة الديـن والوطـن والمجتمع، وتشـهد آثاره الخيـرة بما قدمه مـن إنجازات ملأت صفحات حياته العامرة بالعطاء، فلقد ترك رحمه الله تعالىٰ بصماته في العمل العدلي والإسـلامي والاجتماعي والخيري في كل بقعة من أرض البحرين.

ولقد لمسـت فيه رحمه الله دماثة خلقه وطيب منطقه وبعد نظره، فلقد كان تواضعه رحمه الله يكسـو مهابتـه بحلة من الخلق والتعامل الراقي، ويشـهد أهل البحرين بما قدمـه رحمه الله من أعمال جليلة للم الشـمل وجمع الكلمة، حيث تعامل بكل مصداقية وحيادية مع أبناء البحرين دون تمييز أو طائفية. وكان شـديد الحرص علىٰ نشـر الألفة والمودة بين أبناء البحرين، كما كان يدعو دائمًا إلىٰ وحدة وطنية تنطلق بالبحرين إلىٰ مصاف الدول المتقدمة. وأسـهم رحمه الله تعالىٰ في تأسـيس عدد من المؤسسات العلمية والتاريخية التي تُعد اليوم معالم حضارية لمملكة البحرين.

عزاؤنـا في الفقيـد الغالي رحمه الله ما ورثه لأبنائه وأحفاده الكرام من علم وخبرة وحسـن خلق، وما قدمه لوطنه ودينه وأمته في المجالات كافة سيبقىٰ شاهدًا لسموه علىٰ إخلاصه لدينه ووطنه.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، إنا لله وإنا إليه راجعون.

د. فريد بن يعقوب المفتاح
وكيل الوزارة للشؤون الإسلامية

أوصى بتأجيل المقال.. ونشره بعد وفاته
سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة..
ومضات من سيرة أحد أبرز رواد البحرين

إعداد: هيئة التحرير

«وارض للناس ما ترضىٰ به ... واتبع الحق فنعم المتبع»... هكذا كانت إجابته عندما سئل في أحد اللقاءات عام ١٩٧٠م عن البيت الذي يثير إعجابه من الشعر العربي، وكأن بيت الشعر هذا قد رسم لنا سياسة تلك الشخصية التي تعد من الشخصيات الفذة التي تكاد أن تكون نادرة الوجود هذه الأيام، إذ بذل ما في وسعه لتوصيل رسالته التي أبدع في توصيلها بكل إتقان وإخلاص وأمانة، هذا الرجل النبيل الذي يعتبر نموذجًا من نماذج العطاء، فكان له بالغ الأثر بعد الله عز وجل في صون حق العلم وحفظ نعمته ورفع مكانة العلماء وخدمة كتاب الله تعالىٰ، ولو كتب القلم عن هذا الرجل لعجز.. إنه المؤرخ، القاضي، الشاعر، إنه الراحل سمو الشيخ عبدالله بن خالد بن علي آل خليفة رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، وفي هذا الصدد لابد أن نذكر موقفًا للفقيد الراحل حينما علم بعزمنا علىٰ نشر هذا المقال في مجلة «الهداية» عام ٢٠٠٥م، إلا أنه رفض أن ينشر، وقال: «لكم أن تنشروه بعد وفاتي، وها نحن ننشر ومضات من سيرة ومسيرة الفقيد الراحل الذي خدم البحرين بكل إخلاص وحب وإتقان، رحمه الله، وطيَّب ثراه.

ولادته ونشأته:

ولد عام ١٩٢٢م بمظعن السيول بقرية سماهيج، وبعد سنتين من مولده انتقلت الأسرة إلىٰ المحرق، وظل سموه يتنقل مع عائلته بين المحرق والرفاع الشرقي علىٰ مدىٰ أربع سنوات، إلىٰ أن انتقل عميد الأسرة الشيخ خالد بن علي آل خليفة إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، أما سمو الشيخ عبدالله فقد واجه حالة يُتم بعد وفاة والده، فكفله جده «علي بن صقر الجلاهمة».

في السادسة من عمره التحق بأحد الكتاتيب كمدرسة أولية، فدرس علىٰ يد الملا «عبدالله ابن محمد المطوع»، بقرية سماهيج مبادئ قراءة وترتيل القرآن الكريم، ودرس مبادئ الفقه واللغة العربية وشيئًا من مادة الحساب علىٰ يد الشيخ «عبدالله المحسن المحمود»، كما التحق بمدرسة أهلية تحت إدارة معلم جليل من أهل الكويت.

بعدها انتقل إلىٰ مدرسة دار العلم بسوق المحرق وكانت تحت إدارة كل من عبداللطيف الشملان وأحمد العثمان.. ثم انتهىٰ به المسير إلىٰ مدرسة الهداية الخليفية، حيث تعلم علىٰ يد نخبة من المدرسين أمثال

الأستاذين نجيب بوليق ومحمد ممدوح الداعوق وكلاهما من الشام. كما درس مادتي اللغة العربية والإنجليزية على يد الأستاذ سالم العريض.. وانتهت فترة الدراسة الابتدائية عام ١٩٣٧م بالتفوق المعهود، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشهادة في حساب تلك الحقبة تعادل شهادة الثانوية العامة اليوم. وبالرغم من أن سمو الشيخ عبدالله عاش فترة مراهقته حياة متدينة، فإنه قد جعل تدينه حافزًا للتفوق الدراسي، فلقد علم الشيخ أن المسلم يجب أن يكون متفوقًا في علمه متقنًا لعمله.

وبعد أن اشتد عوده حرص سمو الشيخ عبدالله بن خالد كل الحرص على مثابرة الحضور في مجلس المغفور له بإذن الله تعالى صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين آنذاك، سعيًا للاقتداء بسمته، وتنفيذًا لطاعة والدته التي تحرص بدورها على تشجيعه بغية التشرف بهذا الحضور أمام حضرة الأمير ليقتدي بنهجه السليم، ومن ثم ما سيمنحه هذا المجلس من اللباقة والبيان والدقة في أسلوب التعامل مع خاصة الناس وعامتهم على السواء، وهذا ما رأيناه جليًّا في أسلوب الشيخ عبدالله في التأثير في النفوس بأبسط الكلمات وأوضح العبارات التي لا تكلف فيها ولا تعقيد.

وقد عني الشيخ عبدالله بن خالد رحمه الله بصحبة العلماء والأمراء وسراة القوم، وأحرز ما لم يحرزه الطالب الجامعي النظامي إذ اشتهر منذ حداثته بقوة الذاكرة وحدة الذكاء مما أوجد في نفس الشيخ ميلًا واضحًا قويًّا إلى قراءة الرؤى الإسلامية، فأقبل على نفسه يغذي هذا الميل وينميه وصار يقضي الساعات الطوال ويسهر الليالي يتساءل كيف يعيد كتابة الرؤى الإسلامية؟!.

هذا.. وقد استهوته المطالعة وأولع بموضوعات التاريخ وبخاصة «تاريخ البحرين وشبه الجزيرة العربية»، وله اطلاع واسع في تمحيص ودراسة الوثائق وتحليلها واستخلاص الحقائق بين سطورها، كما أولع بنظم الشعر الفصيح والنبطي.

المناصب التي تقلدها:

– في عام ١٩٥١ عُيِّن الشيخ عبدالله بن خالد رحمه الله قاضيًا بمحاكم البحرين، إذ تقلد بهذا المنصب ليقيم العدل في البلاد تحت مظلة الشريعة الإسلامية الغراء والقوانين الصالحة النابعة من نهج المجتمع البحريني الأصيل. وقد تمكن الشيخ عبدالله في سن مبكرة من الاطلاع علىٰ تاريخ القضاء في البحرين، خصوصًا في فترة الشيخ عيسىٰ بن علي، والتي تعتبر اللبنة الأولىٰ لبدايات التنظيم المؤسسي في البلاد لكافة الأمور الأمنية والقضائية والتعليمية وسواها من الشؤون الهامة ذات الطابع الإداري المتطور.

– في الفترة من ١٩٥٧ وحتىٰ ١٩٦٢، شغل سموه منصب قاض بمحكمة الاستئناف العليا، كمنصب ثان في بدء حياته العملية متناولًا في نهجه الجديد التوافق بين مسوغ الحاضر ومبرر الماضي بطريقة جادة جديرة بكفاءاته ومقدراته الإيجابية.

– في عهد المغفور له بإذن الله تعالىٰ صاحب السمو الشيخ عيسىٰ بن سلمان آل خليفة، وفي الفترة الممتدة من ١٩٥١ إلىٰ ١٩٦٧، أسس سمو الشيخ عبدالله بلدية الرفاع بتكليف من صاحب السمو الشيخ عيسىٰ رحمه الله، متبوأ بذلك منصب رئيس البلدية، حيث قام بتنفيذ العديد من الخطط التنموية والعمرانية، واتسعت دائرة الخدمات البيئية لمدينة الرفاع، واستبشر أهالي الرفاع خيرًا عندما تم تعيينه رئيسًا للبلدية. ومن آثار أعماله الباقية هناك سوق الخضروات والفاكهة.. ولقد كانت

أعوام رئاسة سمو الشيخ عبدالله لتلك البلدية أعواماً مليئة بالإنجازات الملموسة.

– في عام ١٩٦٧، تولىٰ سمو الشيخ عبدالله ابن خالد رئاسة المجلس البلدي لبلدية المنامة، والتي تعتبر الأولىٰ في منطقة الخليج وثالث بلدية في العالم العربي عند نشأتها عام ١٩١٩... وفي عهد رئاسته للبلدية ومجلسها نمت المشاريع والخطط التنموية وتطورت إلىٰ الأفضل، كما يرجع إليه فضل إضافة العديد من الإدارات إلىٰ جهاز البلدية مما دفع عجلة التقدم والتطور نحو الأمام. ومع استقلال دولة البحرين عام ١٩٧٠ وبحكم التنظيم الجديد للدولة الحديثة تقرر أن تصبح البلدية دائرة من دوائرها.

– في الفترة من ١٩٦٩ إلىٰ ١٩٧٥، تولىٰ سمو الشيخ عبدالله رئاسة مجلس التخطيط والتنسيق، وهنا كانت للشيخ عبدالله رؤية ثاقبة إذ اتخذ خطوات إيجابية فورية لتوقيف عملية هدم وإزالة آثارنا الخالدة، فإن ما ورثته البلاد من ثقافات هامة كاد أن يمحىٰ خلال فترة وجيزة، فقد تعرضت آنذاك بعض القبور ما قبل التاريخ الموجودة بقرية عالي إلىٰ الهدم والإزالة نتيجة للتوسع العمراني لأعمال البناء المختلفة. هذا إلىٰ جانب العديد من الإنجازات التي تحققت في عهد رئاسته.

– في نفس الفترة الممتدة من ١٩٧١ إلىٰ ١٩٧٥، تقلد سمو الشيخ عبدالله منصب وزير البلديات والزراعة، ورغم قصر تلك الفترة إلا أن بصمات الشيخ بدت واضحة منذ توليه زمام الوزارة، إذ كانت سياسته قائمة علىٰ خلق التعاون الوطني والإقليمي والدولي إيماناً منه بأهمية تضافر الجهود في العمل البيئي، وتحقيق أهداف التنمية المستدامة.

– في عام ١٩٧٥، تولىٰ سمو الشيخ عبدالله منصب وزير العدل والشؤون الإسلامية، وبحكم دوران عجلة التطور أقامت حكومة المغفور له بإذن الله تعالىٰ سمو الشيخ عيسىٰ بن سلمان آل خليفة، مجمعاً جديدًا لوزارة العدل والشؤون الإسلامية بالمنطقة الدبلوماسية، وقد تم افتتاحه عام ١٩٨١. وقد اهتم سموه اهتماماً بالغاً بإدارة المحاكم، نظرًا لكون مرفق القضاء السلطة الثانية في الدولة، فالإدارة والوظائف المتمثلة فيها هي المساعدة لجهاز القضاء

الذي تركن إليه الدولة لإظهاره بالمظهر الذي يليق بمجتمعنا الإسلامي والعربي. وقد أصدر سموه قرارات بتعيين قضاة جدد، كلما اقتضت الحاجة، إلىٰ جانب إعادة تشكيل بعض دوائر المحاكم، كما كوّن دائرتين في المحاكم الكبرىٰ الشرعية، يتولىٰ أعمالها قاضيان للقيام بالإجراءات اليومية المتعلقة بالتصديقات والمراجعات الشرعية، وذلك تخفيفاً علىٰ عبء المحاكم لتتفرغ هيئة المحكمة لسماع القضايا وإصدار الأحكام لأجل سرعة البت في القضايا. كما أصدر قرارات خاصة بتنظيم العمل القضائي في بعض دوائر المحاكم المدنية، حيث أصدر قرارًا وزاريًّا رقم «١» لسنة ١٩٩٧م رأىٰ بموجبه إعادة تشكيل دائرة محكمة الاستئناف العليا المدنية الغرفة الثانية.

كما أسهم الشيخ عبدالله بشكل كبير في تدريب الكوادر وتأهيلها إلىٰ كافة أنماط العمل، فعلىٰ سبيل المثال «الحاسب الآلي» الذي أخذ طريقه في كافة أرجاء الإدارات وخاصة فيما يتعلق بطباعة الأحكام أو إصدار الإحضاريات والمكاتبات، كما بدأ الحاسب الآلي يأخذ دوره في المحاكم المدنية ليشمل فيما بعد المحاكم الشرعية والتنفيذية. كذلك تنظيم قسم تقديم الدعاوىٰ والاستئناف والمكتب القانوني والفني للباحثين القانونيين الذين يتابعون الإجراءات والمراسلات الصادرة من جميع دوائر المحاكم المدنية.. وغيرها من التسهيلات التي لا حصر لها.

وفي مجال الشؤون الدينية سعىٰ سمو الشيخ عبدالله رحمه الله إلىٰ التأكيد علىٰ أن مفتاح الطريق إلىٰ الخالق جل وعلا هو نبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، فمنذ أن أنشئت إدارة الشؤون الإسلامية عام ١٩٧٦ وهي تحقق إنجازات بالغة الأهمية في نشر وزيادة الوعي الإسلامي فهي تشرف علىٰ كل ما من شأنه توطيد دعائم الدين الإسلامي ونشر تعاليمه ومثله العليا وذلك بالتعاون مع الجهات الرسمية والهيئات الدينية وإدارتي الأوقاف السنية والجعفرية، حفظاً لكتاب الله تعالىٰ والعمل بما جاء به من أحكام العبادات والمعاملات، ولقد اهتم الشيخ عبدالله بإحياء كافة المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف وليلة الإسراء والمعراج وليلة القدر وإحياء ليالي رمضان المبارك وغيرها، في مختلف مساجد وجوامع البحرين. كما دأبت إدارة الشؤون الإسلامية آنذاك بتوزيع الكتب الدينية واستقدام المقرئين وعلماء الدين وذلك لتدريس القرآن الكريم وعلومه من خلال مراكز التحفيظ.

هذا إلىٰ جانب الوعظ والإرشاد في مختلف المساجد والجوامع في البحرين، إضافة إلىٰ إصلاح وترميم وتجهيز وبناء العديد من المساجد والمقابر، فضلًا عن إرساء قواعد اللجنة العليا لشؤون الحج والتي لها عظيم الأثر في تطوير وتقديم أفضل الخدمات للحجاج والمعتمرين لكي يؤدوا مناسكهم

بيسر وسهولة. وقد يطول بنا الحديث إذا تطرقنا إلىٰ صندوق الزكاة ونشأته ودور سمو الشيخ عبدالله رحمه الله في تفعيل مهام الصندوق ويكفينا بذلك أن نرىٰ ما وصل إليه الصندوق اليوم من أعمال الخير وتوزيع الزكوات علىٰ مستحقيها.

– في عام ٢٠٠٣ إلىٰ عام ٢٠٠٦ تولىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة منصب وزير الشؤون الإسلامية، إلىٰ جانب توليه رئاسة المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية.

– في ١٠ ديسمبر ٢٠٠٦م وحتىٰ رحيله في ٥ يونيو ٢٠١٨ شغل سمو الشيخ عبدالله منصب رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية.

مؤلفاته ولمساته الثقافية:

– في الفترة من ١٩٥٤م حتىٰ عام ١٩٦٢م، تولىٰ سمو الشيخ عبدالله رئاسة المكتبة الخليفية بمدينة المحرق.

– في عام ١٩٧٨م، تولىٰ رئاسة مركز الوثائق التاريخية التابع لمكتب ولي العهد.

– كما تولىٰ رئاسة تحرير مجلة الوثيقة منذ تأسيسها عام ١٩٨١م.

– كما لا ننسىٰ دوره الفعال في إصدارات مجلة الهداية الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧٨م، وحتىٰ يومنا هذا.

– من مؤلفاته كتاب «البحرين عبر التاريخ»، وذلك في شهر شعبان من عام ١٣٨٩هـ، الموافق أكتوبر ١٩٦٩م. وقد اشترك في تأليف الجزء الأول الأستاذ عبدالملك يوسف الحمر. أما الجزء الثاني فكان من تأليف سموه والدكتور علي أبا حسين.

– ومن مؤلفاته كتاب «رؤىٰ إسلامية من وحي القرآن» وهو من إصدارات بيت القرآن عام ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

– هذا إلىٰ جانب العديد من المؤلفات والبحوث والتقارير الإسلامية.

هذه ملامح سريعة من شخصية المغفور له بإذن الله تعالىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة.. تدين صدق.. حسن خلق.. وحسن عشرة مع الآخرين.. إيجابية.. وطنية.. وجرأة في الحق. كان عالماً مستنيرًا بشؤون القضاء، وشخصية فريدة علماً وقولًا وسلوكًا، وهو ما جعله معلِّماً ورائدًا من الرواد النبلاء بمملكتنا الحبيبة.

سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة.. شخصية إسلامية وطنية في ذاكرة البحرين والعالم الإسلامي

إعداد: أ. وليد بكر

فقدت مملكة البحرين في الخامس من يونيو ٢٠١٨، سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير العدل والشؤون الإسلامية السابق، والذي يعد واحدًا من أبرز رجال المملكة الأوفياء الذين أفنوا حياتهم في خدمة بلادهم.

وكان سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة شخصيةً إسلاميةً شامخةً، ورمزًا وطنيًّا كبيرًا، ومفكرًا حكيمًا ومؤرخًا معروفًا، ارتبط اسمه بالإنجازات في البحرين، وكان حضوره منتظرًا بالأعياد وبالمناسبات الدينية، وأسهم في إنشاء تاريخ البحرين الذي لن ينسىٰ مساهماته، وبصمته، وما فعله للبحرين، كما كان لسموه الدور الأهم والأبرز في تأسيس وبلورة عدد من القطاعات الدينية.

وقد أصدر الديوان الملكي بيانًا نعىٰ فيه المغفور له بإذن الله تعالىٰ سمو الشيخ عبدالله ابن خالد بن علي آل خليفة، وقال بيان الديوان الملكي: «بقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره، ينعىٰ الديوان الملكي المغفور له بإذن الله تعالىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد بن علي آل خليفة ـ رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية والد كل من معالي الدكتور الشيخ محمد، ومعالي الشيخ خالد، ومعالي الشيخ إبراهيم، والمرحوم الشيخ علي – تغمد الله الفقيد بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته، وألهم ذويه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقد كان سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أحد العلامات البارزة في تاريخ البحرين المعاصر بفضل جهوده في خدمة الوطن في مجالات متنوعة تعكس شخصيته الموسوعية والثقافية الجامعة ومواهبه المتعددة، فلم يكتف بالدور الرسمي له كوزير للعدل والشؤون الإسلامية، وإنما امتدت عطاءاته للأعمال الخيرية والإنسانية التي كان يقوم بها عن إيمان كامل بقدسية هذه الجهود الإنسانية والحضارية، بالإضافة إلىٰ كونه مثقفًا متبحرًا في العلوم الإسلامية والبحوث التاريخية التي كانت موضع اهتمامه منذ وقت مبكر في مسيرته الحياتية.

وأسهم الفقيد الراحل في إصلاحات البحرين في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسىٰ آل خليفة، عاهل البلاد المفدىٰ، حفظه الله ورعاه، حينما قام بالإشراف علىٰ صياغة أهم الوثائق الوطنية كالميثاق الوطني وإعداد دستور ٢٠٠٢، اللذين حققا نقلة نوعية في مسيرة البحرين وتطورها المعاصر.

وكان صاحب السمو الملكي الأمير خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء قد أشاد بدور فقيد البحرين سمو الشيخ عبدالله ابن خالد آل خليفة رئيس المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية لدىٰ استقباله له في ٢٧ مارس ٢٠١٨، وخلال اللقاء أكد صاحب السمو الملكي رئيس الوزراء: (أن سمو الشيخ عبدالله بن خالد من رجالات البحرين الذين أسهموا بشكل فاعل في مسيرة العمل الوطني وقدموا الكثير لهذا الوطن وبذلوا في سبيل رفعته، وستظل إنجازات سموه خالدة في الذاكرة الوطنية، والحكومة تستذكر دومًا بالتقدير والاعتزاز ما قدمه في سبيل تطوير العمل الحكومي، منوهًا سموه بدور سمو الشيخ عبدالله بن خالد الكبير من خلال رئاسته للمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية.

والمتأمل في سيرة حياة سمو الشيخ عبدالله ابن خالد يدرك مدىٰ ما كان يتمتع به -رحمه الله- من صدق وحرص علىٰ خدمة الدين

أحد العلامات البارزة في تاريخ البحرين المعاصر

والوطن والمجتمع، وتشهد آثاره الخيرة بما قدمه من إنجازات ملأت صفحات حياته، عامرة بالعطاء.

ولقد كان تواضع سموه يكسو مهابته بحلة من الخلق والتعامل الراقي، ويشهد أهل البحرين بما قدمه من أعمال جليلة لِلمِّ الشمل وجمع الكلمة، حيث تعامل بكل مصداقية وحيادية مع أبناء البحرين دون تمييز أو طائفية، وكان شديد الحرص علىٰ نشر الألفة والمودة بين أبناء البحرين، كما كان يدعو دائمًا إلىٰ وحدة وطنية تنطلق بالبحرين إلىٰ مصاف الدول المتقدمة.

وقد أسهم - رحمه الله تعالىٰ- في تأسيس عدد من المؤسسات العلمية والتاريخية التي تُعد اليوم معالم حضارية لمملكة البحرين.

وقد رحل سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة عن دنيانا بعد مسيرة إنجازات عظيمة وتاريخ حافل بالعطاءات الجليلة خدمةً للدين والوطن. ولا يزال الجميع يستذكر مناقبه ومآثره - رحمه الله تعالىٰ-، حيث كان - رحمه الله- من كبار المؤسسين للصرح العدلي الشامخ، وكان رمزًا من رموز مملكة البحرين وثروة تاريخية وأدبية هائلة، محبًّا للخير وللعلم، نشأ مع القرآن والعلوم الشرعية، ومنذ تعيينه وزيرًا للعدل في عام ١٩٧٥، إلىٰ أن أصبح رئيسًا للمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية كان - رحمه الله- مهتمًّا بكل ما يتعلق بالجوامع والمساجد، وحلقات تحفيظ القرآن الكريم، فضلاً عن عنايته بالعلم والعلماء والاهتمام بكل ما يتعلق بالجانب الشرعي.

ومما يجدر ذكره أنه في العام ٢٠٠٩ أنعم جلالة الملك علىٰ الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة بلقب «سمو الشيخ» تقديراً لمكانته ودوره في خدمة البحرين.

وقد تولىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة العديد من المناصب المهمة التي قدم

خلالها خدمات جليلة للوطن والمواطنين، نشير منها إلىٰ الآتي:

* رئيس لجنة تفعيل ميثاق العمل الوطني.
* رئيس مركز الوثائق التاريخية التابع لديوان سمو ولي العهد.
* رئاسة اللجنة العامة لأسبوع الصحة وأيضاً عضوية مجلسها بين عامي ١٩٥٧ - ١٩٦٩.
* رئيس جمعية الهلال الأحمر البحريني منذ عام ١٩٦٩.
* رئيس اللجنة العليا للحج.
* الرئيس الفخري لجمعية البحرين الخيرية.

وقد سعىٰ سموه إلىٰ تثقيف ذاته بالاطلاع وقراءة الكتب الأدبية والتاريخية والدينية بشكل خاص، والكتب الثقافية المتنوعة بشكل عام، ما جعله أحد أعلام الثقافة والمتبحرين في علوم: اللغة والفقه والأدب والتاريخ.. وجميعها عوامل أدت إلىٰ توليه العديد من المناصب الحكومية، وتأسست علىٰ يديه بعض المؤسسات والوزارات الحكومية.

تأسيس المكتبة الخليفية:

وأسس سموه أول مكتبة عامة في البحرين سنة ١٩٥٤، وهي المكتبة الخليفية، حين اجتمع مع مجموعة من شباب آل خليفة الذين كانوا يقطنون مدينة المحرق آنذاك، ممن نالوا قسطاً من العلم والمعرفة، وقرروا أثناء اجتماعهم تأسيس ناد بالمحرق يجمعهم ويكون مفتوحاً لجميع الأهالي، وقد تقدموا بطلب تأسيس النادي إلىٰ صاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة حاكم البحرين، والذي أشار عليهم تبني تأسيس مكتبة تقدم خدمات ثقافية لجميع سكان جزيرة المحرق، وبقية المواطنين الذين يرغبون في زيارتها من مختلف مناطق البحرين. وأبلغهم بأن هناك ناديًا بالمحرق، وأن الحاجة إلىٰ وجود مكتبة أصبح أمرًا ضروريًّا ليقضي الأهالي أوقات فراغهم بالمكتبة، بما يعود عليهم بالنفع من خلال القراءة والاطلاع، وتصفح الجرائد المحلية أو تلك التي يتم جلبها من الخارج.

رمز وطني ومفكر ومؤرخ معروف

وقد عهد إلىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رئاسة المكتبة، ونظراً لكونها مكتبة فتية، فقد تبرع الأعضاء بالكتب، وأدىٰ ذلك إلىٰ ملء رفوف الغرفة المخصصة للكتب. ومنذ افتتاحها أخذ أهالي المحرق بالتردد عليها، وقد شعر الأهالي حينذاك بالامتنان وقدموا لسموه الشكر الجزيل علىٰ إدارته وتنظيمه هذه المكتبة التي وفرت لهم الفرصة للاستفادة من أوقات فراغهم بالقراءة والاطلاع.

تأسيس مركز الوثائق التاريخية:

وأسندت إلىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد في عام ١٩٧٨ مهمة تأسيس ورئاسة مركز الوثائق التاريخية، الذي ضم أكثر من ٧٠ ألف وثيقة تاريخية عن البحرين، وقد بذل جهودًا مضنية من أجل تأسيس مكتبة بمركز الوثائق التاريخية. وقد نشطت مكتبة المركز في جمع كثير من الوثائق والمخطوطات والخرائط القديمة الخاصة بالبحرين بصورة خاصة ومنطقة الخليج العربي بصورة عامة. كما تم تزويد المكتبة بكتب وموسوعات في مجال التاريخ، إضافة إلىٰ وجود بعض الكتب الثقافية الأخرىٰ. وأصبح المركز اليوم جزءًا من مركز عيسىٰ الثقافي.

تقلده أرفع المناصب:

وعند إعلان البحرين دولة مستقلة وتشكيل مجلس الوزراء عام ١٩٧١ التحق الشيخ عبدالله بالحكومة البحرينية الأولىٰ إذ شغل منصب وزير الزراعة والبلديات إلىٰ عام ١٩٧٥، ثم

تم تعيينه وزيرًا للعدل والشؤون الإسلامية في الحكومة البحرينية الثانية، والتي حمل فيها أيضًا حقيبة وزارة التجارة والزراعة بالوكالة، وشغل سموه منصب وزير العدل والشؤون الإسلامية في حكومتين تاليتين، ووزيرًا للشؤون الإسلامية ونائبًا لرئيس مجلس الوزراء.

وترأس سموه المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية والذي يعتبر الواجهة الرئيسة للمؤسسات البحرينية الإسلامية الرسمية.

كما تسلم رئاسة لجنة إعداد وصياغة الميثاق الوطني، ثم رئاسة لجنة إعداد وصياغة الدستور في عام ٢٠٠٢.

تأسيس مركز عيسىٰ الثقافي:

توج الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة جهوده الثقافية المتعلقة بتأسيس المكتبات بالإشراف علىٰ تأسيس مركز عيسىٰ الثقافي الذي يضم المكتبة الوطنية، وترأس اللجنة الوطنية العليا التي تم تشكيلها في عام ٢٠٠٠، وهي أضخم مكتبة في تاريخ المملكة، فقد شهدت مملكة البحرين عصر يوم الخميس ١٨ ديسمبر من عام ٢٠٠٨ أهم حدث ثقافي في تاريخها المعاصر تمثل في تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسىٰ آل خليفة ملك مملكة البحرين المفدىٰ بافتتاح مركز عيسىٰ الثقافي ومكتبته الوطنية.

وجدير بالذكر أن مشروع مركز عيسىٰ الثقافي بدأ برسالة رفعت إلىٰ مقام صاحب السمو الشيخ عيسىٰ بن سلمان آل خليفة أمير البلاد الراحل في عام ١٩٩٨ من بعض أبناء الشعب البحريني يطلبون الإذن لهم بإنشاء مكتبة تحمل اسم الأمير. وقد حول الرسالة إلىٰ سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة وطلب منه النظر في طلبهم. وقد تحمل سموه مسؤولية الإشراف الكامل علىٰ بناء مركز عيسىٰ الثقافي الذي ضم المكتبة الوطنية التي تحتوي حتىٰ هذا اليوم علىٰ زهاء مائة ألف كتاب تغطي جميع حقول المعرفة، وهي بهذا تقدم خدماتها الثقافية لجميع شرائح المجتمع البحريني.

وقد أصدر مركز عيسىٰ الثقافي بيانًا، نعىٰ فيه رحيل سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة رئيس مجلس الأمناء، وأشاد المركز

بشخصيته العلمية وخصاله الحميدة وماضيه الزاخر والمشع في العمل الإنساني والفكري على المستوى الرسمي والأهلي محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا. وقال المركز في بيانه: «لقد فقد الوسط الثقافي والاجتماعي البحريني والخليجي والعربي هرمًا كبيرًا شامخًا، عُرف بمواقفه الإنسانية ومبادراته لفعل الخير وبذل جهود جبارة لإعلاء ورفعة اسم وطنه الغالي».

وذكر أن الراحل كان رمزًا وطنيًّا يمتاز بفكره الناصع وتحليله العميق واطلاعه الواسع بقضايا المنطقة، وكان خطيبًا وشاعرًا فصيحًا، وكاتبًا ماهرًا ومؤرخًا أمينًا على إرث وتاريخ وتراث بلاده وأمته العربية والإسلامية، حيث دوّن العشرات من الكتب والمؤلفات المفيدة والقيمة التي تعكس إلمامه في المسائل الدينية السمحاء من جهة، واهتمامه الواسع في التاريخ والثقافة والفكر من جهة أخرى، والتي كانت ثمرة عمره المديد والمبارك.

وأضاف بيان المركز «لقد تميز الفقيد الراحل بماضٍ وضاء في مجال العمل الرسمي، بذل فيه جهداً عظيماً في تأسيس وتسيير ومتابعة وتنفيذ مشاريع مميزة، أضحت مع مرور السنوات، من أعظم إنجازات مملكة البحرين الحضارية وأبرزها على مستوى إقليمي وعالمي، كما كانت له مساهماته الجليلة في شتى فروع العمل الإنساني والتطوعي الخيري والاجتماعي في البحرين وخارجها، والتي كشفت عما يمتاز به هذا الرجل من حكمة وتواضع وأخوة وأبوة، نابعة من أصالة وسماحة في القيم التي ورثها عن آبائه وأجداده. فجسدت هذه الصفات والخصال النبيلة، وغيرها الكثير، من خصوصيات هذه الشخصية البحرينية الفذة».

تأسيس مكتبته الخاصة:

تعد مكتبة سمو الشيخ عبدالله أضخم مكتبة خاصة في البلاد، فقد ضمت مكتبته هذه زهاء ثلاثة عشر ألف مجلد من الكتب والمراجع والموسوعات والدوريات، والكتب النادرة غطت الكثير من الحقول المعرفية المختلفة، كما ضمت بعض الكتب والموسوعات باللغة الإنجليزية.. وقد تبرع بها سموه إلى المكتبة الوطنية بمركز عيسى الثقافي حيث تم تخصيص حيز كبير في الطابق الأول من مبنى المكتبة الوطنية لهذه المكتبة.

تأسيس مجلة (الهداية):

ففي فبراير من عام ١٩٧٨ أصدر سموه العدد الأول من مجلة (الهداية)، وهي أول مجلة شهرية إسلامية.

تضمنت افتتاحية العدد الأول التي كتبها سموه سبب اختيار عنوان المجلة مع الإشادة بالمجتمع البحريني المتحضر حيث قال: «أما بعد فيسعد وزارة العدل والشؤون الإسلامية أن تقدم إلىٰ الأمة الإسلامية أول عدد من مجلتها الإسلامية والتي اسمتها بـ(الهداية) تيمنًا بمستقبلها ومواصلة ما عرف عن سكان هذه الجزر منذ فجر التاريخ الإسلامي من ارتباط بهذا الدين الحنيف، حيث بادروا بالإيمان حال ما بلغتهم رسالة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم، من غير إكراه أو طمع، بل عرفوا الحق فاتبعوه، ولم يكتفوا بذلك بل أصبحوا دعاة يهدون إلىٰ الحق وبه يهتدون».

إصدار مجلة (الوثيقة):

تمكن سموه في شهر يوليو من عام ١٩٨٢ من إصدار العدد الأول من مجلة (الوثيقة) التي يصدرها مركز الوثائق التاريخية، والتي تعد من بين أهم المجلات التاريخية التي تصدر في الوطن العربي في وقتنا الراهن، وهي مجلة نصف سنوية محكمة، وقد ترأس تحريرها،

ولا يزال حتىٰ يومنا هذا. وجاء في كلمة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسىٰ آل خليفة عاهل البلاد حين كان وليًّا للعهد بعنوان (هذه المجلة): «هذه المجلة إذا باب نرجو أن نطل منه علىٰ ماضينا وحاضرنا علىٰ السواء، وهي حلقة من جهد متواصل وشاق للجنة مركز الوثائق التاريخية ممثلة في رئيسها وأعضائها والعاملين فيها، وهي بعد ذلك خطوة علىٰ طريق ممتد تنطلق عليه دولتنا الحبيبة بكل قوة وعزم نحو غدها المأمول بإذن الله».

وعبرت الافتتاحية التي كتبها سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة في العدد الأول عن بعض الأهداف المطلوب إنجازها من خلال إصدار هذه المجلة بقوله: «لقد أردنا بهذه المجلة وأردنا لها أن تكون ندوة مفتوحة تقام كل ستة شهور، وإن كنا نرجو في المستقبل أن نختصر هذه الفترة، وهي ندوة نرجو أن يدور فيها النقاش علميًّا ومتجردًا حول ما يطرح من موضوعات حتىٰ تتاح لكل من أراد الفرصة للإدلاء برأيه من أجل وضع مزيد من النقاط فوق بعض الحروف، ونحن نعلن ابتداء أن كل ما يصل إلينا من آراء سوف يستقبل بقلب مفتوح وعقل مفتوح...».

إصدار مجموعة كتب تاريخية موثقة:

بقيت البحرين في تاريخها المعاصر اعتبارًا من بداية القرن العشرين خالية من وجود كتب تاريخية موثقة بشكلها الأكاديمي تتحدث عن تاريخ البحرين القديم، أي منذ حضارة دلمون حتىٰ وقتنا الحالي. وقد تصدىٰ سموه لإكمال هذا الفراغ بإصداره مجموعة كتب تاريخية موثقة أصبحت اليوم من بين أهم المصادر التي يعتمد عليها في كتابة تاريخ البحرين قديمة وحديثة.

ففي عام ١٩٧٠ تمكن من تأليف كتاب (البحرين عبر التاريخ: الجزء الأول)، تناول فيه تاريخ البحرين القديم اعتبارًا من حضارة دلمون، مرورًا بالعصر الإسلامي وما رافق ذلك من ظهور حركة الخوارج، والقرامطة.

وفي عام ١٩٩١، تمكن من إصدار الجزء الثاني من كتاب (البحرين عبر التاريخ)، وكان كتابًا في غاية الأهمية؛ لأنه سلط الضوء علىٰ قرامطة البحرين بشكل أكثر تركيزًا وشرحًا من

المعلومات التي ضمها الجزء الأول. كما غطىٰ الكتاب: العيونيون، الزنكيون، السلفريون، الجبور والعصفوريون، البرتغاليون، العتوب، الشيخ أحمد الفاتح، والشيخ سلمان بن أحمد الفاتح.

وشهد عام ١٩٩٦ إصدار كتابه: (رؤىٰ إسلامية: من وحي القرآن)، حيث وضع سموه في هذا الكتاب رؤىٰ تفتح الباب للخروج من المأزق الحضاري لمعادلة الأصالة والمعاصرة في بعض جوانبها الفكرية والعقائدية، ليستوحي رؤىٰ إسلامية راسخة منبعها القرآن الكريم.

وكان عام ٢٠٠٥ عامًا مميزًا بالنسبة إلىٰ نتاج سموه الفكري، فقد شهد ذلك عام إصدار ثلاثة كتب تكمل بعضها بعضاً. فقد صدر الجزء الأول بعنوان: (مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي)، وهي مكانة ومكان حافل بالكثير من المواقف والعلاقات التي شكلت تاريخاً مهماً لجزيرة البحرين في مختلف الأحداث التي تناوبت علىٰ الدولة الإسلامية العريقة. وصدر الجزء الثاني تحت عنوان: (تاريخ آل خليفة في البحرين)، والذي تناول بالشرح الموثق تاريخ العتوب والزبارة، وحكام البحرين اعتبارًا من الشيخ أحمد الفاتح وانتهاء بسمو الشيخ عيسىٰ بن سلمان آل خليفة أمير البلاد الراحل.

صدر الجزء الثالث ليكمل هذه الموسوعة التاريخية الموثقة بعنوان: (ملك وسيرة)، حيث يتحدث عن شخصية جلالة الملك واهتماماته الثقافية والرياضية والفكرية، مغطياً مشروعه الإصلاحي الذي بدأ بميثاق العمل الوطني. كما غطىٰ الكتاب مرافعات البحرين وقطر أمام محكمة العدل الدولية. وانتهىٰ الكتاب بالحديث عن السلطات الثلاث: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية.

قالوا عن الفقيد الراحل:

يقول الكاتب جميل العلوي: «فإن سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة يبدو كخلاصة جليلة لامتزاج السياسة بالشعر والأدب والتاريخ، ترفدها كرامة المحتد والمنبت، ورفعة السجايا، والنفاذ المنقطع النظير إلىٰ أعلىٰ المراتب الوظيفية الرسمية.

فهو رجل استوفىٰ ميزات العصور البحرينية المتتالية ثقافة وسياسة وشعرًا وأدباً رفيعاً

وتاريخـاً... وهو إلـىٰ ذلك عميـد مخضرمي البحريـن وشـيخهم، وعمدة مؤرخـي الخليج ورائدهـم. وقد عاصـر مراحل عدة مـن تاريخ البحريـن السياسـي، كمـا عايش جـل أحداث القـرن العشـرين وهـي تعيـد تشـكيل الكـرة الأرضية، وعايش عهد الإمبريالية الاستعمارية، ومرحلـة المـد القومـي العربي، ومـا تبعها من مراحـل التحـرر والانعتاق مـن هيمنـة القوىٰ الأجنبيـة، ثم مرحلة تأسـيس الدول والممالك العربية والخليجية، وهو من هنا لم يكن شاهدًا علـىٰ التاريـخ وحسـب، بـل هـو كان تاريخـاً يمشـي علـىٰ الأرض، وينبـض قلبـه بالمحبـة وعقله بالحكمة.

وإضافة إلىٰ هـذا الاتصال الحميم بالتاريخ البحريني، معايشـاً ومراقبـاً ومسـاهمًا في صناعته، فإن سـمو الشـيخ عبـدالله بن خالد آل خليفـة اختـار أيضـاً مهمـة أخرىٰ هـي تدوين التاريـخ، بـل توثيقه وبنـاء صروحـه المتعددة الألـوان، فمـن إنشـاء المكتبات، إلىٰ تأسـيس دوائـر التوثيـق التاريخـي، إلىٰ الإشـراف علىٰ صياغة أهـم الوثائـق الوطنية وأعلاهـا مقامًا، كالميثاق الوطني، والدسـتور، إلىٰ بناء صروح الثقافـة، وبث روح التاريخ المجيد بين أركانها، كما فعل في مركز عيسىٰ الثقافي.

وسـمو الشـيخ الجليل، إلـىٰ كل ذلـك، نفحة زمنيـة متجـددة، بـروح خلاقـة، وعقليـة منفتحة، وهمة عالية، واستعداد دائم للبذل والعطاء من أجل البحرين وشعبها وقيادتها وتاريخها وحضارتها.

انهمك في بناء أركان الثقافة وتدوين التاريخ وجمـع مصـادره، فحمل قصب سـبق المبادرة إلـىٰ تأسـيس أول مكتبـة عامـة في البحريـن، سـنة ١٩٥٤. وهـي المكتبة الخليفيـة.. لتكون التجسـيد الأول لتلـك العلاقـة الحميمـة بيـن الرجل والتاريخ.

والتجسـيد الثـاني، جـاء بعد نحـو ربع قرن من الزمان، عندما أسـندت إليـه في عام ١٩٧٨ مهمة تأسيس ورئاسـة مركز الوثائق التاريخية، الذي أصبح بفضل جهود الشيخ ومثابرته، قلب البحرين التاريخي وسـفرها المـدون وذاكرتها التي تتكئ علىٰ أكثر من ٧٠ ألف وثيقة تاريخية عـن البحريـن وشـعبها وعاداتهـا وتقاليدهـا وشواهدها...!

أما التجسيد الثالث، فتمثل في الإشراف علىٰ تأسيس مركز عيسىٰ الثقافي، ليكون هذا الصرح عمدة المراكز الثقافية البحرينية، وخلاصة لكل تجسدات تاريخها، وجامعًا لكل مأثوراتها وتراثها... في غابة منيرة من الكتب والوثائق التي يصل عددها إلىٰ حوالي نصف مليون كتاب ووثيقة...! ومع الانتهاء من إنشاء هذا القلب التاريخي الممتد إلىٰ شغاف الزمن والحضارة، بادر سمو الشيخ عبدالله ابن خالد آل خليفة بتقديم مكتبته الشخصية المترامية الأطراف والطرائف، لتكون أيقونة هذا المركز وبذرته المباركة.

وقد عُرف عن سمو الشيخ عبدالله بن خالد مواقفه القوية في الدفاع عن الحق والذود عن صحيح الإسلام الدين الوسطي السمح، ومن ذلك ما أعلنه في أحد الاحتفالات بليلة القدر قائلًا: «إنه مع إطلالة القرن الجديد والألفية الجديدة تغير الكثير من الموازين، وأخذ العالم شكلًا جديدًا، وإن الإسلام كان مستهدفًا دائمًا بحقد وبغض وكراهية تكشف عنها الأحداث، فمنذ قرون اتُّهِم الإسلام بأنه دين العنف وأنه انتشر بالسيف، وأنه قهر الشعوب، ومرت سنوات طويلة من الحوار والدفاع قبل أن يقتنع الجميع بأن الإسلام أبعد ما يكون عن العنف، وأن الإسلام انتشر بالحجة والإقناع وبإقبال الشعوب عليه لما فيه من سماحة وتكريم للإنسان وإحقاق الحقوق».

وأضاف قائلًا: «واليوم يلصقون الإرهاب بالإسلام، مع أن الإسلام يمنع قتل طفل أو شيخ أو امرأة، ويحظر على الجيش المحارب أن يتلف حقلًا أو يقطع شجرة».

وقال: «إن الحقيقة ستظل ناصعة مهما حاطها من غيوم الشك والكره، وسيدرك العالم الحاقد في يوم ما أنه سلك الطريق الخاطئ».

وكما كتب عن سموه د. منصور محمد سرحان، قائلاً: «يُعد الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أبرز الشخصيات العلمية والأدبية والثقافية التي عرفها تاريخ البحرين الثقافي. فهو المتحدث والشاعر والأديب والمؤرخ والموثق والكاتب. وقد عرف ببلاغته وحسن خطابه، كما عرف بكرم أخلاقه وتواضعه الجم مع علو شأنه ومعالجته للأمور بحكمة وروية وبعلم ودراية، الأمر الذي جعله الشخصية التي لا يختلف عليها اثنان عند أهل البحرين، فهو محل احترام وتقدير جميع أبناء البحرين قاطبة».

تأسيس وبلورة القطاعات الدينية.. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (أنموذجًا):

يستذكر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بكل إجلال وتقدير الدور الكبير والرائد والمخلص الذي اضطلع به سموه على مدى عقودٍ من الزمن قدّم فيها الفقيد الكبير وقته وجهده بإخلاص ومسؤولية ليخلِّف – يرحمه الله– سيرة نموذجية حافلة وناصعة بالخير والعطاء والعمل الحسن والأيادي البيضاء، ترك فيها بصمات تاريخية مشهودة، ومآثر طيبة محمودة بكل جد وإخلاص في مجالات كثيرة، منها: القضاء، والإدارة، والعمل الخيري، والدعوة إلى الخير، ليحظى سموه بمكانة دينية ووطنية واجتماعية كبيرة أكسبته حب الجميع وتقديرهم واحترامهم.

لقد كان سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة شخصيةً إسلاميةً شامخةً، ورمزًا وطنيًّا كبيرًا، ومفكرًا حكيمًا ومؤرخًا معروفًا، وكان لسموه الدور الأهم والأبرز في تأسيس وبلورة عدد من القطاعات الدينية، بدءًا بإنشاء إدارة الشؤون الإسلامية ومراكز تحفيظ القرآن الكريم في عام ١٩٧٦، مرورًا بتأسيس شؤون القرآن

الكريم والمجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، إلىٰ جانب دوره البارز في تطوير العمل والتشريعات في المحاكم الشرعية والمدنية وفي شؤون الأوقاف الإسلامية وأموال القاصرين وبكل ما يتعلق بالبحث والدعوة والإرشاد.

وكان سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الراعي الفخري لجائزة العمل الإنساني لدول مجلس التعاون الخليجي في دوراتها الخمس السابقة، وشهدت الجائزة بتوجيهاته ورعايته لها تطورًا كبيرًا وتقديرًا من كبار المسؤولين في دول مجلس التعاون الخليجي، ولذلك كانت الاستجابة لدعوات سموه - يرحمه الله - لحضور دورات الجائزة الخمس كبيرة، تقديرًا لشخص سموه من قبل قادة وحكام وكبار المسؤولين في دول مجلس التعاون الخليجي. وكان حريصاً علىٰ استقبال كبار الشخصيات الخليجية من المكرمين بالجائزة بشخصه في مطار البحرين الدولي ورعايتهم ودعوتهم والاحتفاء بهم.

رحم الله فقيد البحرين الراحل الكبير سمو الشيخ عبدالله بن خالد وأسكنه فسيح جناته، فقد عمل بكل إخلاص وتفانٍ في سبيل خدمة وطنه البحرين ورفعة شأن أمته العربية والإسلامية، ودافع دومًا عن سماحة الإسلام في وجه حملات التشويه المغرضة مؤمنًا بأن الحق سوف ينتصر في نهاية المطاف.

لماذا

هذه المجلة

بقلم: سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة
وزير العدل والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب النعم من نخلص له العبادة وبه نستعين والصلاة والسلام على رسوله الهادى الى الصراط المستقيم وعلى آله وصحبه الهداة المهتدين أما بعد فيسعد وزارة العدل والشئون الاسلامية أن تقدم الى الامة الاسلامية أول عدد من مجلتها الاسلامية والتى أسمتها بالهداية تيمنا بمستقبلها ومواصلة لما عرف عن سكان هذه الجزر منذ فجر التاريخ الاسلامى من ارتباط بهذا الدين الحنيف ، حيث بادروا بالايمان حال ما بلغتهم رسالة الرسول « صلعم » من غير اكراه أو طمع بل عرفوا الحق فاتبعوه ولم يكتفوا بذلك بل أصبحوا دعاة يهدون الى الحق وبه يهتدون .

والمتتبع لتاريخ هذه الجزر يجد أنها منذ فجر التاريخ كانت ولا تزال بحكم مركزها الجغرافى حلقة وصل بين الحضارات فى العالم منذ كان الانسان يمخر عباب البحر على ظهر السفن الشراعية ويقطع الفيافى على ظهر البعير وحتى يومنا هذا عندما طار الانسان فى الجو واقتحم البحر بعابرات المحيطات وقطع المسافات بالقطار والسيارة . وكلما ازدادت سرعة الانسان برزت أهمية هذه الجزر . وكما كان هذا الموقع الفريد نعمة فانه أيضا جلب اليها المحن فما من غاز أو مستعمر دخل هذا الخليج الا وعرف مالهذه الجزر من أهمية فجعل ديدنه امتلاكها والسيطرة عليها ولكن شعبها المؤمن الاصيل استطاع أن يخرج من هذه المحن صلب العود مؤمنا بعقيدته عاقدا العزم على مواصلة سيره فى تبليغ رسالة محمد « صلى الله عليه وسلم » وسيكون نبراس هذه المجلة قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) مبتعدة عن الجدل نابذة طريق الفرقة حاضة على توحيد الكلمة مستعينين بالله أن يسدد خطانا ويوفقنا لما نرجو لها من تقدم وازدهارفى هذا العهد الزاهر عهد صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة هذا العهد المبارك شاكرين لحكومتنا الرشيدة تذليل العقبات فى سبيل اصداره، مؤمنين بقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ..

والله ولى التوفيق .

أكد أن نبراسها
«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»
سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة
مؤسس مجلة «الهداية»

في فبراير عام ١٩٧٨ أصدر سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة مجلة (الهداية)، وهي أول مجلة شهرية إسلامية، وترأس تحريرها معالي الشيخ عبدالرحمن بن محمد آل خليفة وكيل وزارة العدل آنذاك، ولا زالت الوزارة تصدر المجلة حتىٰ يومنا هذا.

وتضمنت افتتاحية العدد الأول التي كتبها سموه سبب اختيار عنوان المجلة مع الإشادة بالمجتمع البحريني المتحضر.

وقال سمو الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة – رحمه الله– في افتتاحية العدد الأول:

(لماذا هذه المجلة؟)

بقلم: سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

وزير العدل والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب النعم من نخلص له العبادة وبه نستعين، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الهادي إلىٰ الصراط المستقيم وعلىٰ آله وصحبه الهداة المهتدين، أما بعد: فيسعد وزارة العدل والشؤون الإسلامية أن تقدم إلىٰ الأمة الإسلامية أول عدد من مجلتها الإسلامية التي أسمتها بـ(الهداية) تيمناً بمستقبلها ومواصلة لما عرف عن سكان هذه الجزر منذ فجر التاريخ الإسلامي من ارتباط بهذا الدين الحنيف، حيث بادروا بالإيمان حال ما بلغتهم رسالة الرسول ﷺ، من غير إكراه أو طمع بل عرفوا الحق فاتبعوه ولم يكتفوا بذلك بل أصبحوا دعاة يهدون إلىٰ الحق وبه يهتدون.

والمتتبع لتاريخ هذه الجزر يجد أنها منذ فجر التاريخ كانت ولا تزال بحكم مركزها الجغرافي حلقة وصل بين الحضارات في العالم منذ كان الإنسان يمخُر عُباب البحر علىٰ ظهر السفن الشراعية ويقطع الفيافي علىٰ ظهر البعير، وحتىٰ يومنا هذا عندما طار الإنسان في الجو واقتحم البحر بعابرات المحيطات وقطع المسافات بالقطار والسيارة. وكلما ازدادت سرعة الإنسان برزت أهمية هذه الجزر، وكما

كان هذا الموقع الفريد نعمة فإنه أيضًا جلب إليها المحن فما من غاز أو مستعمر دخل هذا الخليج إلا وعرف ما لهذه الجزر من أهمية فجعل ديدنه امتلاكها والسيطرة عليها، ولكن شعبها المؤمن الأصيل استطاع أن يخرج من هذه المحن، صلب العود مؤمنًا بعقيدته عاقدًا العزم على مواصلة سيره في تبليغ رسالة محمد ﷺ وسيكون نبراس هذه المجلة قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، مبتعدة عن الجدل، نابذة طريق الفرقة، حاضة على توحيد الكلمة، مستعينين بالله أن يسدد خطانا ويوفقنا لما نرجو لها من تقدم وازدهار في هذا العهد الزاهر عهد صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة مؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والله ولي التوفيق.

لا تبكه ...

شعر : أ. محمود آدم

مرثيـة لفقيد البحريـن والمجلس الأعلىٰ ومراكز القرآن الكريم والمعاهد الشـرعية سـمو الوالد الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة رحمه الله.

لا تَبْكِـهِ.. فالدَّمْـعُ لا يَكْفـيهِ ... ولقـدْ كفـاكَ المجـدُ إذْ يبكيـهِ

رجـلٌ تَوَلَّهـتِ المـكارمُ بعـدَهُ ... ليســتْ تُصَـدِّقُ أنَّهـا ترْثيـهِ

عَلَـمٌ إذا قيـسَ الرِّجـالُ بشِـبْهِهِ ... ذُهِـلَ الرِّجـالُ لِروْعـةِ التَّشـبيهِ

فـالشَّـيـخُ عبـدُالله آل خـليفـةٍ ... تاريخُـــه أفعالُـــهُ تَرْويـــهِ

هـذي فضائِلُـهُ تَتَالـىٰ بذْلُهـا ... كالقَطْـرِ ، هـلْ للقطـرِ مـن يُحصيـهِ؟

نزلـتْ محامـدُهُ علـىٰ أرضِ النَّـدىٰ ... فنمَـــا غِـــراسٌ كـفُّـــهُ ترويـهِ

وإذِ الغـراسُ كحبَّـةٍ قـدْ أنبتـتْ ... حقـــلاً سنـــابلُهُ غـــراسٌ فيـهِ

وثمـــارهُ متراكـــباتٌ فـــوقَـــهُ ... وغصـــونُهُ مِـــنْ فيْضـــهِ تُنْميـهِ

تتكاثـرُ الخيـراتُ مِـنْ خيراتِـهِ ... لِيَعـمَّ هـذا النَّفـعُ مَـنْ يُعطيـهِ

المجلـسُ الأعلـىٰ يُقـرُّ بفضلِـهِ ... وبـكلِّ شـيءٍ قـد تطـوَّرَ فيـهِ

إني لأحســبُ أنَّ مِـنْ حسـناتِهِ ... وفضائـــلِ الخيـرِ الـذي يؤتيـهِ

تعليـمَ طفـلٍ كيـفَ يتلـو آيـةً ... ويفـــسِّرُ المعـــنىٰ بـلا تشْـويهِ

فيحـوزَ أجـرَ العلـمِ مِـنْ تعليمِـهِ ... مـن كلِّ حـرفٍ خـارجٍ مِـنْ فيـهِ

هـذي المراكـزُ أُنشـئتْ بيمينِـهِ ... وأفـاضَ عطفًـا فوقَهـا يوليـهِ

حتـىٰ غَـدتْ أنوارهـا براقـةً ... تُغْلـي كتـابَ اللهِ إذْ تُعْلـيهِ

وغـدتْ بهـا البحريـنُ في أعلىٰ سمـا ... أبناؤهـــا حـــازوا الجوائـزَ فيـهِ
هـو مَـنْ رعاهـمْ واحتفـىٰ بعطائِهـمْ ... وأحاطَهـــمْ بالنُّصْـحِ والتَّوجيـهِ
وحـوىٰ مشـايخَهمْ بحضـنٍ دافـئٍ ... لمســوا الكرامـةَ والمحبـةَ فيـهِ
فلقـارئِ القـرآنِ خيـرُ مكانـةٍ ... وكـــذا لـــكلِّ محـدّثٍ وفقيـهِ
إكـرامُ أهـلِ العلـم مِـنْ أخلاقِـهِ ... واللهُ خـيـــرًا عنهـــمُ يجزيـــهِ
مـا مثـلُ عبـدِ اللهِ يُرثـىٰ إنَّـما ... تُرثَـــىٰ منـاقِبـــهُ التـي تُبقيـهِ
مـا مـاتَ مَـنْ أبقـىٰ تراثًـا بعـدَهُ ... لِيظـلَّ ذكـــرىٰ نبضُهـا يُحْييـهِ
قـد مـاتَ في رمضـانَ آخـرَ عشـــرةٍ ... أَلِحُســـنِ خـــاتمةٍ لـهُ تأتيـهِ؟
هـــذي جِنازتُـــهُ شـهادةُ أمَّـةٍ ... فقـــدتْ حبيبًـا فانـبرتْ تبكيـهِ
صلَّـتْ عليـهِ وأخلَصـتْ دعواتِهـا ... يـا ربِّ في الفـردوسِ أن تؤويـهِ
والقلـــبُ مفطـورٌ لفرقـةِ مهجـةٍ ... سـكنتْ بخافقِـهِ فمَـنْ يشـفيهِ
فالصَّـبرُ يوشـكُ أن يـزولَ غطـاؤه ... والحـزنُ بـادٍ لـم يعـدْ يُخفيـهِ
والشـعرُ يبكـي في ختـامِ قصيـدةٍ ... لـم تسـتَطعْ في الوصـفِ أن تُوفيـهِ
لكـــنْ عـــزاءُ العارفيـنَ بفضلِـهِ ... أنَّ القصـيـــدَ يُقـــالُ للتَّنويـهِ
والفضـــلُ لا يحويـه بحـرُ كتابـةٍ ... فقصيـدةٌ في الشِّـعرِ هـلْ تحويـهِ؟
يـا ربِّ في الجنَّـاتِ أسـكنْ روحَـهُ ... واجعـلْ كتـابَ اللهِ يشـفعُ فيـهِ

أسس الدولة المدنية في الإسلام

«الحلقة الثانية»

أ.د. نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ

تقديم:

حدثناكم في الحلقة الأولىٰ عن بناء الدولة المدنية في الإسلام، واختيار نواب الشعب بالشعب، وأول معاهدة سياسية في الإسلام وبنودها، ومشاركة المرأة فيها، والمراسلات السياسية وعالمية الإسلام، والحصانة الدبلوماسية، وحماية الأسير، وعقد المواطنة الأول في دولة الإسلام المدنية وبنود العقد، والدروس المستفادة منه.

ونبدأ معكم هذه الحلقة (الثانية) عن التربية لحب الوطن.

خامسًا: التربية لحب الوطن:

– تهتم الدولة المدنية الإسلامية اهتماماً كبيراً بحب الوطن، وتربية الأجيال علىٰ ذلك، والدول في الوقت الحالي تعد مناهج ومقررات دراسية في المواطنة وحب الوطن، ومن العجيب أن البعض من المسلمين يظنون جهلاً أن حب الوطن يتنافىٰ مع العقيدة الإسلامية، وعقيدة الولاء والبراء، وقد أدىٰ هذا الفهم الخاطئ إلىٰ سلوكيات وتوجهات خاطئة جعلت المسلمين في محنة الأندلس يتركون وطنهم خلف ظهورهم للصليبيين، وآثروا الفرار بدينهم وأنفسهم عن القتال والدفاع عن ديارهم وأوطانهم، وقد شجع أعداء الله تأصيل هذا الفهم الخاطئ، ومن الأخطاء التي وقع فيها بعض الفقهاء اعتبار هذه الديار المحتلة تحولت من دار إسلام إلىٰ دار حرب، وقامت محاولات لتطبيق هذا المفهوم علىٰ فلسطين وبيت المقدس، وفعلاً صدرت فتاوىٰ بتحويل فلسطين من دار إسلام إلىٰ دار حرب ويجب تركها دون قتال من أجلها، وسرعان ما استيقن العلماء والدعاة والمربون والسياسيون والمرابطون بفلسطين والمجاهدون خطورة هذا الفهم الخاطئ وتذكروا محنة هذا الفهم في إسبانيا المسلمة.

– وقد علمنا رسول الله ﷺ حب الوطن والدفاع عنه فاشترك المسلمون جميعاً في حفر الخندق للدفاع عن المدينة المنورة نواة دولة الإسلام المدنية، بعدما أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق.

- وقال رسول الله ﷺ عن مكة: (والله إنك لخير أرض الله إلىٰ الله ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت)[1].

- ومكة -كرمها الله تعالىٰ- هي أحب البلاد إلىٰ رسول الله ﷺ، وما كان ﷺ ليسكن غيرها لولا أن قومه أخرجوه منها، وقال عن مكة أيضاً: (ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2].

وهذا يدلل دلالة قاطعة علىٰ حب المصطفىٰ ﷺ لوطنه وبلده، وأرض الله الحرام، وقد نقل المصطفىٰ هذا الحب للمسلمين، وحوىٰ القرآن الكريم العديد من الآيات الداعية لحب الوطن والوطنية:

- قال تعالىٰ: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحشر:٨].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر:٩].

- وبهذا الفهم وبهذا السلوك والإيثار والتكافل يقوىٰ نسيج المجتمع وتقوىٰ المحبة بين المواطنين علىٰ أسس علمية عملية عقائدية إسلامية ولهذا كانت دولة الإسلام دولة قوية ومتماسكة ومترابطة اجتماعيًّا وسياسيًّا ودفاعيًّا[3].

- وقال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ

(١) صحيح سنن الترمذي.
(٢) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».
(٣) ماذا يحب الله تعالىٰ جل جلاله وماذا يبغض، عدنان الطرشة (ص٤٠٧).

مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[سورة النساء:٦٦].

– وقال تعالىٰ عن الملأ من بني إسرائيل: ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ [سورة البقرة:٢٤٦].

– فجعلوا الإخراج القسري من ديارهم سبباً رئيساً وحجة دامغة للجهاد.

– وقال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة:٨].

– حيث ربط الله تعالىٰ بين الدين والديار، وعدم التهديد فيهما سببٌ لبر المخالفين لنا.

– هذه الآيات تكشف زيف وخطأ من يعتبرون الوطن وحب الوطن والوطنية من المسائل الفرعية، وقد يعيشون في الوطن الذي ولدوا فيه ونشأوا وترعرعوا وتعلموا ولعبوا وفرحوا وحزنوا وتأملوا وتزوجوا وأنجبوا، ولكن التربية الخاطئة حولت مشاعرهم إلىٰ خارج الوطن وتحولت أيدولوجيتهم إلىٰ فرد يتصادم مع الوطن والمواطنين إلىٰ الحد الذي يدفعه إلىٰ الاعتداء علىٰ وطنه والمدارس والجامعات والمساجد التي تعلم فيها وتعطيل الإنتاج فيه، وقتل الجيران والأطفال والنساء والرجال وأن يغلف هذا السلوك الوحشي غير الإنساني وغير السوي بغلاف ديني وغلاف شرعي وفقهي. فقد قال الرسول ﷺ : (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أوأشد)[1].

– وقال ﷺ لبلده ووطنه: (ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2]. وهذا بلال الذي عُذب في بطحاء مكة بأيدي طواغيت مكة وصبيانها ينشد في مرضه قائلاً :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل؟
وهل أرِدَن يوماً مياه مَجَنَّة
وهل يَبْدون لي شامة وطفيل ؟

(١) أخرجه البخاري.
(٢) صحيح سنن الترمذي (ماذا يحب الله جل جلاله وماذا يبغض، عدنان الطرشة (مرجع سابق)ص٤٠٧.

– يتمنىٰ بلال أن يبيت في أرض مكة وحوله نباتها البري، ويرد ماءها ويظهر له جبالها (شامة وطفيل، لم يتذكر العذاب ولم يتمنّ الانتقام من أهل وطنه أوإهلاك زرعها أوردم مائِها، إنها نفسية سوية إيمانية، وهكذا كان الفرد في دولة الإسلام محبًّا للوطن ونبات الوطن وماء الوطن وهواء الوطن وجيرانه في الوطن.

– وعجبًا لمن خربوا الأوطان وتآمروا علىٰ جيرانهم وخرجت مشاعرهم إلىٰ خارج أوطانهم وحركتهم أيادي أرادوا القضاء علىٰ الوطن، والعجيب أن يتجسس علىٰ الوطن وجيش الوطن وشرطة الوطن ومقدرات الوطن ودعائم التقدم في الوطن.

– التربية الإسلامية في الدولة الإسلامية المدنية التي أسسها رسول الله ﷺ تؤكد علىٰ حب الوطن وحرمة زهق الأرواح وإتلاف المال والتعدي علىٰ الأعراض فمن الهدي العلمي النبوي أن كل المسلم علىٰ المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، وحب الوطن فطرة بشرية يشترك فيها الإنسان ومعظم الحيوان.

قال ابن الرومي :

وحبَّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ
مآربُ قضاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتْهمُ
عهودَ الصِّبا فيها فحنوا لذلكا

سادسًا : تكريم الإنسان:

– جاء الإسلام ليربي الإنسان ويؤمن حياته في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، فهيأ الله تعالىٰ له بيئة أرضية صالحة لحياته ورزقه ما ينفعه فيها وقدَّر فيها أقواتها، وبث فيها من كل دابة نافعة ومتنوعة تصلح له التربة الزراعية، وتنظف له البيئة من المخلفات العضوية، وتمده بالأكسجين وتخلصه من ثاني أكسيد الكربون الزائد، وأمده بالماء والنبات والحيوان والكائنات الحية الدقيقة والتربة الزراعية والجبال والقوانين الفيزيائية والضوء والحرارة والطاقة، ولم يتركه في هذه الدنيا هملاً بل أرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب وحفظ حقوقه وحماه من الظلم والجور والفساد والمرض.

- وينظر الإسلام -دين الله- إلىٰ الإنسان نظرة متميزة عن غيرها من النظرات والتصورات الأخرىٰ، فهو يقرر أن الإنسان قمة المخلوقات الحية التي تعيش علىٰ الأرض وأفضلها وأكرمها لما أودع فيه من مزايا وصفات، ولما أعده من جليل المقاصد والغايات.

- فقد كرم الله تعالىٰ الإنسان في أصل الخِلْقة، وفضله علىٰ كثير من خلقه، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

- إذ خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [سورة السجدة:٦-٩].

- قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [سورة ص:٧٥].

- وخلق الله تعالىٰ الإنسان في أحسن صورة وأجملها بين سائر المخلوقات قال تعالىٰ: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [سورة غافر:٦٤]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [سورة الانفطار:٧]، أي جعلك سويًّا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال[1].

- وزوده بالعديد من القوىٰ والقدرات والإمكانات والأعضاء التي تعينه علىٰ إدراك حقائق الوجود،فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة السجدة: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة النحل:٧٨].

- وأسجد له الملائكة وعلَّمه ما لم يعلم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة:٣٤]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن:١-٤].

(١) تفسير ابن كثير.

- وسخر له كل شيء في الكون قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

- وجعله خليفة في الأرض ليعمرها بنواميس الله في الخلق، وبالخير والعمل الصالح وعبادة الخالق قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [سورة البقرة:٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [سورة هود:٦١]، فالإنسان مكلف من قبل الخالق سبحانه وتعالىٰ باستثمار كل ما في الكون والانتفاع به وتسخيره لمنفعته، وفي هذا أبلغ تكريم للإنسان حيث سخر له وذلل له ما هو أكبر منه خلقاً كالسموات والأرضين وأعظم منه جسماً كالأنعام، وأكثر منه خطراً وأثراً في ظاهر الأمر والخلق كالبحار والرياح والنار والشمس والقمر والنجوم والقوانين الحاكمة لكل هذه المخلوقات.

- وخلقه الله تعالىٰ علىٰ فطرة سوية صالحة نقية سليمة حيث يقول رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه)[1]، فلم يُفطر علىٰ الشر بطبعه، ولم يُحمَّل خطيئة لم يرتكبها، بل يولد ولديه الاستعداد الفطري للخير والشر معاً فيكسب الخير والشر بعمله وإرادته فيكون مسؤولاً عن هذا العمل قال تعالىٰ: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [سورة البلد:١٠]، وكذلك : ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [سورة الطور:٢١].

- لذلك فالإنسان في دولة الإسلام في جانب الحقوق المادية كفل له حق الحياة، وحق الأمن، وحق الملكية وحق العمل، وحق الحرية، وحق التعليم والتعلم وحق الصحة والعلاج وغير ذلك من الحقوق التي تجعل منه مواطناً مكرماً في وطنه تحت رعاية دولته الإسلامية[2].

سابعًا : حقوق الإنسان :

- من تكريم الإنسان في دولة الإسلام المدنية حفظ حقوقه الأساسية والفرعية، فالإسلام جاء للإنسان، ومن حقوقه الضرورية

(١) رواه البخاري.
(٢) حقوق الإنسان في مجال الأسرة، مفرح بن سليمان ابن عبدالله القوسي (ص١٨).

حقه في الحياة، وحق الحرية، وعدم الاستعباد والرق والحق في المساواة، وحق التدين.

١ - حق الحياة :

حق الحياة هوالحق الأول للإنسان، وبه تبدأ سائر الحقوق، وعند وجوده تطبق بقية الحقوق، وعند انتهائه تنعدم الحقوق (كما قال الدكتور محمد الزحيلي في حقوق الإنسان في الإسلام).

وقال: وحق الحياة هوحق الإنسان في الظاهر، ولكنه في الحقيقة منحة من الله تعالىٰ الخالق البارئ، وليس للإنسان فضل في إيجاده، وكل اعتداء عليه يعتبر جريمة (يعاقب عليها في دولة الإسلام المدنية). وقد نص الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان علىٰ هذا الحق فقال: الحياة هبة من الله تعالىٰ، وهي مكفولة لكل إنسان، وعلىٰ الأفراد والمجتمعات والدولة حماية هذا الحق من كل اعتداء عليه، ولا يجوز إزهاق روحه دون مقتضىٰ شرعي، وهذا مأخوذ من الهدي النبوي: (كل المسلم علىٰ المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه)[1]، وهذا ما أكد عليه الرسول ﷺ في البيان الختامي للاجتماع الموسع للمسلمين في حجة الوداع: (إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)[2]، ويعتبر حق الحياة مكفولًا في دولة الإسلام بالشريعة الإسلامية لكل إنسان، ويجب علىٰ سائر الأفراد أولاً، والمجتمع ثانيًا، والدولة ثالثًا حماية هذا الحق من كل اعتداء مع وجوب تأمين الوسائل اللازمة لتأمينه من الغذاء والدواء والأمن وحمايته من الانحراف والعدوىٰ.

لذلك يحرم الاعتداء علىٰ حياة الإنسان، ويحرم ويجرم قتل الانسان إلا بالحق، وما عدا ذلك فإن حق الحياة مضمون ومقدس بالنصوص الشرعية الدامغة (وقطعية الدلالة) قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سورة الأنعام:١٥١]، ووصف الله تعالىٰ عباد الرحمن بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سورة الفرقان:٦٨]، لأن الحياة هبة من الله فهوسبحانه المحيي وله

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.

الممات وحده، فهو المميت سبحانه.

- ثم هدد الله تعالىٰ القاتل تهديداً شديداً لا مثيل له إلاَّ بالكفر والشرك، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[سورة النساء:٩٣].

- وقال تعالىٰ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [سورة المائدة:٣٢].

- ثم قرر الله تعالىٰ العقوبة المناسبة للقاتل وهو القصاص مع بيان حكمته فقال عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٧٩].

وأن هذا الحق يتساوىٰ فيه الناس جميعاً بمجرد الحياة ولا يشترط فيه التساوي بين الشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والعاقل والمجنون والبالغ والصبي، والذكر والأنثىٰ، والحر والعبد والمسلم بالذمي كما قال الدكتور محمد الزحيلي في حقوق الإنسان، وقال : هذا الإطلاق يتفق مع المذهب الحنفي في قصاص الحر بالعبد، والمسلم بالذمي خلافاً لجمهور الفقهاء كما هو مقرر في كتب الفقه (أ.هـ).

وحرم الإسلام الانتحار والإذن بالقتل والاقتتال بين شخصين لإثبات الحق أو لدفع العار والإهانة، وحرم قتل الجنين وأباح الشرع المحظورات للحفاظ علىٰ الحياة وجعل الإسلام للميت حرمة مصانة في دولة الإسلام المدنية.

٢- حق الحرية :

- عندما سأل رستم قائد جيش الفرس ربعي بن عامر، ما جاء بكم؟

قال ربعي: (الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله (وحده)، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه

ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبىٰ قاتلناه أبداً حتىٰ نُفضي إلىٰ موعود الله).

قال رستم: وما موعود الله؟

قال ربعي: الجنة لمن مات علىٰ قتال من أبىٰ، والظفر لمن بقي[1].

– وهذا الموقف يبين أن الحرية العقائدية مكفولة في دين الله، وأن المهمة الأصيلة لدين الله هو تحرير العباد من عبودية العباد وما يشرعون للناس إلىٰ عبادة رب الناس جميعاً، وهذه قمة الحرية، وإن الهدف من نشر الدعوة الإسلامية إخراج الناس من ضيق الدنيا الذي صنعه الإنسان لأخيه الإنسان بالاحتكار، والفساد، والرشوة والمحسوبية وحرمان الإنسان من تقلد الوظائف حسب قدراته، وحقه في التربية، والصحة والتعليم المتميز، والتصرف المقنن لأمواله وعدم اغتصابها، والتوزيع العادل لخيرات الأرض، وعندما يتحقق ذلك تتسع الدنيا علىٰ المواطن ويشعر بالأمن والأمان والحرية.

– ومن جور الأديان، بالعصبية والجاهلية والقهر والتشريعات الباطلة، وتحذير الناس وتعبيدهم باسم الدين إلىٰ عدل الإسلام الذي يحقق للإنسان كرامته ويؤمن له متطلبات حياته ويتقلد مكانته في المجتمع بعمله وبجده واجتهاده وقدراته الشخصية.

– فمن قبل بهذه المبادئ والأسس الإنسانية الفطرية (قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا)، فلا غلبة للبندقية والمدفع، ولا استعمار للأرض، وسرقة خيرات الشعوب، وزع العصبية، والفتن الطائفية، وتفرقة الناس لسيادة المستعمر) (فرق تسد).

– ومن أبىٰ نبذ العبودية للعباد، وتخدير الناس بالدين وصمَّم علىٰ الاستبداد قاتلناه، قتال مبادئ سامية وعادلة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٥١].

– قال الدكتور عبد العزيز الحميدي: (وهكذا استطاع هذا العبقري الملهم أن يرمي دولتهم بقنبلة بعيدة الأثر في مجتمعهم

(١) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، عبد العزيز الحميدي ج (١٠) (٤١٤).

(الجاهلي) حيث فرقت جمعهم، ونبهت العامة والمستضعفين إلىٰ (حريتهم) وحقوقهم المسلوبة(أ.هـ)، ويكفي في هذا المجال مقولة الفاروق الفارقة في تاريخ البشرية (متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)، فلا عبودية بالميلاد، ولا مذلة بالميلاد، ولا طبقية بالميلاد فالكل حر وهوأمام القانون مع الجميع سواء.

– هذه تربية المدرسة النبوية في الدولة الإسلامية المدنية، وهؤلاء هم مُخرجات هذه المدرسة العظيمة التي غيرت مجرىٰ التاريخ والبشرية[١].

٣- رعاية الشيخوخة :

تهتم الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية والمواطنون فيها بالضعفاء اهتماماً كبيرًا فقال عليه الصلاة والسلام: (رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغف أنف. قيل من يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: (من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أوكليْهما فلم يدخل الجنة)[٢]، أي: أنه قصر بواجبه نحوهما كأبوين أولاً، وشيخين ثانياً، ولم يحظ بخدمتهما وبرهما للوصول إلىٰ الجنة.

– كما أن النفقة علىٰ الوالدين وخاصة عند الشيخوخة، من أوجب الواجبات، وهومقرر باتفاق المذاهب الفقهية (كما قال الدكتور محمد الزحيلي في حقوق الإنسان).

– ورعاية الشيخوخة من الآداب الإسلامية العامة، قال ﷺ : (ليس منا من لم يُجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه)[٣].

– وقال الصديق رضي الله عنه لجيش أسامة: (لا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة).

– ومن وصايا الرسول ﷺ: (انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلىٰ ملة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضعوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)[٤].

(١) انظر: مدرسة العظماء العالمية، نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ، دار السلام للطباعة والنشر (٢٠١٧م).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أحمد، والحاكم.
(٤) رواه أبوداود في الفتح الكبير.

– ووصىٰ الله تعالىٰ بالوالدين عند الكبر قال تعالىٰ : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء:٢٣-٢٤].

– ولم تعرف الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية عزل الشيخ والعجوز بعيداً عن بيت العائلة حتىٰ يشعر بالحب والحنان والدفء والتقدير.

٤- التميز في حفظ حقوق الجنين :

– يتمتع الجنين في الدولة الإسلامية بحقوق لا يتمتع بها الجنين في الدول الأخرىٰ والحضارات الأخرىٰ والنظم الأخرىٰ، ومن هذه الحقوق :

١- الحق في النسب الثابت الموثق، فقد قرر الإسلام للجنين حقًّا في الأصل الثابت بأن شرع الزواج، وجعله الطريق الوحيد للذرية والأبناء قال تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة:٢٢٣]، فجعل الرحم مكان الزرع، والنطفة هي البذرة التي يزرعها الرجل في رحم الزوجة.

– وجعل الشهود من شروط العقد، فعندما يتزوج المسلم يشهد المسلمون ذلك، وهذا يحفظ حق الأجنة القادمة من هذا الزواج بإذن الله في أبوين معلومين موثقين مشهود علىٰ زواجهما.

كما جعل الإسلام إعلان الزواج علانية من الفوارق بين النكاح والسفاح، فالإعلان معناه معرفة الجميع بالزواج ومصدر الذرية والأجنة (معلن عنه: بالدف).

– وشرع الإسلام العدة لبراءة الرحم، وهذا يحفظ للجنين حقه في أصله، فلا يضيع الجنين بين الأزواج كما يحدث إن غابت العدة.

– حرم الإسلام الزنىٰ تحريما قاطعاً علىٰ المؤمنين قال تعالىٰ : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور:٣].

– وأقر الإسلام إقامة الحد علىٰ الزانية والزاني وشهود طائفة من المؤمنين إقامة الحد

قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور:٢]، من هنا يُضمن حق الجنين في الأصل والنسب الثابت في دولة الإسلام، وهذا الحق مفقود في الدول والمجتمعات التي تسمح بالصداقة بين الرجل والمرأة وتسمح بالزنىٰ والمخادنة والحق في التجريب والحمل دون عقد زواج رسمي.

٢- الحق في بيئة رحمية طاهرة: الرحم هوالبيئة الأولىٰ التي ينشأ فيها الجنين، وقد حمىٰ الإسلام هذه البيئة الرحمية وأحاطها بسياج عظيم وميثاق غليظ بين الرجل والمرأة، فلا يدخل إلىٰ هذه البيئة إلا ما يزرعه الزوج ويغرسه بنفسه، وحرم الإسلام الزنىٰ المؤدي إلىٰ تلوث البيئة الرحمية بالأمراض الجنسية، وخاصة الفيروسية منها.

- وحمىٰ الإسلام المرأة من المُسكرات والمُفَتّرات والمخدرات والأطعمة الفاسدة: قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [سورة طه:٨١]، وحرم الإسلام الميتة والدم ولحم الخنزير، وكل هذا يضمن للجنين بيئة رحمية نظيفة خالية من الملوثات والمفسدات والممرضات والمهلكات.

- كما حرم الإسلام الاختلاط المفسد بين المرأة المسلمة والأجانب من الرجال، حفاظاً لها من مخالطة المرضىٰ والفساق، وفي هذا حماية للجنين وبيئته الرحمية الطاهرة المطهرة.

٣- الحق في الأصل الوراثي القوي: فالثابت علميًّا أن الجنين يتكون من اندماج صبغيات (كروموزمات) المرأة وصبغيات الرجل، وأن هذه الصبغيات تحمل الجينات المحددة للصفات الوراثية للجنين، والمعلوم أن زواج الأباعد أصح من زواج الأقارب.

- وأرشد الرسول ﷺ الرجل أن ينظر إلىٰ خطيبته قبل الزواج منها، لأن عائلتها عندها أشياء غير سوية في أعينهم، وفي هذا ضمان للجنين وأن أمه خالية من العيوب الوراثية (وهذا يؤكد علىٰ أهمية الفحص قبل الزواج).

٤- الحق في عقيدة صحيحة : حيث ينصح الإسلام الأزواج باختيار الزوج الصالح والبعد عن الزوج المشرك وغير الصالح قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ

وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة البقرة:٢٢١].

وفي هذا ضمان للجنين قبل ميلاده في عقيدة صالحة ودين صحيح لا تفسده عقيدة الأم أو الأب الفاسدة.

٥- الحق في المساواة مع باقي الأجنة : فقد قرر الإسلام أن الله تعالىٰ هوالذي يهب الذكور، وهوالذي يهب الإناث، ومن هنا فالجنين الذكر من نعم الله وبأمره، والجنين الأنثىٰ من نعم الله وبأمره، وهذا المنحىٰ يرفع عن الجنين مسؤولية نوعه ويساوي بين الجنين الذكر والجنين الأنثىٰ، وهذا حق في المساواة بين الأجنة.

٦- الحق في الحفاظ علىٰ حياته : قررت الشريعة الإسلامية حق الجنين في الحفاظ علىٰ حياته، فلا يجوز شرعًا قتل الجنين أوإسقاطه من غير سبب شرعي وطبي يقرره أهل العلم من الفقهاء والأطباء والاجتماعيين، وهذا الحق مكفول، ولا تفرق الشريعة الإسلامية في شأن الاعتداء علىٰ حياة الجنين بين صدوره من الأم أو الأب أوغيرهما، وتحرم الشريعة الإسلامية الجاني من الميراث إذا كان الجنين هوالمجنىٰ عليه للاستيلاء علىٰ ميراثه، وفي هذا حماية لحق الجنين في الحفاظ علىٰ حياته.

- كما تقضي الشريعة الإسلامية بتأجيل العقوبة علىٰ الزانية الحامل إلىٰ حين وضع الحمل كما فَعَل المصطفىٰ ﷺ مع الغامدية.

٧- حفظ حقوقه المالية : حفظ الإسلام حق الجنين في الميراث إذا ولد حيًّا، وذكر الفقهاء أن الحمل من جملة الورثة، فلا بد من رعاية حقه وحفظ ميراثه فإذا ولد حيًّا أخذه، وتقسم التركة علىٰ أساس حجز أكبر نصيب ممكن لهذا الحمل، أي يراعىٰ الأصلح والأنفع له، كما تصح الوصية للجنين[1].

ثامنًا: نبذ العصبية الجاهلية :

- العصبية هي الاجتماع علىٰ الشيء والانتصار له سواء كان حقًّا أم باطلاً.

(١) انظر حقوق الطفل بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، عبد العزيز مخيمر عبد الهادي، وأخي المسلم اكتشف الإسلام، نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ.

والعصبي: هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم، والعصبة هي الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه، ويتعصب لهم، أي يحيطون به ويشتد بهم، والعصبية والتعصب المحاماة والمدافعة تعصيباً له أومعه، نصرناه[1].

- ولذلك؛ فالعصبية هي الانتصار لأمر قد لا يكون فيه نصرة للحق أوللأمة، بل قد يدعي الرجل نصرة عصبته ضد أمته أوضد شعبه[2].

- والعصبية ممقوته في الدولة الإسلامية وفي القرآن الكريم؛ لأنها تدمر الدولة من داخلها، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣].

- وحذرت السنة المطهرة من العصبية، فعن أبي مجلز عن جندب بن عبدالله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: (من قُتِل تحت راية عُمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية[3]، قال صاحب السراج الوهاج: إن في قوله ﷺ: (من قاتل تحت راية عُمِّية) بضم العين وكسرها لغتين مشهورتين والميم مكسورة مشددة أيضاً، والباء مشددة أيضاً، قالوا: هي الأمر الأعمىٰ لا يستبين وجهه - كذا قاله أحمد بن حنبل رحمه الله والجمهور - قال إسحاق بن راهويه: (هذا كاقتتال القوم عصبيته)[4].

- وفي عاقبة صاحب العصبية قوله ﷺ: (ليس منا) أي ليس من أهل ملتنا من دعا أي الناس (إلىٰ عصبية).

- قال المناوي: (أي: من يدعوالناس إلىٰ الاجتماع علىٰ عصبية وهي معاونة الظالم).

- وقال القاري: أي إلىٰ اجتماع عصبية في معاونة ظالم[5]، وفي رواية (فليس مني ولست

(١) لسان العرب، ابن منظور.
(٢) العصبية في ضوء الإسلام، محمد المشهداني.
(٣) رواه مسلم.
(٤) السراج الوهاج، صديق حسن خان.
(٥) عون المعبود، المنذري نقلاً عن العصبية في ضوء الإسلام ص (٧).

منه)، قال صاحب السراج الوهاج: (وفي هذا من الوعيد والزجر ما لا يقدر قدره)[1].

تاسعًا : الوحدة الإنسانية :

- جاء الإسلام متممًا للدين وخاتمًا للشرائع السماوية، وبعث الله تعالىٰ نبيه محمدًا ﷺ للناس كافة بشيراً ونذيراً ورحمة فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

- وأعلن الإسلام أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [سورة النساء:١]، وهذا الأصل البشري الواحد يعطي كل أفراد هذه الأسرة الإنسانية الواحدة حقوق الكرامة الإنسانية الواحدة دون استثناء أوتميز كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [سورة الإسراء:٧٠].

- ثم جعل الله تعالىٰ اختلاف البشرية في ألوانها وأجناسها ولغاتها آية من آيات الله الدالة علىٰ عظمته وقدرته عز وجل، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [سورة الروم:٢١-٢٢]، وجعل الله تعالىٰ هذا الاختلاف والتنوع سبيلاً إلىٰ تعارف البشرية وتعاونها وتكاملها علىٰ الخير كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [سورة الحجرات:١٣]، فالناس عند الله خالقهم سواسية من حيث بَشَرِيتهم (الفطرية) ولكنهم يتمايزون عنده سبحانه وتعالىٰ بدينهم (المكتسب) وتقواهم واستقامتهم وعملهم[2].

- ووضع الله تعالىٰ لعباده قاعدة قرآنية تعد الدستور الأساس في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ

(١) السراج الوهاج، صديق حسن خان.
(٢) الحوار الإسلامي المسيحي، بسّام داود عجك (ص٣٣)، انظر مواقف سياسية من سيرة خير البرية (مرجع سابق) (ص٣٨،٣٧).

ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [سورة الممتحنة:٨]، وبذلك نظمت الآية العلاقة بين المسلمين وغيرهم في دولة الإسلام المدنية الحديثة، وهذه العلاقة قائمة على أمر عظيم من العدل – الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه – وإنما ترتقي تلك العلاقة إلى مرحلة الإحسان – وهو إعطاء الزيادة على الحق – ولقد قدمت الآية لفظ البرّ الذي يعني فعل كل الخير من أي نوع كان، على لفظ القسط الذي يعني العدل، وهذه إشارة رائعة في الآية الكريمة إلى كيفية معاملة غير المسلمين في حالة السِّلم (وفي الوطن الواحد) إنها علاقة قائمة على البر والإحسان وهو فوق العدل وفوق إعطاء الحقوق[1].

– والحقوق المقررة لغير المسلمين في الآية السابقة هي نفس الحقوق المقررة في القرآن الكريم للوالدين والمسلمين من البر والقسط قال تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ [سورة البقرة:٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [سورة المائدة:٢]، فلتتصور أننا نعيش في وطن واحد، ودولة واحدة مع طائفة من غير المسلمين وقد أوجب الله تعالى على المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم لقوله تعالى: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [سورة الممتحنة:٨].

– وجعل الله تعالى ذلك طريقاً لطاعته ومحبته، هذا ميزان فوق ميزان الحقوق الإنسانية، وفوق ميزان العدل (الذي تحلم به البشرية)، إنه ميزان البر ومحبة الله تعالى، وهذه أفضل علاقة يمكن أن تقام بين فردين مختلفين، وطائفتين مختلفتين في العقيدة والشريعة والدين، إنها علاقة تخطت في حُسنها وروعتها كل القوانين البشرية في الوحدة الوطنية، والتعايش السلمي والمعاملة الإنسانية.

– هذه علاقة المواطنين والجيران في الدولة الإسلامية، وهي علاقة لم تحققها إلى الآن أغنى الدول الحديثة التي يُمجِّدُها العَلمانيون (بفتح العين) والليبراليون من بني جلدتنا الذين يجهلون أويتجاهلون هذه الأسس الربانية في العلاقات الإنسانية في القرآن دستور الإسلام،

(١) المرجع السابق ص٣٧.

وفي صحيفة المدينة العقد الأول للمواطنة في العالم[١].

من واجب المواطن في الدولة الإسلامية :

- على المواطن الصالح إعلاء كلمة الله تعالىٰ في بلده، ومن خلال الدين ننعم بالاستقرار ونتمتع بالمواطنة والأخوة الإنسانية واحترام الآخرين وتقديرهم.

- والدفاع عن الوطن واجب علىٰ كل مواطن.

- والتعاون والمشاركة والعيش مع الآخرين من المواطنين بسلام واجب، فالوطن للجميع والخير والشر يعم الجميع، ومن هنا وجب بناء علاقة قوية وسوية بين أفراد الوطن الواحد وإن اختلفوا في العقيدة والدين والمذهب والطائفة والأصل الوراثي، وعلىٰ المواطن في الدولة الإسلامية المدنية أن يراعي حقوق جاره لقوله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل من يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٢].

- ومن سعادة المرء أن يكون في وطن آمن يشعر فيه بالعطف عليه، والمحبة له، ومن شقائه أن يكون بين مواطنين يضمرون له الشر، ويدبرون له المكائد، فالشخص الذي بجانبه جيران سوء يعملون للإضرار به في نفسه أوماله أوولده، أوعرضه، ويحيكون له العظائم والدواهي مُنغصٌ في عيشه لا يهنأ له بال ولا ينعم بمال وعيال، وقد بين ﷺ أن من هذا خُلقه وذلك دخيلته مع جاره فهوغير مؤمن، وكرر ذلك ثلاث مرات، والمؤمن من أمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم وأعراضهم[٣]، وقال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلىٰ جاره)[٤].

- فمن واجبات المواطنة الإحسان إلىٰ الجار واسم الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والقريب والأجنبي، والأقرب داراً والأبعد، وله مراتب بعضها أعلىٰ من بعض، وفي الحديث: (ما

(١) تعايش وطني بلا فتن طائفية، نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ (ص٢٤) مرجع سابق (ص٢٢٠).
(٢) رواه البخاري.
(٣) الأدب النبوي، محمد الخولي (ص١٤٨).
(٤) جزء من حديث رواه الشيخان.

زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظَنَنْتُ أنه سيورثه)، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النساء:٣٦].

- ومن حقوق الوطن علىٰ المواطن: العمل والإنتاج وإتقان العمل، والإبداع، وتحصيل العلم النافع وتطبيقه، والاقتصاد، والمحافظة علىٰ البيئة وعدم الإفساد فيها وحماية التنوع الحيوي في الوطن.

- وعلىٰ المواطن في دولة الإسلام احترام الدستور وقوانين الدولة، وممارسة الحقوق السياسية، والبعد عن الفساد والإفساد، والفتن الطائفية والمذهبية، والمنازعات.

حقوق المواطن في الدولة الإسلامية :

- من حقوق المواطن العيش بكرامة في وطنه والاحترام والتقدير، فيجب أن يعيش الإنسان في وطنه آمناً ومكرماً في ظل القوانين والنظم في البلاد، وعلىٰ الدولة، والحاكم والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية تحقيق ذلك للمواطن.

- وللمواطن الحق في الشعور بالأمن والأمان في وطنه، وعلىٰ القائمين علىٰ أمر الوطن تحقيق الأمن السياسي والاقتصادي والصحي والاجتماعي والعسكري والشُّرطي والتربوي والتعليمي والنفسي للمواطن، وللمواطن الحق في العمل الشريف، والتأمين الصحي والاجتماعي والتعليمي.

- وكذلك المساواة بينه وبين المواطنين الآخرين في الحقوق والواجبات، وتأمين قضاء عادل للمواطن يلجأ إليه فيجد العدل، وأن يتمتع بالحقوق السابق ذكرها[1].

- وهكذا المواطن الآمن في الوطن الآمن في ظل دولة الإسلام المدنية الحديثة التي تحكم بالعدل ويتمتع المواطن فيها بالحرية والأمن والأمان، وهذا ما تحقق في المدينة المنورة في ظل حكم المصطفىٰ ﷺ وظل الخلفاء الراشدين والتابعين.

(١) انظر الوطن والمواطنة، صالح عاشور (مرجع سابق) (ص٦).
وانظر تعايش وطني بلا فتن طائفية ومذهبية، نظمي خليل أبوالعطا موسىٰ (مرجع سابق) (ص١٨٩).

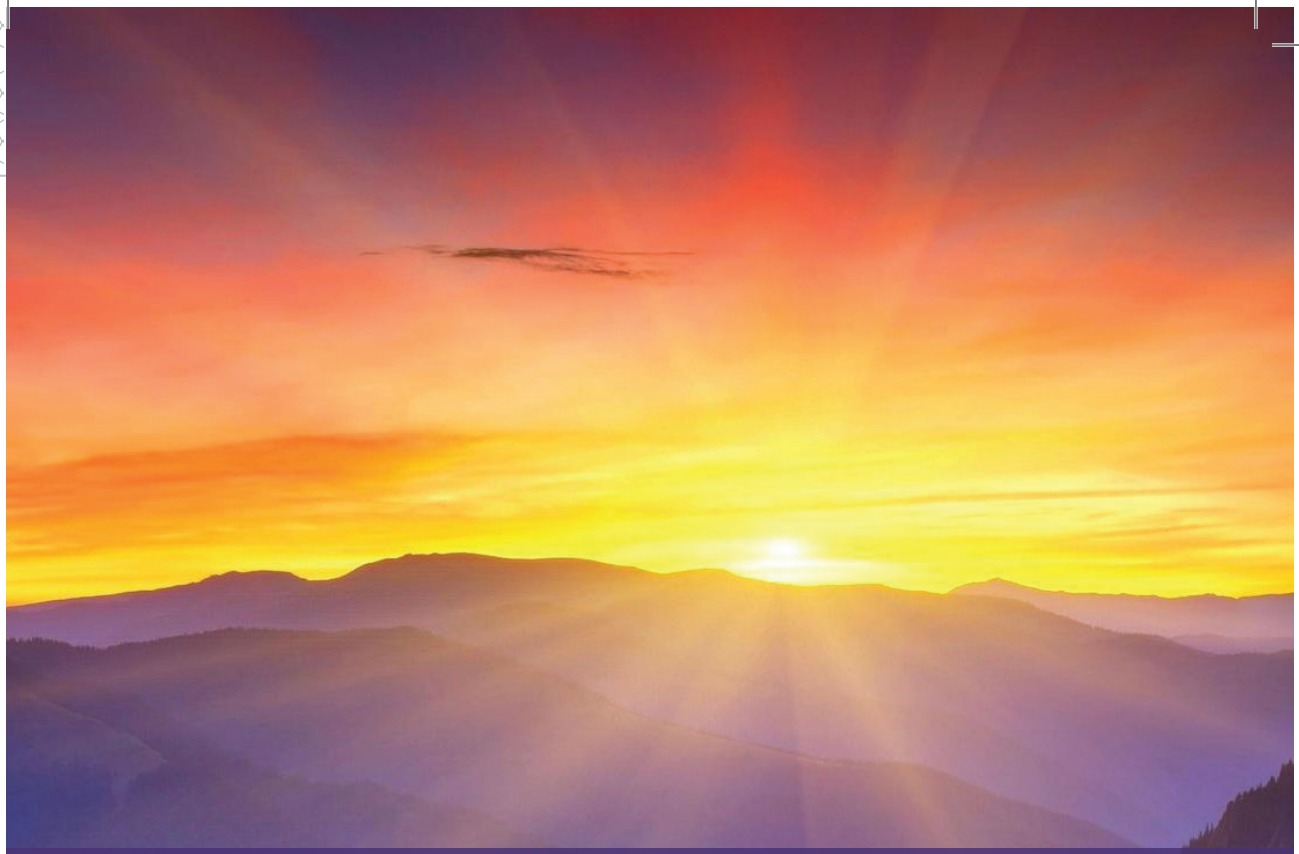

التأمل والنظر في قصة موسى والخضر عليهما السلام

«خمس وتسعون فائدة عقدية وفقهية وتربوية»

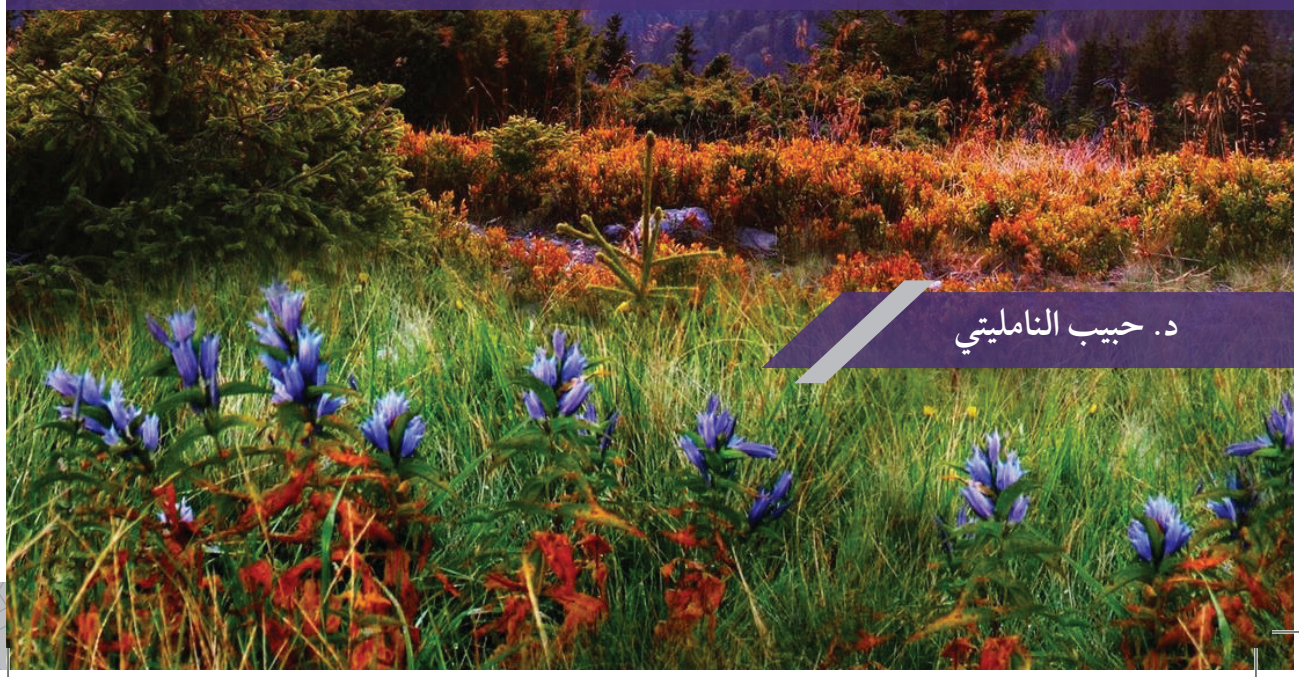

د. حبيب الناملیتي

جلستُ يومَ الجمعةِ بين يدي المصحفِ لأشرعَ في قراءةِ سورةِ الكهفِ، فقررتُ أنْ تكونَ القراءةُ هذه المرة مُختلفة، عزمت عندها الوقوف علىٰ معاني الآيات ، والنظر والتدبر في العظات، فلما بلغت القصة العظيمة في هذه السورة المباركة التي نُكرر قراءتها كلَّ أسبوع لتنير لنا من الضياء والنور بين الجمعتين، حينها وصلت إلىٰ قصةٍ هي من عجائب التاريخ، وفيها أحداث غريبة، قصة نبي الله موسىٰ مع الخضر عليهما السلام، وقفت عندها مليّاً.

أخذتُ قلمي لأخط علىٰ الورقة البيضاء فأدون الفوائد وأسجل الفرائد، فإذا بالفائدة تجر أختها، ولم تنته أحداث القصة إلا وأنا بين عشرات الدروس المستفادة؛ وحوت في طياتها من الدروس العقدية، والفقهية والتربوية والأصولية، والمنهجية التي يحتاج إليها عموم المسلمين الشيء الكثير، لا سيما الراغبون في التفقه في الدين، والدعاة لربِّ العالمين.

ولما أعدتُ النظر فيما كتبت وجدت فيها مادة مناسبة فراجعت ترتيبها، والتقديم لها بعدد من المقدمات، بدأت بوقفة مع أثر التأمل في كتاب الله، ثم الحديث عن روايات القصة، وأطرافها، وغريبها، وفضل قراءة سورة الكهف، وعرض أحداثها بما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ومناسبة القصة للقصص الواردة في هذه السورة، ثم شرعت في ذكر الفوائد المتنوعة، معنوناً لها غالباً، وذاكراً وجه استنباطها من الأحداث.

أولاً: التأملُ في كتابِ الله سبيلُ زيادة الإيمان وحسن العمل:

إنّ تأملَ كتابِ اللهِ، والوقوفَ مع آياتِهِ، واستنباطَ فوائدِهِ، واستخراجَ دررِهِ ومكنوناتِهِ، منْ أعظمِ الوسائل المعينة علىٰ رسوخ إيمان العبد وثبات المؤمن علىٰ دينه، وزيادة يقينه بربه، وإنّ ذلك كله مدعاةٌ لحسن العمل، وانشراح القلب بالتفاؤل والأمل، وتجاوز الملمات وتخطي العقبات، وكلما أعاد الإنسان التأمل والنظر في كتاب الله، وقلب الفكر فيه ظهرت له من الحكم والأسرار والمعاني ووقف علىٰ علوم شرعية نافعة وحقائق علمية رائقة، فالفهم فيه من أعظم العبادات وأرقىٰ أنواع الطاعات.

وقد قال ربنا في سياق بيان مقاصد إنزال القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩]، وعند هذه الآية يقول البيضاوي رحمه الله: «يَدَّبَّرُوا آياتِهِ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة.... وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ وليتعظ به ذووالعقول السليمة، أوليستحضروا ما هوكالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل»[(١)].

وقال ابن عطية رحمه الله: «وظاهر هذه الآية يعطي أنّ التدبر من أسباب إنزال القرآن»[(٢)]، وقال سبحانه في ذم المعرض عن التدبر المشغول عنه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

ومما يقف معها المسلم في كتاب الله القصة القرآنية التي هي من أحسن القصص، وأصدق الأنباء، وأعلىٰ المقاصد، وفيها أوضح الرسائل، وإنّ في قصص الأنبياء عليهم السلام علىٰ وجه الخصوص مزيداً من العظة والعبرة، فقد قال الله تعالىٰ مخاطباً نبيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالىٰ ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدىٰ الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم «اقتده»، يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه، فإنّه عمل لله فيه رضًا، ومنهاجٌ من سلكه اهتدىٰ»[(٣)].

ثانيًا: روايات القصة:

وردت القصة بغالب أحداثها المهمة في سورة الكهف من القرآن الكريم؛ وذلك بداية من الآية (٦٠) حتىٰ الآية (٨٢)، ولم تتكرر في موطن آخر، وكذلك رواها الإمام البخاري رحمه الله في مواضع عدة من صحيحه، والإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، وهي في كتب السنة المختلفة، فأما البخاري فإنه علىٰ قاعدته المستقرة في كتابه الذي لا يعيد فيه الحديث إلا لفائدة إسنادية أومتنية، قال الحافظ أبوالفضل

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي، ج٥، ص ٢٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ص٤، ج ٥٠٣.
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١١، ص ٥١٩.

محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله: «اعلم أنّ البخاري رحمه الله كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع ويستدل به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنىٰ يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه، وقلما يورد حديثاً في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد»[1].

وقد وردت في سبب رواية هذا الحدث في السنة النبوية قصتان، الأولىٰ: «قال فيها سعيد ابن جبير لابن عباس رضي الله عنهما: إنّ نوفاً البكالي: (وكان من قصاص البصرة) يزعم: أن موسىٰ صاحب الخضر ليس هوموسىٰ بني إسرائيل، إنما هوموسىٰ آخر، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كذب عدوالله، حدثنا أُبي ابن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فذكر القصة»[2].

وفي هذا الموقف الشدة أحياناً في الإنكار علىٰ من يخالف المستقر والمعروف من ظواهر الآيات، ويذهب إلىٰ معاني بعيدة، وتأويلات مُتكلفة لا يقوم عليها دليل، وأن أهل العلم قلوبهم تنفر إذا سمعت غير الحق، فيطلقون مثل هذا الكلام للزجر والتوبيخ، إذ غضب ابن عباس رضي الله عنهما لما نُقل له عن نوف البكالي أنه يدعي بأن موسىٰ الخضر ليس هوموسىٰ بني إسرائيل عليه السلام.

الثانية: أنّ ابن عباس رضي الله عنهما تمارىٰ هووالحر بن قيس بن حصن الفزاري في من هوصاحب موسىٰ عليه السلام، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هوخضر، فمر بهما أبي بن كعب رضي الله عنهم، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسىٰ عليه السلام، الذي سأل موسىٰ السبيل إلىٰ لقائه، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، فذكر الحديث... [3]، وفيه تباحث أهل العلم للوصول إلىٰ الحق، والرجوع إلىٰ أهل العلم عند وقوع النزاع، والقبول والإذعان للحق المقترن بالدليل.

(١) فتح الباري، ابن حجر، ج١، ص ١٥.
(٢) متفق عليه، البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسىٰ عليهما السلام، ج٤، ص ١٥٤، مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، ج٤، ص ١٨٤٧.
(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسىٰ ﷺ في البحر إلىٰ الخضر، ج١، ص ٢٦.

ثالثًا: أطراف القصة:

فأما نبي الله موسىٰ فهوموسىٰ بن عمران بعثه الله إلىٰ بني إسرائيل بعد أن نُجي من بطش فرعون وطغيانه بأعجوبة، فقد تربىٰ في بيته في صغره ثم عاد إليه رسولاً من عند الله، وأنزل الله عليه التوراة، وقد ذكره الله في مواضع متفرقة في كتابه، وسرد الله قصته تارة مختصرة، وتارة مطولة.

وإنّ نبي الله موسىٰ عليه السلام علىٰ وجه الخصوص ومن بين الأنبياء مثّلت مواقفه المتعددة نماذج حية للاقتداء والاستذكار والأسوة، وقد قال ﷺ في سياق التسلي بصبر موسىٰ عليه السلام: «رحم الله موسىٰ، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[(١)]، وقد قلبه ربه في مراتب متعددة، ومنازل مختلفة، ومرت عليه حوادث عظيمة، مما جعلت من سيرته محلًّا للعبرة والعظة لمن بعده من الأنبياء والصالحين والدعاة والمربين، إلىٰ يوم الدين.

وأما الخضر فقد «اختلف في الخضر في اسمه ونسبه ونبوته وحياته» كما ذكر ابن كثير[(٢)]، فقيل: بأنه اسمه: بليا بن ملكان بن فالغ ابن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وقد سمي الخضر لما رواه أبوهريرة عن النبي ﷺ قال: «إنما سُمي الخضر لأنّه جلس علىٰ فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه، خضراء»[(٣)]، وقد رجح عدد من أهل العلم نبوة الخضر[(٤)]، لكن ذلك محل خلاف، قال الناظم:

وَاخْتَلَفَتْ فِي خَضِرٍ أَهْلُ الْعُقُولْ...
قِيلَ نَبِيٌّ أَوْ وَلِيٌّ أَوْ رَسُولْ[(٥)].

قال السعدي رحمه الله: «إن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبيًّا، بل عبدًا صالحًا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منّة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولوكان نبيًّا، لذكر ذلك كما ذكره غيره، وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فإنه لا يدل

(١) متفق عليه، البخاري، كتاب الأدب، باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه، ج ٨، ص ١٨، مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم علىٰ الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، ج٢، ص ٧٣٩.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١، ص ٣٧٩.
(٣) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسىٰ عليهما السلام، ج٤، ص ١٥٦.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١، ص ٣٨٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١٦.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ج٣، ص ٣٢٢.

علىٰ أنه نبي وإنما يدل علىٰ الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾»[1].

وكذلك رجح عددٌ منهم وفاته، قال ابن كثير: « وأما الذين ذهبوا إلىٰ أنه قد مات ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبوالحسين بن المنادي والشيخ أبوالفرج بن الجوزي، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً سماه « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» فيُحتج لهم بأشياء كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٤]؛ فالخضر إنْ كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتىٰ يثبت، ولم يذكر ما فيه دليل علىٰ التخصيص عن معصوم يجب قبوله»[2]، ومنهم الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان بعد أن ساق الأدلة علىٰ ذلك[3].

ومما يضرب به الخضر في المثل قولهم للرجل إذا كان يديم السفر ويكثر المسير، فلانٌ خليفة الخضر[4]، كَمَا قَالَ أَبُوتَمام فِي نَفسه:

خَليفَة الْخضر من يأوِي إِلَىٰ وَطن...
فِي بَلْدَة فظهور العيس أوطاني، ثمَّ قَالَ:
بِالشَّام قومي وبغداد الْهوىٰ وَأَنا...
بالرقتين وبالفسطاط إخواني[5].

وقال مجاهد: سمي الخضر لأنه كان إذا صلىٰ اخضر ما حوله[6].

يوشع بن نون: وهوفتىٰ موسىٰ، وأضيف إليه ونسب، لأنه كان يخدمه ويتعلم منه، وأكثر من يكون في الخدمة الشباب، والعرب تسمي الخادم فتىٰ[7]، وفيه استغلال زمن الشباب للتعلم بملازمة العلماء أهل الفضل.

(١) تفسير السعدي، ص ٤٨٥.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ١، ص ٣٩٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ج٣، ص ٣٢٦ وما بعده، وينظر: روح المعاني، الألوسي، ج٨، ص ٣٠٢.
(٤) التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، ص ٢١.
(٥) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٥٣.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١٦.
(٧) روح المعاني، الألوسي، ج٨، ص ٢٩٤.

قال البخاري وغيره: يزعمون أن الملك اسمه: هُدد بن بُدد، والغلام المقتول اسمه يزعمون جيسور[١].

رابعًا: غريب القصة:

(لَا أَبْرَحُ): لا أزال سائراً[٢].

(مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ): موضع التقاء البحرين حتىٰ يصير كالبحر الواحد، ومما اختلف فيه تحديد مكان مجمع البحرين، وقد تركها القرآن مجملة، هل هي بحر الروم والقلزم، أم البحر الأحمر والميت، أم خليجا العقبة والسويس في البحر الأحمر.

(حُقُبًا): زماناً ودهراً غير محدد، وحده بعضهم بسنة، وبعضهم بسبعين أوثمانين عاماً[٣].

(سَرَبًا): عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتىٰ يكون صخرة[٤].

(مَا كُنَّا نَبْغِ) نلتمس ونطلب[٥].

(فارتدا علىٰ آثارهما قَصَصًا) أي يَقْتَصَّان الأَثَرَ الذي جاء فيه[٦].

(شَيْئًا إِمْرًا) أي عجبًا[٧].

(وَلا تُرْهِقْنِي) أي لا تُغْشِني (عُسْرًا)[٨].

(زكية): لم تعمل الذنب ولم ترتكب الحنث، وقيل مسلمة، وقيل صغيرة[٩].

(شَيْئًا نُكْرًا) أي منكرًا[١٠].

(يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) أي ينكسر ويسقط[١١]،

(١) البخاري، ج ٦، ص ٨٩، وينظر: تفسير ابن كثير، ج٥، ص ١٨٤.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٨، ص ٥٥.
(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب (وإذ قال موسىٰ لفتاه: لا أبرح حتىٰ أبلغ مجمع البحرين أوأمضي حقبا)، ج٦، ص ٨٨، ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٦٩، جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٨، ص ٥٦؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٥، ص ١٧٤.
(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١٨، ٦١.
(٦) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٦٩.
(٧) المرجع السابق.
(٨) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٧٠.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج ٥، ص ١٧٨-١٧٩.
(١٠) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٧٠.
(١١) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٧٠.

قارب من أن يقع أويسقط[١].

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) أَمامَهم[٢].

(وَأَقْرَبَ رُحْمًا) أي رحمةً وعطفاً[٣].

خامسًا: فضل سورة الكهف:

وردت في سورة الكهف فضائل عامة، وفضيلة في حفظ عشر آيات منها، وفي قراءتها يوم الجمعة فضائل خاصة:

١ - فعن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلىٰ جانبه حصان مربوط بشطنين [حبلين]، فتغشته سحابة، فجعلت تدنووتدنووجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتىٰ النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: تِلْكَ السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ عَلَىٰ الْقُرْآنِ[٤].

٢-عن أبي الدرداء -رضي الله عنه-، أن النبي ﷺ، قال: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال[٥].

٣- ومما يستحب قراءة السورة يوم الجمعة، ووردت في ذلك أحاديث يقوي بعضها بعضها، ومن ذلك ما رواه أبوسعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين[٦].

سادسًا: أحداث القصة:

موعظة موسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل:

لما استقرت ببني إسرائيل الأمر أوحىٰ الله تعالىٰ لموسىٰ أن ذكرهم بأيّام الله تعالىٰ، فقام نبي الله موسىٰ عليه السلام خطيباً في ملأ منهم، في خطبة بليغة أجاد فيها وأفاد، فاضت لها العيون ورقت القلوب، خطب في قومه فذكر ما آتاهم الله تعالىٰ من الخير والنعم، وذكرهم إذ أنجاهم الله تعالىٰ من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله سبحانه في

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٨، ص ٨١.
(٢) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٧٠.
(٣) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص ٢٧٠.
(٤) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، ج٦، ص ١٨٨.
(٥) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي، ج١، ص ٥٥٥.
(٦) رواه الحاكم، وعنه البيهقي السنن الصغرىٰ، ج١، ص ٢٣٣، وَحسنه ابْن حجر، وصححه الألباني في إرواء الغليل ج٣، ص ٩٣.

الأرض، وكان مما قال: كلم الله تعالىٰ نبيكم تكليماً واصطفاني لنفسه وأنزل علي محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه، فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعمها الله تعالىٰ عليهم إلا عرفهم إيّاها.

فقام رجل من بني إسرائيل أُعجِب به بعد هذا الخطاب فسأله من بين الحضور، كعادة بني إسرائيل في كثرة السؤال، هل علىٰ الأرض أعلم منك؟ قال: لا، وفي رواية: فسأل أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحىٰ الله له: بلىٰ هناك من هوأعلم منك، لي عبد بمجمع البحرين هوأعلم منك.

السفر طلباً للعلم:

اشتاقت همة موسىٰ العالية وتاقت نفسه الفاضلة لتحصيل ما لم يحصله من العلم، فسأل ربه: أي رب ومن لي به؟ فأوحىٰ الله له: تأخذ حوتاً، فتجعله في مكتل وهوالشيء الذي يحفظ فيه، وحيثما فقدت الحوت فهوثمّ، فإنك ستجد الخضر هناك.

وأخذ موسىٰ عليه السلام حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق هووفتاه يوشع بن نون، وقال له: ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ وهي سنة من السير، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون.

حتىٰ إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما ليستريحا، فرقد موسىٰ عليه السلام واضطرب الحوت فخرج من المكتل فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربًا يشق طريقه كالنفق، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار مثل الطاق، ويوشع يرىٰ ذلك لكنه غلبه النوم بعد ذلك، ونسي إخبار موسىٰ بذلك.

ولما استيقظا من نومهما انطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما وتجاوزا المكان، وقد نسي الفتىٰ إخبار موسىٰ بما حدث، حتىٰ إذا كان من الغد قال له موسىٰ لما شعر بالجوع: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾، ولم يجد موسىٰ النصب حتىٰ جاوز حيث أمره الله.

قال له فتاه معتذراً: ﴿ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ ﴾ التي استرحنا عندها ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ

ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فكان للحوت سربا ولهما عجبا، قال له موسىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، رجعا يقصان آثارهما ويتتبعان آثار أقدامهما.

اللقاء بالخضر:

حتىٰ انتهيا إلىٰ الصخرة في المرة الثانية، فإذا رجل مسجىٰ بثوب أي مُلتحف بكساء، فسلم موسىٰ فكشف الخضر عن وجهه ورد عليه، ثم قال: وأنىٰ بأرضك السلام؟ قال: أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بني إسرائيل قال: نعم، وقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟ قال الخضر: يا موسىٰ: إني علىٰ علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت علىٰ علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وأجابه الخضر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، لأنه سيرىٰ أموراً لا يقر عليها الخضر فيتضايق من أجل ذلك، فأجابه موسىٰ بالتصميم والتأكيد علىٰ رغبته في طلب العلم، وذلك بقوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

فوافق الخضر علىٰ هذه المصاحبة لكنه اشترط علىٰ موسىٰ حتىٰ تستمر الصحبة أنْ لا يبتدئه بسؤاله عما يخفىٰ عليه حقيقته ومقصده، حتىٰ يكون هوالذي يبين له، فرضي موسىٰ بهذا الشرط.

خرق السفينة:

فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر، فمرت بهما سفينة ما مرت بهما سفينة أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها، فكلموهم أن يحملوهم، فلما عرفوا الخضر حملوه بغير نول أي أجرة ومقابل، ولما كانا في السفينة جاء عصفور فوقع علىٰ طرف السفينة فنقر في البحر نقرة أونقرتين، فقال الخضر معلقاً علىٰ هذا الحدث: يا موسىٰ ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

ولما دخلت السفينة البحر إذا بالخضر يأخذ الفأس فينزع لوحاً من السفينة، ويحدث بها خرقاً، فعرض السفينة للهلاك كما يظهر، فقال له موسىٰ ناسياً للشرط ومستنكراً هذا الفعل: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلىٰ

سفينتهم ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أي أتيت أمراً فظيعاً مُنكراً.

فقال الخضر لموسىٰ: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال موسىٰ معتذراً: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾، فكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً كما أجاب عن نفسه، وقال له: لا تعاقبني بالنسيان فإن الناسي لا حرج عليه.

قتل النفس الزكية:

فلما خرجا من البحر إلىٰ البر فإذا بغلام جميل وسيم يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئاً، وروي أنه أضجعه ثم ذبحه بالسكين، فقال له موسىٰ غاضباً من هذا التصرف الذي لا يتطرق إليه الاحتمال في سببه أوالنتيجة المفضية إليه وأخذته الحمية: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾، كيف تقتل نفساً لم تذنب من قبل! فهنا لم ينس موسىٰ الشرط إلا أنّه لا يمكنه الصبر علىٰ هذا الفعل الشنيع أوالسكوت عليه، قال له الخضر: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، فقال موسىٰ: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ بلغت مبلغاً تعذر به في ترك دوام مصاحبتي.

إصلاح جدار أهل القرية:

فانطلقا واستمرا في سفرهما، حتىٰ إذا أتيا أهل قرية بعد جوع وشدة برد ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾، أي طلبا منهم طعام الضيف الواجب، فأبىٰ أهل القرية أن يضيفوهما، فهم بخلاء لا يستضيفون ضيفاً ولا يطعمون جائعاً، ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾، مائلاً، فأومأ الخضر بيده كأنه يمسح شيئاً إلىٰ فوق فأصلح الجدار، فقال موسىٰ مُبدياً تعجبه من هذا التصرف: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، عمدت إلىٰ حائطهم، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾، مقابل عملك، ولا سيما أن أهل القرية لم يضيفونا.

بيان حكمة وسر هذه التصرفات:

بعد كل ذلك قال الخضر: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾، لأنك لم تلتزم بالشرط الذي اتفقنا

عليه، ولكني ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، من خرق السفينة وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، في تصرفات غريبة، لا يعلم الهدف منها، إلا أن سرها سينكشف، وستظهر لك الحقيقة شيئاً فشيئاً.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فبسبب فعلي نجت السفينة وبقيت في يد أصحابها بعد أن رأىٰ الملك الضرر اليسير الذي أحدثته فيها.

وأما الغلام الذي لا تظهر عليه آثار الجرم ولا يوجد ما يستحق به القتل، فإنه يحمل في نفسه الشر فلوقدر وعاش لأرهق والديه وقادهم حبه إلىٰ الكفر، فأراد الله أن يخلفهما خيراً منه وأبرّ بهما من المقتول، ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، ولوكان الحكم بالظاهر لما جاز مثل ذلك.

وعن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً. ولوعاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً». أي خلق كافراً بمعنىٰ اختاره.

وأما الجدار الذي أقمته، ولم أطلب من أهل القرية الأجر، فإن تحته كنز ليتيمين، ولوترك الجدار حتىٰ يسقط لاستولىٰ عليه أهل القرية ولم يستطيعا أن يدفعا عن أنفسهما، فأردت أن أمهلهما حتىٰ يكبرا ويقفا علىٰ كنزهما، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، ومما قيل بأن الكنز إنما هوكنز علم، لكن المعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال، وكنز العلم لا يحرص عليه الناس غالباً.

وبعد كل ما سبق قال مبيناً للعلة العامة لتصرفاته، وأنها لم تكن من اجتهاداته الذاتية، وإنما بنيت علىٰ الوحي المنزل، ومستندة علىٰ الوحي المنزل: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال النبي ﷺ: يرحم الله موسىٰ لوكان

صبر لقص علينا من أمرهما [1].

سابعًا: مناسبة القصة لما قبلها وما بعدها:

إن هذه القصة وردت في سياق القصص الأربع المتكاملة في هذه السورة، والتي تخاطب فئات متعددة، فالقصة الأولىٰ كان التوجيه فيها للفتية، والثانية لأصحاب الأملاك والأموال والنعم، والثالثة لطلبة العلم، والرابعة للملوك وهي وإن كانت لتلك الشرائح إلا أن فيها من التوجيهات الشاملة والعامة لجميع الطبقات والفئات، ويجمعها كلها الدعوة إلىٰ الزهد والتواضع والنهي عن الافتخار، والإيمان بالله والتعلق بالدار الآخرة.

فوائد ووقفات مع القصة القرآنية:

إن المتأمل في هذه القصة وفي مجريات الأحداث فيها يقف مع مدرسة متكاملة البنيان من الدروس، وها هنا أورد الفائدة، ووجه استنباطها، وما يسندها، والإشارة إلىٰ بعض اختلاف القراء مما له تأثير في تنوع المعاني، وكذلك الوقف والابتداء.

١- القرآنُ لا يتعرضُ إلا لما كان فيه عظة وعبرة:

فإن القرآن لا ينص علىٰ كل حدث ولا يورد جميع التفاصيل في القصص، وخصوصاً إذا لم يُبن عليها علم نافع أوعمل صالح، ومن ذلك عدم النص علىٰ بعض الأسماء، والمناطق تحديداً، فالأولىٰ عدم الخوض فيها أوإطالة الخلاف بها.

قال الشنقيطي في أضواء البيان معلقاً علىٰ من بحث في اسم كلب أصحاب الكهف: «وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوىٰ، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائماً، كلون كلب أصحاب الكهف، واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتيل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسىٰ قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلىٰ غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل علىٰ

(١) رواها الحميدي، أحاديث أبي بن كعب، ج١، ص ٣٦٣.

التحقيق فيه»[1].

٢- حكمة الاختلاف في بعض الجزئيات والتفاصيل:

إنّ في اختلاف أهل العلم في بعض جزئيات الشريعة وفي بعض الأحداث أوالأخبار عبرة وعظة، كما اختلفوا في نبوة الخضر مثلاً، ففيه تفاوتهم وتفاضلهم في الوصول إلىٰ الحقيقة، وبذلهم للاجتهاد الذي يؤجرون عليه إنْ كان من ذلك البحث ثمرة، ومن ينظر في مسائل الشريعة يرىٰ أن هناك مسائل قد تركت لاختلاف العلماء ومباحثاتهم وعرض كل واحد أدلته ومناقشتها والترجيح فيما بينها.

٣- بناء الحكم علىٰ الظن الغالب:

إنّ موسىٰ اعتقد بأنه لا أعلم منه، وهذا لا يُعد كذبًا منه، وإن خالف الواقع؛ لأنه لم يخطر بباله بأن هناك من هوأعلم منه، وذلك بما فتح الله عليه وأجرىٰ علىٰ يديه من الخير والعلم، وأنه كليم الله ومؤيّد بالمعجزات.

كذلك الحكم علىٰ الناس بما يظهر من أحوالهم بحسب الخبرة السابقة وتجارب الحياة، كما قال الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وقد وقع مثل ذلك لموسىٰ عليه السلام مع نبينا محمد ﷺ فقال في رحلة الإسراء: (حتىٰ مررت علىٰ موسىٰ فقال: ما فرض الله لك علىٰ أمتك، قلت: فرض خمسين صلاة قال فارجع إلىٰ ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك)[2].

وقد اتفق الفقهاء علىٰ الأخذ بالظن الغالب في الأحكام ، وربما أطلق الفقهاء علىٰ الظن الغالب علماً[3]؛ إذ إن الوصول إلىٰ درجة اليقين قليل ومتعسر في صور كثيرة ومسائل عديدة.

٤- التعريف بنعم الله والتذكير بها من وظائف الأنبياء والمصلحين :

من مهام الأنبياء والمصلحين والدعاة لرب

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ج ٣، ص ٢٢٦.
(٢) متفق عليه.
(٣) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، السبكي، ج١، ص ٢٧٥.

العالمين تعريف العباد وتذكيرهم بنعم الله عليهم، تذكيراً لهم بها، حتىٰ يشكروا الله عليها، ويعرفوا حقها ويؤدوا حق الله فيها، كما كان موسىٰ عليه السلام يذكر بني إسرائيل بذلك.

٥- العلم ينقسم إلىٰ تلقيني وتعليمي:

ينقسم العلم إلىٰ أقسام كما تدل عليه الآيات: علم تلقيني لدني: كتعليم الله آدم الأسماء كلها، وهذا العلم يرزقه الله بعض العباد، وهوإن كان في أصله للأنبياء إلا أن الله قد يفتح علىٰ من يشاء من عباده، قال الألوسي: «في قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ أي علماً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهوعلم الغيوب وأسرار العلوم الخفية»[(١)].

وعلم تعليمي: في المدارس، وبالقلم، وهذا النوع من العلم يتحصل بالجد والاجتهاد، والسعي.

٦- التعليم بالحركة أبلغ وأوقع في النفس:

التعليم بالحركة والمشاهدة أبلغ وأرسخ للإنسان وأوقع في قلبه، وأبقىٰ له في ذاكرته، فإنه كان بالإمكان تعليم الله لموسىٰ علم الخضر دون أن يسافر ويبلغ هذه المشقة، أوتعليم الخضر لموسىٰ عليه السلام تعليماً شفويًّا؛ إلا أنه لم يتحصل له ذلك إلا بعد تلك الأحداث، والمشاق المتعاقبة.

٧- أصحاب الهمم العالية يسعون دائماً للاستزادة من العلوم والمعارف:

يرغب الناس عموماً، وأصحاب الهمم العالية مهما بلغوا من المعارف في الاستزادة من العلم وإن بعدت السبل وطال الطريق، فإن أشرف الخلق، وأزكاهم وأعلمه بالله نبينا محمد ﷺ قال الله له موجهاً: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]؛ ولذلك حرص موسىٰ عليه السلام رغم ما كان عليه من علم وفضل، علىٰ السفر للاستزادة من العلم، قال الحافظ الحكمي رحمه الله:

وما اتباع كليمِ الله للخَضر الـــ
معروف إلا لعلمٍ عنه مُنبهم[(٢)].

(١) روح المعاني، الألوسي، ج٨، ص ٣١١.
(٢) شرح المنظومة الميمية، عبدالرزاق البدر، ص ١٢.

وإنّ بداية اعتقاد الإنسان بأنه بلغ النهاية في العلم هوبداية للحكم علىٰ نفسه بالجهل، وبداية الحكم علىٰ النفس بالفناء، وهوأكبر اعتداء وجناية علىٰ النفس، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾، ومن أوائل الأدلة علىٰ عجز موسىٰ عليه السلام عن الإحاطة بجميع العلوم، واعترافه بنقص في علمه، بأنه لم يعلم بالخضر، ولم يعلم بمكانه، حتىٰ أوحىٰ الله له طريقة الوصول إليه، فضلاً عما ظهر من أحداث متتالية بعد ذلك، بل إن العقلاء يقولون:

كلما ازدت علماً زادني علمي بجهلي

٨- اتخاذ الرفيق الصالح:

إنّ اتخاذ الرفيق الصالح في طلب العلم والرحلة فيه، سواء للخدمة أوالأنس به، أوليتعلم منه، أويعلمه، مما تعين علىٰ تحقيق المقصود، ويشرع التواضع مع الطالب وملاطفته والجلوس معه، والصبر عليه، وقد أشار القرطبي إلىٰ ذلك وهوينبه إلىٰ فوئد هذه الرحلة، وفيها« الاستعانة علىٰ ذلك بالخادم والصاحب»[1]، وكان كل ذلك من موسىٰ عليه السلام مع يوشع بن نون في رحلته هذه.

٩- الشباب زمان تحصيل العلوم:

انتهاز وقت الشباب في التعلم والاستزادة من المعارف، فهذه الأوقات أوقات النشاط والقوة، ومن الأمثال السائرة: (العلم في الصغر كالنقش في الحجر)، فيوشع وما زال في صباه يرافق موسىٰ عليه السلام ويخدمه في سفره، ويتعلم منه.

١٠- من قواعد النجاح في الإدارة توزيع المهام وتكليف كل شخص بما يناسبه:

توزيع المهام وإعطاء كل فرد ما يليق به من أعمال مما يعين علىٰ تحقيق المقصود والوصول إلىٰ المطلوب، وسير العملية الإدارية بخطوات ثابتة دون تعارض في الصلاحيات، كما قال موسىٰ عليه السلام ليوشع: (لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، ما كلفت كبيرا).

١١- اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل:

فلما سافر موسىٰ في طلب الخضر تزود، وذلك في قوله (ءَاتِنَا غَدَآءَنَا)، ولم يقل إني

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١١.

متوكلٌ علىٰ الله فلا احتاج لبذل الأسباب، وكذلك طلبا من أهل القرية أن يضيفوهما عندما احتاجا لذلك، وقد جاء تقرير هذا في نصوص شرعية متكاثرة، منها قول الله تعالىٰ في آيات الحج موجهاً من يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون : ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

١٢- فضل الرحلة في طلب العلم:

«في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم...، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم. وذلك كان دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلىٰ الحظ الراجح: وحصلوا علىٰ السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام. وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام»[(١)]، كما قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية.

والرحلة في طلب العلم، قد تكون للتعلم وقد تكون للتعليم، فمن أمثلة التعلم خروج موسىٰ للخضر، وجابر بن عبدالله لطلب حديث النبي ﷺ، ومن أمثلة الخروج للتعليم، وقد يكون النبي ﷺ من الذين خرجوا لتعليم الناس، وكذلك بعث الصحابة إلىٰ الأمصار فقد أرسل مصعباً رضي الله عنه إلىٰ المدينة، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه إلىٰ اليمن.

١٣- أدب الطالب بين يدي شيخه:

من آداب طالب العلم التلطف والتأدب عندما يخاطب شيخه وأستاذه، وفي طلب العلم وتحصيله، فإن موسىٰ عليه السلام عرض أمر طلبه للخضر بأسلوب لطيف فيه معنىٰ المشاورة وبالغ في حسن التأدب؛ وذلك في قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

١٤- الأنبياء من البشر الذين شرفهم الله بالوحي:

فهم يأكلون وينامون، ويحتاجون إلىٰ الراحة كسائر البشر، وليس هذا مما يعاب فيهم ولا ينقص من قدرهم ومكانتهم، وقد شرفهم الله تعالىٰ بالوحي كما قال الله في آخر سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١١.

١٥- النصب والتعب لمن يتجاوز الحد :

إنّ الإنسان إذا كان علىٰ طريق الجادة ولم يتجاوز المطلوب منه فإنه لا يشعر بالتعب والإرهاق، كما لو تجاوز الحد، وفاق المطلوب منه، فإن العلماء قالوا: إن موسىٰ عليه السلام، لم يقل (من سفرنا هذا نصبا)، إلا بعد أن تجاوز المكان.

١٦-الرجوع إلىٰ الحق خير من التمادي في الباطل:

فإن موسىٰ عليه السلام لما أدرك بأنه تجاوز مكان لقاء الخضر، رجع إليه ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

١٧-الميزة لا تقتضي الأفضلية:

فإنّ تميز الخضر علىٰ موسىٰ في بعض العلم لا يعني بأنه أفضل منه في كل شيء، فإن عند موسىٰ من العلم والعمل ما ليس عند الخضر، فقال الخضر: (يا موسىٰ إني علىٰ علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم علمك الله لا أعلمه)، ومن ذلك عدم علم الخضر ببعض الأمور، فلم يعلم بأن الذي سلم عليه هوموسىٰ عليه السلام، وكذلك الحال بين الناس اليوم وتفاضلهم في بعض المعارف والعلوم، قال الحافظ الحكمي، في بيان فضل موسىٰ علىٰ الخضر:

مع فضلهِ برسالة الإله لهُ
وموعدٍ وسماعٍ منهُ للكلمِ[١].

قال القرطبي : «ولا يظن أن في تعلم موسىٰ من الخضر ما يدل علىٰ أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان وليًا فموسىٰ أفضل منه، لأنه نبي والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبيًّا فموسىٰ فضله بالرسالة»[٢]، وقال السعدي: « وإن كان موسىٰ عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله علىٰ سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك»[٣].

١٨- البدأ بالسلام عند التحية:

فالسلام تحية الأنبياء والصالحين، وأهل الجنة الكرام، ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾

(١) شرح المنظومة الميمية، عبدالرزاق البدر، ص ١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١٧.
(٣) تفسير السعدي، ص٤٨١.

[سورة الأحزاب:٤٤]، وقد يفهم منه أيضًا التشريك في النية، فإن نوىٰ بالسلام التحية، ونوىٰ به تنبيهًا لما كان ، ليبدأ في الحديث معه، والتعرف عليه، والتعلم منه، وهذا مبحث محله في القواعد الفقهية.

١٩- بداية السؤال من الطالب، سبيل للمعارف:

وهكذا الدروس تبدأ إما بسؤال الطالب، وإمَّا باقتراح الأستاذ، ولا عيب في الطريقتين، والسؤال من أعظم وسائل التحصيل، وقد قيل لابن عباس بما أدركت العلم، فقال: بلسان سؤول وقلب عقول.

٢٠- الاستغراب مما يستغرب منه، (وأنىٰ بأرضك السلام).

كذلك تعجب موسىٰ من رجوع الحوت إلىٰ البحر، قال الأشموني: « (واتخذ سبيله في البحر) وقف كاف، إن جعل عجبًا من كلام موسىٰ، ويقوي ذلك خبر (كان للحوت سربًا ولموسىٰ ولفتاه عجبًا)، فكأنما قال: أعجب لسيره في البحر»[(١)].

٢١- التعريف بالأشخاص يكتفي به إذا حصل المقصود بالاسم والقبيلة، فقد قال موسىٰ معرفًا عن نفسه: موسىٰ بني إسرائيل.

٢٢- في كل رحلة يبدأ عند بلوغها بالمقصود منها، فإن الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود، كما تنص علىٰ ذلك القاعدة الفقهية، وقد قال موسىٰ للخضر: (أتيتك لتعلمني).

٢٣- من النصح لكل طالب أن يبين له المخاطر والعقبات التي قد تعتريه أثناء طلبه للعلم، حتىٰ إذا وقعت عليه أن يقبلها بصدر رحب.

٢٤- علىٰ الشيخ بيان منهجه لطلابه، والاشتراط عليهم عند المصلحة:

علىٰ الشيخ إن يبين منهاجه وطريقته في تعليم الدرس، أوتصنيف الكتاب، حتىٰ يتلزم بها الطلاب، وتفهم طريقة الكتاب، وذلك في أول مجلس يلتقون فيه، وكذلك في بداية المصنفات.

قال السعدي: « إن المعلم إذا رأىٰ المصلحة في ايزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال

(١) منار الهدىٰ في بيان الوقف والابتدا، الأشموني، ص ٢٣٣.

عن بعض الأشياء، حتىٰ يكون المعلم هوالذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أونهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أولا يدركها ذهنه، أويسأل سؤالًا لا يتعلق في موضع البحث»[1].

٢٥- التواضع وعدم التكلف، فرغم ما للخضر من منزلة، إلا أنه كان مسجىٰ بثوب.

٢٦- سؤال الإنسان عن علم ما يجهل لا يتنافىٰ مع كمال الإنسان، بل لن يزيده إلا رفعة، ولا يحرم من العلم إلا مستحي أومستكبر.

٢٧- إنّ وقوع الإنسان في خطأ لا يعني التقليل منه، أوانتزاع الصفات الحسنة منه، أوهدم ما قدم وبذل من خير، ونشر من علم.

٢٨- تعليق الأمور علىٰ مشيئة الله تعالىٰ.

٢٩- نفي الإنسان ما يُظن به مما يتنافىٰ مع كمال أخلاقه، (ستجدني إن شاء الله صابراً)

٣٠- العبارات العامة من كلام الأنبياء والصالحين تقيد وفق الأصول العامة، والنصوص الأخرىٰ، فقول موسىٰ (ولا أعصي لك أمرًا)، أي مما لا معصية فيه للخالق، (فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

٣١- سؤال الناس العون علىٰ قضاء بعض أمور الدنيا مما يقدرون عليه لا يتنافىٰ مع الكمال، فكلموهم أن يحملوهم، وسألوا الطعام، قال القرطبي: «في هذه الآية دليل علىٰ سؤال القوت، وأنَ منْ جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه»[2].

٣٢- من احترام وتوقير أهل العلم والفضل تقديم بعض الخدمات لهم دون أخذ مقابل منهم.

٣٣- ليس علىٰ أهل العلم من عتب إن قبلوا ذلك، بشرط أن تكون نيتهم تحصيل هذا بالعلم لله، لا المنافع الدنيوية الحسية والمعنوية.

٣٤- التأمل في الحوادث والوقائع الكونية، والتصرفات التي تقع في محيط الإنسان من صفات أهل العلم والمؤمنين، فإن الخضر لم يدع مشهد نقر الطائر من الماء يمر دون تأمل.

(١) تفسير السعدي، ص ٤٨٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ٢٤.

٣٥- التعليق علىٰ تلك الحوادث بما يتناسب معها، ويستفيد منها.

٣٦- سعة علم الله وقلة علم الإنسان، بل وعدم المقارنة بينهما:

فتشبيه نقرة العصفور بعلم الإنسان تشبيه عظيم، فإن ما ينقره العصفور من البحر هو أيضاً من علم الله، فما علم الإنسان إلا ما علمه الله له، وعلمه من علم الله، فالعصفور إنما ينقر من البحر.

٣٧- اتفاق بين أسماء صفات الله والمخلوق لا تقتضي المشابهة:

فعلم الله لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان، ويستوي فيه السر والعيان، فهو سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، دون علم المخلوق، وكذلك فإن علم الإنسان كله، الذي فوق الأرض مما كان قبلنا وممن سيأتي بعدنا، مثل هذه النقرة، في حين أن العصافير التي في الدنيا كلها التي كانت والتي ستكون لم تنقص شيئاً من هذا البحر.

٣٨- من مظاهر نقص علم الإنسان وقوع الشك والتردد فيه، كما قال: (فنقر نقرة أو نقرتين).

٣٩- قيام بعض أهل العلم ببعض الأعمال بأنفسهم، ولا يكتفون دائماً بتقديم التوجيهات والإرشادات، فإن الخضر عليه السلام قام بنزع خشبة السفينة بنفسه، وقتل الغلام وتسوية الجدار، ولم يأمر بها أحداً، وخصوصاً إذا كانت مثل هذه الأعمال صعبة التفسير، ولو أمر بها للقي نوعاً من المعارضة.

٤٠- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

الأصل مقابلة الإحسان بالإحسان، والإنكار علىٰ من يقابل الإحسان بالإساءة، (قوم حملونا بغير نول).

٤١- تذكير المُنكر للمعروف من الغير بالإحسان الذي وقع عليهم منه، هذا لا يدخل ضمن المن المذموم، لا سيما إذا كان هذا التذكير من غير المحسن كي لا يشعر معها بالمن.

٤٢- تذكير الإنسان بما أخذ علىٰ نفسه من عهد، وما التزم به من مواثيق، وبما تقدم من أحاديث ووعود حتىٰ يلتزم بها.

٤٣- من صفات الإنسان النسيان، وقد سمي بذلك، ومن رحمة الله أنه لا يؤاخذ عليه، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾.

قال السعدي رحمه الله:

والخطأ والإكراه والنسيان أسقطه معبودنا الرحمن.

لكن مع الإتلاف يثبت البدل وينتفي التأثيم عنه والزلل.

٤٤ - من البشر قد يؤاخذ بعضهم بعضاً بسبب النسيان، ويبنون علىٰ ذلك بعض الأحكام والإجراءات وأنه لا حرج عليهم في ذلك، كما تصرف الخضر مع موسىٰ عليه السلام.

٤٥ - اللعب من الأطفال لا يستنكر :

إنّ لعب الغلمان والأطفال أمر غير مستنكر، بل هذه طبيعة فيهم أودعها الله، وجعلها فطرة لهم لم ينكرها حتىٰ الأنبياء عليهم السلام، فالخضر قتل الطفل الذي كان يلعب مع زملائه، ولم يعتبر موسىٰ عليه السلام ذلك جرماً يستحق العقوبة، وكذلك لما قال إخوة يوسف عليهم السلام لأبيهم يعقوب عليه السلام ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف: ١٢]، لم ينكر عليهم ذلك.

٤٦ - وقوع القتل بسببه علىٰ يد الأنبياء والصالحين، لا يتنافىٰ مع الرحمة، فإن لكل مقام مقالا، كما قيل:

ووضع الندىٰ في موضع السيف بالعُلا

مضر كوضع السيف في موضع الندىٰ.

٤٧ - إنكار المنكر:

ليس في شرط الخضر علىٰ موسىٰ ما يفيد عدم الإنكار علىٰ أهل الصلاح في التصرفات التي يخالف ظاهرها الشرع، لأن هذا السكوت كان لحكمة ومبني علىٰ شرط، مع ذلك لم يسكت موسىٰ في المرات الثلاث لغلبة الأصل عنده مع هذا الشرط العارض، فالأنبياء ومن يسلك طريقتهم لا يسكتون علىٰ المنكر ويبينون المعروف.

٤٨ - حفظ النفوس مما استقرت في الرسالات:

مما استقرت عليه الرسالات حفظ النفس، عدم جواز قتل النفس إلا بسبب مشروع، لذلك

استنكر موسىٰ علىٰ الخضر بقوله له: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، «﴿ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ [سورة الكهف: ٧٤] قَالَ: لَمْ تَبْلُغِ الْخَطَايَا»[١].

وقد قرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو(زاكية) بالألف وقرأ الباقون (زكية) بغير ألف، قال أبوعمرو: (الزاكية) التي لم تذنب قط والزكية التي أذنبت ثم غفر لها وإنما قتل الخضر صغيراً لم يبلغ الحنث، وقال آخرون: زاكية أي طاهرة، وقال قتادة: نامية وزكية تقية دينة، وقال الحسن: بريئة، وقال آخرون منهم الكسائي: هما لغتان مثل عالم وعليم[٢].

٤٩ – إن القاتل عمداً يقتل قصاصاً، إن طالب بذلك الأولياء، فإن موسىٰ أنكر القتل؛ لأنه لم يكن مقابل قتل نفس، فدل بمفهوم المخالفة جواز قتل النفس إذا كان قصاصاً، كما قال ﷺ: (والنفس بالنفس)[٣].

٥٠ – نسبة الإرادة إلىٰ الجدار يفهم منها ميلانها وقربها إلىٰ السقوط، وإن الصفات يختلف معناها باختلاف متعلقها.

٥١ – جواز طلب العوض علىٰ بعض الأعمال وخصوصاً عند من لا يقوم بواجبه.

٥٢ – النظر إلىٰ مآلات الأعمال:

وذلك من قول موسىٰ (لتغرق أهلها)، فإن هذه النتيجة شبه محتمة لهذا الفعل، وقد قرأ حمزة والكسائي (لِيَغْرَقَ أهلُها)، كأنه قال: أخرقت السفينة لترسوَ في البحر فيغرق فيه أهلها، وقرأ الباقون: (لتُغرِق أهلَها) بالتاء ونصب الأهل، فنسب الفعل إليه[٤].

٥٣ – إن الأنبياء والصالحين ينزعجون من فساد الأخلاق والقيم أكثر من انزعاجهم مما يمس دنيا الإنسان، مع عدم إهمالهم لها، ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها.

(١) مسند ابن الجعد، ص ٣١٩.
(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة، ص ٤٢٤.
(٣) متفق عليه، البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾الآية [المائدة: ٤٥]، ج٥، ص ٩، رواه الإمام مسلم، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، ج٣، ص ١٣٠٢.
(٤) حجة القراءات، ابن زنجلة، ص ٤٢٣.

٥٤ – دفع الضرر الأشد بارتكاب الضرر الأخف:

ارتكاب أهون المفسدتين لدفع أعلاهما، فقد أحدث الخضر في السفينة عيباً حتىٰ إذا رآها الملك الغاصب تركها ولم يأخذها وبذلك حفظها لأهلها، فإن ذهاب كل السفينة أعظم بلا شك من حصول عطل يمكن إصلاحه، فقد كان الملك يأخذ كل سفينة سليمة غصباً.

٥٥ – إعطاء فرص متعددة للمخطئ لعله يتغير، وينصلح حاله، وعدم الحكم عليه من أول خطأ، أو لإقامة الحجة عليه، كما قال: ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾.

٥٦ – لا يذم الإنسان إذا لم يحسن إلىٰ من أساء إليه.

٥٧ – تنفيذ الإنسان لوعده الذي التزمه، فإن ذلك من صفات المؤمن.

٥٨ – من الواجب علىٰ المسلم بيان ما يلتبس من تصرفاته حتىٰ لا يظن به السوء حالاً.

٥٩ – ما وقع من الخضر في تأخير البيان عن وقت الحاجة كان بناءً علىٰ اتفاق سابق بينهما، ولحكمة عرفناها في خواتيم القصة.

٦٠ – في حال الاضطرار إلىٰ ارتكاب المفسدة فإنه يصار إلىٰ أدنىٰ المراتب التي بها يندفع المنكر والشر الأكبر.

٦١ – إن المحبة سبيل لفلاح الإنسان وفساده، فإن المحب لمن يحب مطيع، فحبه لله يقوده إلىٰ الخير، وحبه للكافرين يقوده إلىٰ الشر والخوف علىٰ الأبوين كان من جهة الحب.

٦٢ – إن ذلك الارتكاب لبعض المفاسد لا بد أن يكون لمصلحة متيقنة، ولا يتعارض مع الشرع.

٦٣ – انتفاع الأبناء من صلاح الآباء:

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [سورة الكهف: ٨٢] قَالَ: «حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمَا صَلَاحًا»[1]، وبمثله قال محمد بن المنكدر: «إِنَّ اللهَ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ، وَوَلَدَ وَلَدِهِ،

(١) رواها الحميدي، أحاديث أبي بن كعب، ج١، ص ٣٦٦، وأخرجه ابن المبارك في الزهد، ج١، ص ١١٢.

وَيَحْفَظُهُ فِي دُوَيْرَتِهِ، وَالدُّوَيْرَاتِ الَّتِي حَوْلَهُ مَا دَامَ فِيهِمْ»[1].

ومن الكلام المأثور عن عيسىٰ عليه السلام: طُوبَىٰ لِوَلَدِ الْمُؤْمِنِ، طُوبَىٰ لَهُمْ يَحْفَظُونَ مِنْ بَعْدِهِ[2]، وقال الحسن: «مَا أَسْمَعُهُ ذَكَرَ فِي وَلَدِهِمَا خَيْرًا حَفِظَهُمَا اللهُ بِحِفْظِ أَبِيهِمَا»[3].

٦٤ - يدخر الله لعباده من الخير ما لا يعلمه إلا هو، ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [سورة الطلاق: ١].

٦٥ - الصبر يوصل إلىٰ الخير، إن النصر مع الصبر، والرضا بقضاء الله وقدره والتسليم له، فإنه لا يكون إلا لخير.

٦٦ - إذا حلف ثم حنث ناسيًا، فلا شيء عليه، ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾، وقوله ذلك يراد به وقوع المطلوب منه غالبًا.

٦٧ - التصميم للوصول للمطلوب وبلوغ الهدف، مهما بعد الطريق، وطال، ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾.

٦٨ - عدم تأنيب المخطئ أحيانًا، إذا كان يتحمل أعباء أخرىٰ ويشق عليه الأمر، كما أن موسىٰ لم يؤنب يوشع بن نون.

٦٩ - ليس كل من يملك فهو غني، فإن أصحاب السفينة كانوا مساكين رغم امتلاكهم لها، وفيه دليل لمن قال بأن المسكين أحسن حالاً من الفقير.

٧٠ - هذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانًا به عليه، لم يبين هنا هل هي رحمة النبوة أوالولاية، وعليه اختلف في الخضر، كما تقدم ذكر ذلك، ومن الأدلة علىٰ أن الرحمة طريقها الوحي، قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾، إنما فعله عن أمر الله، وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي.

٧١ - ما يدعيه كثير من الجهلة من أن لهم ولأشياخهم طريقًا باطنًا توافق الحق، عند الله، ولوكانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر، لظاهر العلم الذي عند موسىٰ، زندقة وذريعة إلىٰ الانحلال.

(١) وأخرجه ابن المبارك في الزهد، ج١، ص ١١١-١١٢.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة، ج٧، ص ٦٦.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة، ج٧، ص ١٩٨.

وهـذا يناقـض مـا نقـل عـن من شـهد لهم مـن الصوفية بالخيـر والصلاح، كأبي القاسـم الجنيـد، فقـد نقل عنـه ابن كثير وابـن خلكان: (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[1].

٧٢ – إن الإنسان مهما تعلم فإن هناك أمورًا تغيـب عليه، فإن سـئل عما لا يعلـم فليقل: الله أعلم، فإن من ترك الله أعلم أوتي مقاتله.

٧٣ – اختلفوا في أيهما أشد إنكارًا (نكرًا) أم (إمرا)؛ فقيل: (إمرًا)؛ لأنها مقابل خرق السفينة، وقيـل: (نكـرًا)؛ لأنهـا في مقابـل قتـل النفس، «فقالـت فرقـة: هذا قتـل بين، وهنـاك مترقب، فـ(نكـرًا) أبلغ. وقالـت فرقة: هـذا قتل واحد وذاك قتـل جماعة فـ(إمرًا) أبلغ. قال ابن عطية: وعنـدي أنهمـا لمعنيـين وقوله:فـ(إمـرًا) أفظع وأهـول من حيـث هومتوقع عظيـم، وفـ(نكرًا) بين في الفساد؛ لأن مكروهه قد وقع»[2].

وجوب التسـليم بكل ما جاء به الشرع، وإن كان في بعضه لا تظهر آثار الحكمة.

العلم النافع هوالمرشـد إلـىٰ الخير: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾.

مـن أعظـم الأسـباب المعينة علـىٰ الصبر، إحاطة الإنسان علمـًا بالأمر الذي سيصبر عليه، وإلا فإنه لا يدري غايته، ولا نتيجته ولا ثمرته.

التـأني والتثبـت وعـدم المبـادرة في إطلاق الأحكام، والاستفهام من المتحدث حتىٰ يعلم المراد من كلامه، أوالمقصود من أفعاله.

إن القتل من أعظم الذنوب، وأكبر الجرائم.

٧٩ – اسـتعمال الأدب في الخطـاب مـع الله تعالىٰ:

«استعمال الأدب مع الله تعالىٰ في الألفاظ، فـإن الخضـر أضـاف عيب السـفينة إلىٰ نفسـه بقولـه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وأما الخير، فأضافه إلـىٰ الله تعالـىٰ لقولـه: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾»[3]، ونظائره في القرآن كثيرة.

(١) أضواء البيان، ج٣، ص ٣٢٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ٢٢.
(٣) تفسير السعدي، ص ٤٨٦.

٨٠ – جواز إخبار الإنسان بما يجده من ألم، ومرض، دون تسخط أواعتراض علىٰ قضاء الله وحكمه، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾أي تعبًا، قال القرطبي : «وفي هذا دليل علىٰ جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط»[١].

٨١ – السفر قطعة من عذاب:

(فَأَصَابَهُمْ مَا يُصِيبُ الْمُسَافِرَ مِنَ النَّصَبِ، وَالْكَلَالِ)، مهما ازدهرت وسائل النقل وأسباب الراحة إلا أنّ المشقة غالبًا مقترنة بها.

٨٢ – الفراق الجسدي لا يعني الفراق العلمي أوالمنهجي بين الناس، هذا فراق بيني وبينك، إلا أنهما علىٰ قيدة واحدة.

٨٣ – الحفاظ علىٰ مال اليتيم من الضياع، حتىٰ يستفيد منه وقت حاجته له.

٨٤ – إن الله يفتح علىٰ عباده من العلوم والمعارف ويوفقهم إليها، ويسددهم فيها.

٨٥ – إن علىٰ الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتىٰ يبين له الأسباب التي حملته علىٰ ذلك، حتىٰ لا يحمل في قلبه علىٰ أخيه.

٨٦ – التثليث في التسامح، والتجاوز، (كانت الأولىٰ نسيانًا، والوسطىٰ شرطًا، والثالثة عمدًا)[٢].

٨٧ – يتضمَّن الشكوىٰ من خلق بعض الإخوان، وهو: «ولقد صبرت علىٰ أخلاقه العائثة، وعاملته بالخليقة الرائثة، وعالجته بضروب المعالجات، ولما أعيا علي إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسىٰ في المرة الثالثة»، وهذا مأخوذ من قصة موسىٰ -عليه السلام- وقصة الخضر[٣].

٨٨ – البدء في الدعاء بالنفس: عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَعَا لِأَحَدٍ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَذَكَرَ ذَاتَ يَوْمٍ مُوسَىٰ، فَقَالَ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا، وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْ كَانَ صَبَرَ لَقَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِ، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١٤.
(٢) البخاري، كتاب الشروط، باب شروط مع الناس بالقول، ج٣، ص ١٩٢.
(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج١، ص ١٤٦.

بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ [سورة الكهف: ٧٦][1].

٨٩ - نسبة الفعل إلىٰ من لم يرتكبه للمصاحبة:

وهذا معهود من كلام العرب، لأن الله عزّ ذكره خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام[2]، من الأساليب العربية نسبة بعض الأفعال لغير مرتكبيها للمصاحبة، قال القرطبي: وقوله: «نسيا حوتهما» وإنما كان النسيان من الفتىٰ وحده فقيل: المعنىٰ، نسي أن يعلم موسىٰ بما رأىٰ من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [سورة الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح، وقوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾[سورة الأنعام: ١٣٠] وإنما الرسل من الإنس لا من الجن»[3].

٩٠ - الحذف للعلم به:

من الأساليب البلاغية حذف المعلوم من سياق الكلام، وذلك كما في كل سفينة ويقصد بها صحيحة، قال الطبري: «(يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) فيقول القائل: فما أغنىٰ خَرْق هذا العالم السفينة التىٰ ركبها عن أهلها، إذ كان من أجل خرقها يأخذ السفن كلها، مَعِيبها وغير معيبها، وما كان وجه اعتلاله في خرقها بأنه خرقها، لأن وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا؟ قيل: إن معنىٰ ذلك، أنه يأخذ كل سفينة صحيحة غصبًا، ويدع منها كلّ معيبة، لا أنه كان يأخذ صحاحها وغير صحاحها.

فإن قال: وما الدليل علىٰ أن ذلك كذلك؟ قيل: قوله: (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) فأبان بذلك أنه إنما عابها، لأن المعيبة منها لا يعرض لها، فاكتفىٰ بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصبًا، علىٰ أن ذلك في بعض القراءات كذلك»[4].

٩١ - فقه المآلات:

(١) الإمام أحمد، ج ٣٥، ص ٦٤، مصنف ابن أبي شيبة، ج٦، ص ٢٨.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١٨، ص ٥٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١١، ص ١٢.
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١٨، ص ٨٤.

الأحداث بتفاصيلها تقرر النظر في المآل وبناء الحكم عليه في الحال لمن كان عنده به علم، لأن جميع تلك التصرفات لا يظهر وجه الحكمة فيها في الحال والأمر الحادث، وأسبابها آجلة غير عاجلة، وإن كان الخضر وقف عليها بالوحي، فقد يقف علىٰ بعضها العالم بقرائن الأحوال وغلبة الظن في بعض الصور.

٩٢ - تغيير في سياق الكلام بالتقديم والتأخير لمعنىٰ.

من بلاغة العرب تغييرهم في صياغة الكلام وتقديم بعض العبارات علىٰ بعض لمعنىٰ، ومن ذلك في هذه الآيات، « لأن معنىٰ الكلام: وما أنساني أن أذكر الحوت إلا الشيطان سبق الحوت إلىٰ الفعل»[(١)]، ولعل سبب هذا التغيير في السياق ذكر التقديم بذكر المؤثر في النسيان حتىٰ يكون أبلغ في الاعتذار.

٩٣ - المعونة علىٰ قدر المؤونة: إن المعونة تنزل علىٰ العبد علىٰ حسب قيامه بالمأمور به:

«وإن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلىٰ السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشتك منه التعب، مع طوله، لأنه هو السفر علىٰ الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلىٰ الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتىٰ إذا جاء وقت الغداء قال موسىٰ لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فحينئذ تذكر أنه نسيه في الموضع الذي إليه منتهىٰ قصده»[(٢)].

٩٤ - الرضىٰ علىٰ الأقدار المؤلمة، والصبر عليها فإن عواقبها حميدة:

ففي جريان هذه الأحداث وما جعله الله من وقائع عجيبة قد تستنكر في الحال، إلا أنها قد تنطوي علىٰ خيرات كثيرة، ومصالح عظيمة.

٩٥ - في قصص القرآن تسلية للنبي ﷺ ومن بعده من الدعاة إلىٰ الله:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١٨، ص ٦٠.
(٢) تفسير السعدي، ص ٤٨٢.

قال الطبري: « وهذه القصص التي أخبر الله عزّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ بها عن موسىٰ وصاحبه، تأديب منه له، وتقدّم إليه بترك الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذّبوه واستهزؤوا به وبكتابه، وإعلام منه له أن أفعاله بهم وإن جرت فيما ترىٰ الأعين بما قد يجري مثله أحياناً لأوليائه، فإن تأويله صائر بهم إلىٰ أحوال أعدائه فيها، كما كانت أفعال صاحب موسىٰ واقعة بخلاف الصحة في الظاهر عند موسىٰ، إذ لم يكن عالماً بعواقبها، وهي ماضية علىٰ الصحة في الحقيقة وآئلة إلىٰ الصواب في العاقبة، ينبئ عن صحة ذلك قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾. ثم عقب ذلك بقصة موسىٰ وصاحبه، يُعَلِّم نبيه أن تركه جلّ جلاله تعجيل العذاب لهؤلاء المشركين، بغير نظر منه لهم، وإن كان ذلك فيما يحسب من لا علم له بما الله مدبر فيهم نظراً منه لهم، لأن تأويل ذلك صائر إلىٰ هلاكهم وبوارهم بالسيف في الدنيا واستحقاقهم من الله في الآخرة الخزي الدائم»[1].

فهذا تطواف في رحاب هذه البساتين الوارفة نستقي من معينها، ونجني من ثمارها، اجتهدت فيها لأقف علىٰ فوائدها وعبرها، ولا أزعم أني أتيت عليها كلها، فالآيات تخفي خلفها كثيراً من العظات.

هذا وقد ذكر بعض أهل العلم من المفسرين وشراح الحديث عدداً من الفوائد، المتفرقة حول هذه القصة بأحداثها،[2] ففي آيات القرآن وضوح المنهج، وبيان السبيل الذي يسلكه أهل الله للوصول إليه.

نسأل الله التوفيق والسداد والحكمة والرشاد، وأن يكون هذا العمل في سياق الامتثال الرباني للتدبر في القرآن، والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ج١٨، ص ٩١.

(٢) ينظر علىٰ سبيل المثال: روح المعاني، الألوسي، ج٨، ص ٣٤٤، أيسر التفاسير، أبوبكر الجزائري، ج٣، ص ٢٧٣، و٢٧٥، و٢٧٧ و٢٧٩، التفسير الوسيط، الطنطاوي، ج٨، ص ٥٦٣- ٥٦٧.

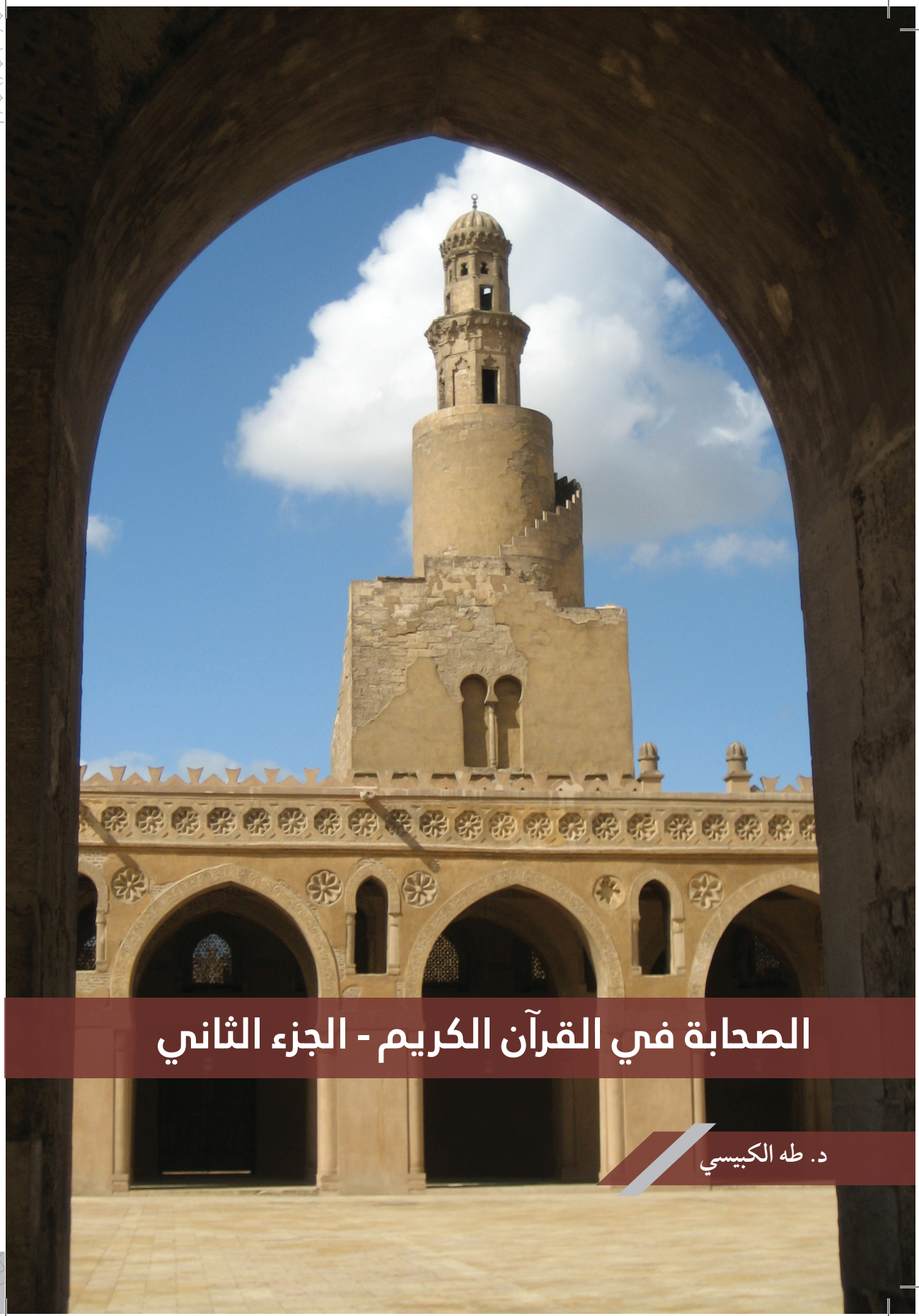

الصحابة في القرآن الكريم - الجزء الثاني

د. طه الكبيسي

غزوة أحد

تميز حديث القرآن الكريم عن غزوة أحد بالآتي[1]:

١- تذكير الصحابة رضي الله عنهم بالسنن:

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧٠]، هذه تسلية من الله تعالىٰ للمؤمنين، والمعنىٰ: «قد جرىٰ نحوهذا علىٰ الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة علىٰ الكافرين، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، وفيه بشرىٰ أن العاقبة ستكون لهم، وما عليهم ليتأكدوا سوىٰ السير في الأرض.

٢- دعوة الصحابة رضي الله عنهم للعلو الإيماني:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩].

لا شك أن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ رفعاً لهمة الصحابة، فأنتم الأعلون، ومن كان هذا شأنه، لا يمكن أن يضعف أويحزن، ثم يهيجهم لذلك ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عاشور: «التَّعليق بالشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قصد به تهييج غيرتهم علىٰ الإيمان، إذ قد علِم الله أنَّهم مؤمنون، ولكنَّهم لمّا لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان، وجيء بإن الشرطية الَّتي من شأنها عدم تحقيق شرطها، إتماماً لِهذا المقصد»[3].

ثناء عظيم علىٰ الصحابة رضي الله عنهن.

قال القرطبي: «﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة طه: ٦٨] وقال لهذه الامة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وهذه اللفظة مشتقة

(١) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، للصلابي ٢/ ٨٢٤-٨٤٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٥٩.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٩٩.

من اسمه الأعلىٰ فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾»[1].

الرفق في معالجة الأخطاء:

يلاحظ في هذه الغزوة أن الله تعالىٰ قد ترفق في عتابهم، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]، وتأمل ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾، ثم لم يقل عز وجل: والله ذو فضل عليكم، وإنما علىٰ المؤمنين، ليعلم أن وصف الإيمان ثابت لهم، بل حازوا كماله رضي الله عنهم. والله أعلم.

وصفهم بالإيمان:

مع إفراد عنوان لهذا، إلا أنني أجد لزامًا أن يعاد التذكير به؛ لمعرفة أن وصف الإيمان لم يسلب من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، من الآيات التي ذكرت ذلك:

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١].

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢].

«وقد قال فيهم الله تعالىٰ بعدما ندبهم رسول الله ﷺ لتعقب المشركين بعد انتهاء معركة أحد: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤][2].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢١٧.
(٢) منزلة الصحابة في القرآن/ ١٤.

ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال أبو حيان: « لما كان من المؤمنين ما كان يوم أحد، وعتب عليهم الله ما حذر[1] منهم في الآيات التي تقدمت، أخبرهم بأنّ الأمم السالفة قتلت أنبياء لهم كثيرون، أوقتل ربيون كثير معهم، فلم يلحقهم ما لحقكم من الوهن والضعف، ولا ثناهم عن القتال فجعهم بقتل أنبيائهم، أوقتل ربييهم، بل مضوا قدمًا في نصرة دينهم، صابرين علىٰ ما حل بهم. وقتل نبي أوأتباعه من أعظم المصاب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسي بمن مضىٰ من صالحي الأمم السابقة، هذا وأنتم خير الأمم، ونبيكم خير الأنبياء. وفي هذه الجملة من العتب لمن فرّ عن النبي ﷺ ما لا يخفىٰ»[2].

أثر المعاصي في الهزيمة:

يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢] « [حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ] حتىٰ إذا جبنتم وضعفتم [وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ] يقول: واختلفتم في أمر الله، يقول: وعصيتم وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرَهم ﷺ بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشِّعب بأُحُد»[3]. هذه المعصية من بعض الصحابة، - وكانت اجتهادًا منهم - وظنًا أن المعركة قد حسم أمرها-، كان لها أثر عظيم في الهزيمة، مع

(١) لعل الصواب: ما صدر. والعلم عند الله.
(٢) البحر المحيط٣/ ٧٧.
(٣) جامع البيان٣/ ٤٧١.

أن الرسول ﷺ فيهم، ولكنه درس عملي لهم، ولكل من يأتي بعدهم ينبههم إلىٰ خطر المعاصي.

خطورة إيثار الدنيا علىٰ الآخرة

يقول تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢] عاتبهم ربهم، وهو يرقىٰ بهم نحو الكمال. ولقد حدد موطن الخطأ، وخصص ولم يعمم، [مِنكُم]، وهذا التخصيص لم يكن بذكر أسماء من يريد الدنيا، ثم تأمل بعدها [وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ]؛ ليعلم أن القصد من ذكرها أن تتلافىٰ مستقبلاً.

الشهادة اصطفاء:

غير الإسلام كثيرًا من المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك، فلئن كان القتل يعد خسارة عند قوم، فهو عند الله تعالىٰ اصطفاء، ﴿...وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٠] ويعزز هذا المعنىٰ قول النبي ﷺ: (لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات علىٰ رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [سورة آل عمران:١٦٩]"[1].

مواقف بطولية للصحابة رضي الله عنهم في هذه الغزوة:

حمزة بْن عَبْد المطلب عم رسول الله ﷺ رضي الله عنه- قال ابن حجر: « لقبه النبي ﷺ أسد الله، وسماه: سيد الشهداء، ويقال: إنه قَتل بأحد قبل أن يُقتَل أكثر من ثلاثين نفسًا»[2].

و«عن سعد بن أبي وقاص قال: كان حمزة

(١) مسند الإمام أحمد رقم/ ٢٣٨٨،٤/ ١٢٣-١٢٤. قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. والحديث في إسناده كلام، قال المزيني: « أما حديث ابن عباس فهو وإن تكلم في سنده إلا أن له شواهد تجبره، ومع هذا فلفظ الآيات يوافقه، وأقوال المفسرين تؤيده، والله أعلم». المحرر في أسباب النزول١/ ٣٣٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة٢/ ٣٧.

يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: أنا أسد الله»[1].

مصعب بن عمير:

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، ومنا من مضى أوذهب لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير، قُتل يوم أحد، لم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه، فقال لنا النبي ﷺ: (غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذخر - أوقال: ألقوا على رجليه من الإذخر - ومنا من أينعت له ثمرته فهويهدبها)[2].

أَنَس بْن النّضْرِ رضي الله عنه:

أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه: « أن عمه غاب عن بدر، فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال اللهم: إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون. فتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فَقُتِل، فما عرف، حتى عرفته أخته بشامة، أوببنانه وبه بضع وثمانون طعنة وضربة سيف ورمية بسهم)[3].

مواقف لثلة من الأنصار:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ). فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: (مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ). فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»[4].

(١) سير أعلام النبلاء١/ ١٧٧، قال محققه:« أخرجه ابن سعد ٣/ ١/ ٦، والحاكم ٣/ ١٩٤ وصححه، ووافقه الذهبي».
(٢) صحيح البخاري رقم(٤٠٤٧)، ٦٤- كتاب المغازي، ١٧- باب غزوة أحد.
(٣) صحيح البخاري رقم(٤٠٤٨)، ٦٤- كتاب المغازي، ١٧- باب غزوة أحد.
(٤) صحيح مسلم برقم(١٧٨٩)، ٣٢-كتاب الجهاد والسير، ٣٧-باب غزوة أحد.

أم سليط رضي الله عنها:

وللصحابيات دورهن، ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطًا بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر: أم سليط أحق به. وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد[1].

غزوة الأحزاب:

حدثت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة، وقد نزلت سورة تحمل اسمها، ويكفي في وصف ماحدث فيها للصحابة الكرام، قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب:١٠-١١] ولم يحصل اقتتال يذكر، لكن هذه الغزوة كانت ممحصة للصف المؤمن، فنجم النفاق، وأظهر المنافقون ما كانوا يخفون، وقد قص الله من أنبائهم، يقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الأحزاب:١٢-١٥] وهذا من ثمار هذه الغزوة، ويستحسن أن لا تترك هذه السانحة لنبين باختصار قضية النفاق:

النفاق يعني: تمكن الحق وغلبة أهله، وأن المنافقين من الذلة لدرجة العجز عن إعلان ما يعتقدون.

أن الله تعالىٰ وعد المؤمنين أن يكشف لهم حقيقة المنافقين، فقال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ... ﴾ [سورة آل عمران: من الآية ١٧٩]، وقال عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [سورة محمد:٢٩] وقد كشفت غزوة الأحزاب أمرهم، فتباينت المواقف، موقف المؤمنين: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) صحيح البخاري رقم(٤٠٧١) ٦٤- كتاب المغازي، ٢٣، باب ذكر أم سليط.

ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٢٢] وموقف المنافقين: ﴿ ...مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [سورة الأحزاب:١٢] ولنتأمل هذه الآيات: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب: ١٣-٢٠]. إن هذا الإطناب في الحديث عنهم له مغزىً عظيم...،وهكذا صارت المحن تفضحهم شيئًا فشيئًا، حتىٰ قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة التوبة:١٢٦][1].

وإذن فأمر الصحابة معروف، وأمر المنافقين مكشوف، ولا يقع اللبس إلا لمن في قلبه مرض يمنعه من التمييز.

يتلخص حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة في الآتي:

١- تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب:٩].

(١) انظر الصحابة في القرآن/ ٣١-٣٤.

٢- بيان ما أصاب المسلمين بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠].

٣- الكشف عن المنافقين:

وقد مر ذكر كثير من الآيات الدالة على ذلك[١].

٤- بيان صلابة موقف المؤمنين:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٢٢].

٤- حض المؤمنين على التأسي برسول الله ﷺ:

لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

٥- مدح بعض المؤمنين على مواقفهم:

قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

٦- بيان سنة من سنن الله التي لا تتخلف، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم:

قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٥].

٧- امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة، وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٦، ٢٧][٢].

(١) ص

(٢) انظر السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث للصلابي٢/ ٩٦٢-٩٦٣.

٨- وصف الصحابة رضي الله عنهم بالإيمان:

وقد تجلىٰ في عديد من الآيات، من أبرزها:

تصدير الآيات بالنداء لأهل الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [سورة الأحزاب:٩] ووصفهم بالإيمان، بل بكماله، ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ [سورة الأحزاب:١١]، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾ [سورة الأحزاب:٢٢].

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم:

تعددت مواقف الصحابة، ففيما يتعلق بمجموعهم، فالكل يشارك في حفر الخندق، والكل أصابه من الجوع ما أصابه، والكل مستعد لتنفيذ ما يوجه إليه من أوامر، بل والكل كما وصفهم الله تعالىٰ: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ [سورة الأحزاب:١٠] ولنستعرض بعض النصوص التي توضح هذا:

أخرج الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: « خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأىٰ ما بهم من النصب والجوع قال: (اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة). فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا * علىٰ الجهاد ما بقينا أبدًا»[(١)].

وفي رواية عنه رضي الله عنه: « قَالَ يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ»[(٢)].

أخرج البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَىٰ امْرَأَتِي فَقُلْتُ:

(١) صحيح البخاري رقم(٤٠٩٩)، ٦٤- كتاب المغازي، ٣٠- باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب.
(٢) صحيح البخاري رقم(٤١٠٠) ٦٤،- كتاب المغازي، ٣٠- باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ، فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَىٰ فَرَاغِي وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ. فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: (يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّىٰ أَجِيءَ)، فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّىٰ جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ. فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا، فَبَصَقَ فِيهِ، وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّىٰ تَرَكُوهُ، وَانْحَرَفُوا وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ[1].

أما الآن، فلنستعرض مواقف بعض الصحابة:

موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تيمم المشركون أثناء حصارهم للمدينة مكانًا ضيقًا من الخندق، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر معه من المسلمين، حتىٰ أخذوا عليهم الثغرة. ووقف عمروبن عبد ودٍ هووخيله، وقال لعلي وصحبه: من يبارز؟ فبرز علي له وقال: يا عمرو، إنك قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلىٰ إحدىٰ خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلىٰ الله وإلىٰ رسوله وإلىٰ الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلىٰ النزال، فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي: ولكني أحب أن أقتلك، فحمي عمروعند ذلك، وأقبل علىٰ علي فتنازلا، فقتله علي رضي الله عنه، وخرجت خيلهم منهزمة حتىٰ اقتحمت من الخندق هاربةً[2].

(١) صحيح البخاري رقم(٤١٠٢) ٦٤- كتاب المغازي، ٣٠- باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

(٢) انظر الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر/ ١٨٥، قال د. مهدي رزق الله:« وقد أورد الطبري في تاريخه ٣/ ٤٨، مبارزة علي لابن عبد ود، من مرسل الزهري، ومراسيله ضعيفة، ومن مرسل عكرمة، بإسناد رجاله ثقات» السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية/ ٤٥٢.

موقف حذيفة بن اليمان:

في صحيح مسلم عن إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ رَجُل: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ. فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:(أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟). فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟). فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟). فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ فَقَالَ: (قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ). فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُوم، قَالَ: (اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ). فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ (وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ). وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: (قُمْ يَا نَوْمَانُ)[1].

موقف للزبير بن العوام:

قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (من يأتينا بخبر القوم؟). فقال الزبير: أنا. ثم قال: (إن لكل نبي حواريًّا، وأن حواري الزبير)[2].

غزوة حنين:

هذه الغزوة كانت بعد فتح مكة، في السنة الثامنة للهجرة، قوامها اثنا عشر ألفًا، ولقد صدرت الآيات التي تتحدث عن هذه الغزوة بقوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [سورة التوبة:٢٥] تذكيرًا بما سلف من نصر الله تعالىٰ لهم، ومنها ما حصل في

(١) صحيح مسلم رقم/ ١٧٨٨، ٣٢-كتاب الجهاد والسير، ٣٦- باب غزوة الأحزاب.
(٢) صحيح البخاري رقم(٤١١٣) ٦٤- كتاب المغازي، ٣٠- باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

غـزوة بدر، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وهوواد بين مكة والطائـف قاتل عليه نبـي الله ﷺ هوازن وثقيفًا بعد فتح مكـة ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وذلك أنهم قالوا: لن نغلب اليوم من قلة وكانوا اثني عشر ألفًا ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ لم تدفع عنكم شيئًا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها وسعتها ضاقت عليكم، فلم تجدوا فيها موضعًا يصلح لفراركم، وهوقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ انهزمتـم، أعلمهـم الله تعالـىٰ أنهم ليسـوا يغلبـون بكثرتهـم إنما يغلبـون بنصر الله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ يعنـي الأمنة والطمأنينة ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا] ﴾الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسـر وسـبي الأولاد ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ فيهديـه إلىٰ الإسـلام ولا يؤاخذه بما سلف ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بمن آمن[1].

يتضـح من حديـث القرآن الكريـم عن هذه الغزوة الآتي:

١- ربـط الصحابـة بالله تعالـىٰ، وأن النصر مـن عنده عز وجل، من خلال مواقف سـبقت، وهم يعرفونها.

٢- التنبيـه علـىٰ موضـع الخطـأ، وهوههنا الإعجـاب بالكثـرة، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ولـم يقل الله تعالـىٰ: فلم تغن من عدوكم شـيئًا، وإنما من الله، وهنـا ربط القلوب بمـا يرضي الله، فالنصر من عنده وحده. قال ابن كثير: «نبههم علىٰ أن النصر من عنده، سـواء قل الجمـع أوكثر، فإن يوم حنيـن أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدىٰ ذلك عنهم شيئًا، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ...»[2].

٣- المؤاخـذة علـىٰ الخطـأ، لا يعفىٰ منها أحـد، فهـؤلاء الصحابـة الكرام، ومعهم سـيد ولـد آدم، ومع ذلـك، فقد أصابهم مـا أصابهم، ولنستحضر ما حصل في غزوة أحد، ولنكن من الأخطاء علىٰ حذر.

٤- عـدم اليـأس من رحمـة الله تعالىٰ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أنزلها الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ المؤمنين، قال الشـوكاني: «هـم الذين لم ينهزمـوا، وقيل:

(١) انظر الوسيط في تفسير الكتاب المجيد، للواحدي/ ٤٨٧-٤٨٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم٢/ ١٢٨١، وفيه تفصيل لهذه الغزوة.

الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا»[1].

٥- إكرام الله تعالىٰ الرسول ﷺ والصحابة بإنزال الملائكة عليهم السلام ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ «هم الملائكة، وقد اختلف في عددهم علىٰ أقوال: قيل: خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفًا، وقيل: غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضًا: هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا؟...»[2]. والعلم عند الله تعالىٰ.

مواقف للصحابة في هذه الغزوة:

في صحيح مسلم بسنده عن العباس، قال: (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُوسُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بْنُ نُفَاثَةَ الْجُذَامِي، فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّىٰ الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِين، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لاَ تُسْرِعَ وَأَبُوسُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَيْ عَبَّاسُ! نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ). فَقَالَ عَبَّاسٌ -وَكَانَ رَجُلاً صَيِّتًا- فَقُلْتُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَىٰ أَوْلاَدِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ، قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ، وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُون: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَىٰ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ ابْنِ الْخَزْرَجِ يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ.

فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَىٰ قِتَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ). قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَىٰ بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ: (انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ). قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَىٰ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ، فَمَا زِلْتُ أَرَىٰ حَدَّهُمْ كَلِيلاً وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا[3].

(١) فتح القدير ٢/ ٣٥٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.

غزوة تبوك:

نزل معظم سورة التوبة في شأن هذه الغزوة، ولذا فإنه من المناسب أن نذكر اختصارًا لها، يقول ابن كثير: «ولما أنزل الله عز وجل على رسوله ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [سورة التوبة:٢٩] ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزوالروم، وذلك في رجب من سنة تسع، وكان لا يريد غزوة إلا ورى بغيرها، إلا غزوته هذه، فإنه صرح لهم بها؛ ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته، وذلك حين طابت الثمار، وكان ذلك في سنة مجدبة، فتأهب المسلمون لذلك، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه على هذا الجيش- وهوجيش العسرة - مالاً جزيلًا، فقيل: ألف دينار، وقال بعضهم: إنه حمل على ألف بعير ومائة فرس وجهزها أتم جهاز، حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا رضي الله عنه.

ونهض ﷺ في نحومن ثلاثين ألفًا، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة، وقيل: سباع بن عرفطة، وقيل: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والصحيح أن عليًا كان خليفة له على النساء والذرية،... وقد خرج معه عبد الله بن أبي رأس النفاق، ثم رجع في أثناء الطريق.

وتخلف عن رسول الله ﷺ النساء والذرية ومن عذره الله من الرجال، ممن لا يجد ظهرًا يركبه، أونفقة تكفيه، فمنهم البكاؤون وكانوا سبعة... وتخلف منافقون كفرًا وعنادًا، وكانوا نحوالثمانين رجلاً، وتخلف عصاة، مثل مرارة ابن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ثم تاب الله عليهم بعد قدومه ﷺ بخمسين ليلة.

فسار ﷺ فمر في طريقه بالحجر، فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا بكائين، وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليطعموه للإبل، وجازها ﷺ مقنعًا، فبلغ ﷺ تبوك وفيها عين تبض بشيء من ماء قليل، فكثرت ببركته مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة، من تكثير الطعام

الـذي كان حاصـل الجيـش جميعه منـه مقدار العنـز البـاركـة، فدعـا الله عز وجـل، فأكلوا منه وملؤوا كل وعاء كان في ذلك الجيش، وكذا لما عطشـوا دعا الله تعالىٰ فجاءت سحابة فأمطرت فشربوا حتىٰ رووا واحتملوا،...

ولمـا انتهىٰ إلىٰ هناك، لـم يلق غزوًا، ورأىٰ أن دخولهم إلىٰ أرض الشـام بهذه السـنة يشـق عليهم، فعزم علىٰ الرجوع وصالح ﷺ يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، وبعث خالدًا إلىٰ أكيدر دومة، فجـيء به فصالحه أيضًا ورده. ثم رجع ﷺ،... وكان رجوعه من هذه الغزاة في رمضان من سنة تسع، وأنزل فيها عامة سورة التوبة، وعاتب الله عـز وجل من تخلـف عنه ﷺ فقـال عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [سورة التوبة:١٢٠]...»[1].

نتسطيع أن نستخلص بعض الدروس مما سبق:

١-لا تزال الفتن تميـز الخبيث من الطيب، فهـذه الغـزوة، التي سـميت بالعسـرة، بكل ما تحمله من معان، وقد وقعت في وقت طابت فيه الثمار، والحر شـديد، والشقة بعيدة، فلن يثبت أمـام هـذا كلـه إلا المؤمنون، وهـذا ما حدث، فلقد انقسم الناس إلىٰ ثلاثة أصناف:

المؤمنـون، وهـم الغالبية، وقـدروا بثلاثين ألفًا.

العصاة، وهم نفر قليل، سنذكر في المواقف حديثًا أحدهم.

المنافقـون، وقـد تولـت سـورة التوبـة فضحهم، وبيان صفاتهم.

٢- فيمـا يتعلـق بالمؤمنين يكفي أن يشـار إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة التوبة:٨٨-٨٩]، ويتأكد هنـا ما سـبق بيانه أن وصـف الإيمـان قد لازم الصحابة رضي الله عنهـم، فما غيروا وما بدلوا تبديلاً رضي الله عنهم.

وتأمل كيف يقرنهم مع الرسول ﷺ، وينص

(١) الفصول في سيرة الرسول، لابن كثير/ ٢١٠-٢١٣ بحذف يسير.

علىٰ أنهم معه، فهم لم يفارقوه حتىٰ في ساعة العسرة.

٣- شهد الله تعالىٰ للصحابة رضي الله عنهم باتباع رسوله ﷺ في ساعة العسرة، والتقييد بالعسرة يدل علىٰ أنهم كانوا صادقين في إيمانهم وحبهم لله ورسوله ﷺ.

٤- وعدهم الله تعالىٰ بالخيرات، وهي تتناول منافع الدارين؛ لإطلاق اللفظ، ووصفهم بالفلاح، بل هم الكاملون فيه، ثم وعدهم الجنة، مبينًا أن ذلك الأمر العالي المكانة، هو الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، قال تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة التوبة:٨٨-٨٩][1].

أما المنافقون، فقد فضحتهم سورة التوبة، حتىٰ سميت بالفاضحة، ومن الآيات التي أشارت إلىٰ بعض أفعالهم الذميمة:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٤٢]،

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[سورة التوبة: ٤٩]،

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [سورة التوبة:٥٨] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وأما العصاة، فسنذكر حديث كعب بن مالك رضي الله عنه[2]، ولطوله سنختصره في الآتي:

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك من غير عذر، ولقد حاول اللحاق بالرسول ﷺ ومن معه، لكنه لم يفعل، قال كعب: « وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ»، ثم عند عودة الرسول ﷺ أجمع علىٰ أن يقول الصدق،

(١) انظر فضائل الصحابة في القرآن الكريم/ ١٥٠-١٥١.

(٢) الحديث في صحيح البخاري رقم(٤٤١٨)، ٦٤-كتاب المغازي، ٨٠-باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: [وعلىٰ الثلاثة الذين خلفوا]، وصحيح مسلم، رقم(٢٧٦٩)، ٤٩-كتاب التوبة، ٩- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.

وطفق المخلفون يعتذرون ويحلفون، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، أما كعب فيصف حاله:« فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَىٰ إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَىٰ بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَىٰ وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ)، وقد « نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّىٰ تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِف، فَلَبِثْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً». وأن ملك غسان دعاه بقوله:« أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ». يقول كعب:« فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا» ثم لما مَضَتْ أَرْبَعُون طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، يقول كعب: « فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَىٰ صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ».ثم نزلت توبتهم بعد مضي خمسين ليلة.

في هذه الحادثة دروس كثيرة، منها:

١- الصحابة رضي الله عنهم ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنهم يبادرون إلىٰ التوبة.

٢- عظم صدق الصحابة رغم ما نالهم من الأذىٰ، ويكفي الوصف القرآني لحالهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ... ﴾[سورة التوبة:١١٨].

٢- رسوخ إيمانهم مع ما تعرضوا له من الفتن، يقول ابن حجر معلقًا علىٰ خطاب ملك

غسان، وما فعله كعب رضي الله عنه:«وَدَلَّ صَنِيع كَعْب هَذَا عَلَىٰ قُوَّة إِيمَانه وَمَحَبَّته لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَإِلَّا فَمَنْ صَارَ فِي مِثْل حَاله مِنْ الْهَجْر وَالْإِعْرَاض، قَدْ يَضْعُف عَنْ اِحْتِمَال ذَلِكَ، وَتَحْمِلهُ الرَّغْبَة فِي الْجَاه وَالْمَال عَلَىٰ هِجْرَان مَنْ هَجَرَهُ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ أَمْنه مِنْ الْمَلِك الَّذِي اِسْتَدْعَاهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُكْرِههُ عَلَىٰ فِرَاق دِينه، لَكِنْ لَمَّا احْتُمِلَ عِنْده أَنَّهُ لَا يَأْمَن مِنْ الِافْتِتَان حَسَمَ الْمَادَّة وَأَحْرَقَ الْكِتَاب وَمَنَعَ الْجَوَاب، هَذَا مَعَ كَوْنه مِنْ الشُّعَرَاء الَّذِينَ طُبِعَتْ نُفُوسهمْ عَلَىٰ الرَّغْبَة، وَلَا سِيَّمَا بَعْد الِاسْتِدْعَاء وَالْحَثّ عَلَىٰ الْوُصُول إِلَىٰ الْمَقْصُود مِنْ الْجَاه وَالْمَال، وَلَا سِيَّمَا وَالَّذِي اِسْتَدْعَاهُ قَرِيب وَنَسِيبه، وَمَعَ ذَلِكَ فَغَلَبَ عَلَيْهِ دِينه وَقَوِيَ عِنْده يَقِينه، وَرَجَّحَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ النَّكَد وَالتَّعْذِيب عَلَىٰ مَا دُعِيَ إِلَيْهِ مِنْ الرَّاحَة وَالنَّعِيم، حُبًّا فِي الله وَرَسُوله»[1].

٣- سرعة امتثالهم لأوامر الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، تأمل قوله لما طلب منه أن يعتزل امرأته: «فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ».

إلىٰ غير ذلك.

مواقف للصحابة رضي الله عنهم:

لنذكر أولاً الموقف العام لهؤلاء الصحب:

«عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العسرة فقال عمر: خرجنا إلىٰ تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتىٰ ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتىٰ إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي علىٰ كبده. فقال أبوبكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادع الله لنا، فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر»[2].

(١) فتح الباري٨/ ٤٦٢.

(٢) قال الألباني في تخريجه لفقه السيرة، للغزالي/ ٣١٤: « ذكره ابن كثير في التاريخ(٥/ ٩)، من رواية عبد الله بن وهب بسنده عن ابن عباس، ثم قال «إسناد جيد». وهوعندي غير جيد لأنه من رواية عتبة بن أبي عتبة. وقد ذكره الحافظ في «اللسان» (٤/ ١٢٩) وذكر أن العقيلي أورده في «الضعفاء»، ثم ساق له حديثين ثم قال: « ولا يتابع علىٰ الحديثين جميعًا». نعم قد أورد الحديث الهيثمي في المجمع (٦/ ١٠٤-١٩٥) ثم قال: رواد البزار والطبراني في الأوسط: و«رجال البزار ثقات» فإذا صح هذا - فالحديث حسن إن شاء الله أوصحيح.

أما علىٰ المستوىٰ الفردي[1]: فالأمثلة كثيرة جدًا، نكتفي ببعضها:

تجهيز عثمان رضي الله عنه لجيش العسرة:

في صحيح البخاري أَنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنه حِينَ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ اللهَ، وَلَا أَنْشُدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ؟ فَحَفَرْتُهَا، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ؟ فَجَهَّزْتُهُ. قَالَ: فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ...»[2].

«عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلىٰ النبي ﷺ بألف دينار، حين جهز جيش العسرة، ففرغها عثمان في حجر النبي ﷺ، قال: فجعل النبي ﷺ يقلبها ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم). قالها مرارًا»[3].

المبحث الخامس:
منزلة أهل البيت رضي الله عنهم:

زوجات النبي ﷺ:

نزلت آيات كريمة تبين فضل أزواج النبي ﷺ، ولولم ينزل إلا قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [سورة الأحزاب:من الآية٦]، لكفاهن فخرًا، كيف وقد قرنهن الله تعالىٰ بالنبي ﷺ، وأضافهن إليه، قال القرطبي: «شرف الله تعالىٰ أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي: في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح علىٰ الرجال، وحجبهن رضي الله تعالىٰ عنهن بخلاف الأمهات»[4].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ

(١) لأبي ذر وأبي خيثمة موقفان عظيمان في اللحاق برسول الله ﷺ، لم أذكرهما لضعفهما. وفي صحيح مسلم برقم (٢٧٦٩)،٤٩- كتاب التوبة، ٩- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه.« فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ رَأَىٰ رَجُلاً مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ ». فَإِذَا هُوَأَبُوخَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ». وليس فيه تركه لزوجتيه ...

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٧٧٨)، ٥٥-كتاب الوصايا، ٣٣- باب إذا وقف أرضًا أوبئرًا أواشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين.

(٣) قال الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي/ ٣١٢:» رواه ابن شاهين رقم(٣)، والحاكم٣/ ١٠٢، وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن سمرة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وله شواهد ذكرها ابن كثير في تاريخه٥/ ٦. وآخر عند ابن شاهين رقم(٦١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن١٤/ ١٢٣.

تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨-٣٤].

تتحدث هذه الآيات في بدايتها عن التخيير، وقد ورد في صحيح البخاري ما يوضحه، «... قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأُنْزِلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ، فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَالَ: (إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا، وَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي، حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ). قَالَتْ: قَدْ أَعْلَمُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ قَالَ: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ - إِلَىٰ قَوْلِهِۦ - عَظِيمًا] قُلْتُ: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ. ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ. فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ»[1].

قال ابن كثير: « هذا أمر من الله تبارك وتعالىٰ لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلىٰ غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر علىٰ ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالىٰ في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهنّ وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالىٰ لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٠-٣١].

يقول الله تعالىٰ واعظًا نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهن

(١) صحيح البخاري رقم (٢٤٦٨) ٤٦- كتاب المظالم، ٢٥- باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها.

بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق، وعلىٰ كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر:٦٥] فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لووقع منهن مغلظًا؛ صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة... ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلاً هينًا، ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ويستجب [نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا] في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلىٰ العليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلىٰ العرش.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [٣٢-٣٤]

هذه آداب أمر الله تعالىٰ بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالىٰ مخاطبًا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله **عز وجل** كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولاً حسنًا جميلاً معروفًا في الخير، ومعنىٰ هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم...

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول

الله ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات)[1] وفي رواية (وبيوتهن خير لهن)[2] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك، وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والتبرج: أنها تلقي الخمار علىٰ رأسها ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدوذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ نهاهن أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي: الإحسان إلىٰ المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذا من باب عطف العام علىٰ الخاص.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحدًا، إما وحده علىٰ قول، أومع غيره علىٰ الصحيح. وروىٰ ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة....، وقال عكرمة: من شاء باهلته أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ، فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل علىٰ أن المراد أعم من ذلك...» ثم قال ابن كثير: «ثم الذي لا يشك[3] فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا

(١) سنن أبي داود رقم/ ٥٦٥، ٢-كتاب الصلاة، ٥٣- باب ما جاء في خروج النساء ١/ ٢١٠، قال الألباني: حسن صحيح.
(٢) الحديث كما يأتي: (لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن) وهوفي سنن أبي داود رقم/ ٥٦٧، ٢- كتاب الصلاة، ٥٣- باب ما جاء في خروج النساء،، وصححه الألباني.
(٣) في النسخة التي اعتمدتها في هذا البحث « الذي لا شك » والتصويب من النسخة التي حققها سامي سلامة٦/ ٤١٥، وكذلك في

قال تعالىٰ بعد هذا كله: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أي: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة؛ فإنه لم ينزل علىٰ رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص علىٰ ذلك صلوات الله وسلامه عليه...»[1].

وقال ابن العربي في قوله تعالىٰ: ﴿ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ «يعني: في الفضل والشرف، فإنهن وإن كن من الآدميات، فلسن كإحداهن، كما أن النبي ﷺ وإن كان من البشر جبلة، فليس منهم فضيلة ومنزلة، وشرف المنزلة لا يحتمل العثرات، فإن من يقتدىٰ به، وترفع منزلته علىٰ المنازل جدير بأن يرتفع فعله علىٰ الأفعال، ويربو حاله علىٰ الأحوال»[2].

ما يستفاد من الآيات السابقة:

١- فضل نساء النبي ﷺ، إذ اخترن الله ورسوله ﷺ، ولذا استحققن ما وعدهن الله ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾.

٢- في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ... وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمًا ﴾ تنويه بشأنهن، وبيان لشرفهن وعلو منزلتهن، فإضافتهن لسيد الخلق ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ تشريف عظيم، ولذا كانت العقوبة مضاعفة، وكذا الثواب.

٣- منَّ الله تعالىٰ عليهن وذكرهن بنعمة عظيمة، وهي نزول الوحي في بيوتهن دون سائر الناس، ولا شك أن هذه منقبة عظيمة[3].

عمدة التفسير للشيخ أحمد شاكر ٣/ ٤٨.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٢٤١-٢٢٤٩.

(٢) أحكام القرآن/ ٥٦٨.

(٣) انظر فضائل الصحابة في القرآن الكريم/ ١٦٦-١٦٧.

٤- الحديث عنهن بوصف الزوجية، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ .. ﴾، الذي يشعر بالمشاكلة والمشابهة والاقتران [١].

ولنذكر شيئًا مما ورد في فضل بعضهن:

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

أخرج الإمام البخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة)[٢] قال ابن حجر: «خير نسائها، أي: نساء زمانها»[٣].

يكفي في فضلها حديث رواه أبوهريرة رضي الله عنه قال: أَتَىٰ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ)[٤].

عائشة رضي الله عنها:

لقد أنزل الله تعالىٰ في شأن عائشة رضي الله عنها قرآنًا يتلىٰ، يظهر براءتها مما رماها به أهل الإفك، ولنترك عائشة الصديقة تحكي ذلك، تقول في حديث طويل نجتزئ منه الآتي: «... وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّىٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنْ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ؛ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ﴾ الْآيَاتِ...»[٥].

يقول الزمخشري:« ومعنىٰ كونه خيرًا لهم:

(١) انظر آيات آل البيت/ ١٤٥.
(٢) صحيح البخاري رقم(٣٨١٥) ٦٣- كتاب مناقب الأنصار، ٢٠- باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها.
(٣) فتح الباري٧/ ٥١٤.
(٤) صحيح البخاري رقم(٣٨٢٠)، ٦٣- كتاب مناقب الأنصار، ٢٠- باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها.
(٥) صحيح البخاري رقم(٢٦٦١) ٥٢-كتاب الشهادات، ١٥- باب تعديل النساء بعضهن بعضًا.

أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء مبينًا ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية،كل واحدة منها مستقلة، بما هوتعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أوسمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلىٰ يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفىٰ علىٰ متأمليها»[(١)]، وقال ابن كثير: « [بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ] أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم، باعتناء الله تعالىٰ بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾الآية [فصلت:٤٢]»[(٢)].

وللزمخشري كلام نفيس حول هذا، يقول:«ولوفليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به من العصاة، لم تر الله تعالىٰ قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه علىٰ طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولولم ينزل إلاّ هذه الثلاث لكفىٰ بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتىٰ يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هودونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر...»[(٣)].

زينب بنت جحش رضي الله عنها:

يقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(١) الكشاف٣/ ٢٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم١/ ١٩٧٠.
(٣) الكشاف٣/ ٢٢٧-٢٢٨ بحذف يسير.

ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧] .

ولن نطيل في شرح هذه الآية، والمراد ذكر فضلها رضي الله عنها، والشاهد من الآية الكريمة، قوله تعالىٰ: [زوجناكها]، وأن آية الحجاب نزلت بسببها، ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش، وأطعم عليها يومئذ خبزًا ولحمًا، وكانت تفخر علىٰ نساء النبي ﷺ، وكانت تقول: « إن الله أنكحني في السماء»[(١)].

وفي رواية: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالىٰ من فوق سبع سموات»[(٢)].

ومما له صلة بهذا الحديث مما يدل علىٰ فضلها، قول أنس رضي الله عنه: «مَا أَوْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ أَكْثَرَ أَوْ أَفْضَلَ مِمَّا أَوْلَمَ عَلَىٰ زَيْنَبَ. فَقَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: بِمَا أَوْلَمَ قَالَ: أَطْعَمَهُمْ خُبْزًا وَلَحْمًا حَتَّىٰ تَرَكُوهُ»[(٣)].

آيات العتاب في حق أزواج النبي ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ﴾ [سورة التحريم: ١ - ٥].

قبل البدء في تناول هذه الآيات لا بد أن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، وأنهم بشر، يقع منهم الذنب، ولكنهم يسارعون إلىٰ التوبة، وفي الآيات التي معنا حصل ما يحصل بين الضرائر من الغيرة، والله تعالىٰ يريد للصحابة أرفع المقامات، وبخاصة أن الأمر يتعلق بزوجات النبي الكريم ﷺ، ومن

(١) صحيح البخاري برقم(٧٤٢١)، ٩٧- كتاب التوحيد، ٢٢- باب [وكان عرشه علىٰ الماء].
(٢) صحيح البخاري برقم(٧٤٢٠)، ٩٧- كتاب التوحيد، ٢٢- باب [وكان عرشه علىٰ الماء].
(٣) صحيح مسلم، رقم(١٤٢٨)، ١٦ كتاب النكاح، ١٥- باب زواج زينب بنت جحش.

أفضل من تناول بيان هذه الآيات مع الإيجاز: الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ، يقول: « هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم علىٰ نفسه سريته «مارية» أوشرب العسل[1]، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ... ﴾ الآيات... ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه ﷺ، وحلمًا، فـ ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ: عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ علىٰ نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما علىٰ ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ تعاونا علىٰ ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم. وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفىٰ، ثم خوفهما أيضا، بحالة تشق علىٰ النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقىٰ ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالًا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما

(١) اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات، وقد رجح د. خالد المزيني - بعد مناقشة مستفيضة - أنها في تحريم الرسول ﷺ جاريته؛ لصحة سنده، وتصريحه بالنزول، وموافقته لسياق القرآن، واختيار جمهور السلف من المفسرين له. انظر المحرر في أسباب نزول القرآن ٢/ ١٠٣٩.

طلقهن، ولوطلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهوالقيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.القنوت هو: دوام الطاعة واستمرارها [تَائِبَاتٍ] عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، [ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا] بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ، فيما يحب، فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلىٰ رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل علىٰ أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلىٰ الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل علىٰ أنهن خير النساء وأكملهن»[1].

وما أروع الاستنباط الأخير، الذي يغني عن كل تعليق.

قرابة النبي ﷺ.

قال الإمام البخاري:« بَاب مَنَاقِبِ قَرَابَةِ رَسُولِ ﷺ، وَمَنْقَبَةِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام بِنْتِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثم أورد أثرًا عن أَبِي بَكْرٍ **رضي الله عنه** قَال:« ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»[2]، وأردفه بحديث للنبي ﷺ (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي)[3].

ولما كان هذا الموضوع من المواضيع المتشعبة التي كثر فيها الكلام، وكان من الحكمة أن يبدأ الباحث بما انتهىٰ إليه الآخرون، فإني سأعتمد في هذه النقطة علىٰ ما كتبه الأستاذ منصور بن حمد العيدي في رسالته (آيات آل البيت في القرآن الكريم)، وقد توصل إلىٰ نتائج طيبة، أقتصر منها علىٰ ما يتعلق بالبحث:

١- مفهوم آل البيت في القرآن الكريم صادق علىٰ كل مؤمني بني هاشم إضافة إلىٰ أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن- .

(١) تيسير الكريم الرحمن/ ١٠٣٥-١٠٣٦، بحذف يسير.
(٢) صحيح البخاري رقم(٣٧١١) ٦٢- كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ١٢- باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ.
(٣) صحيح البخاري رقم(٣٧١٢) ٦٢- كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ١٢- باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ.

٢- أمهات المؤمنين هن أكثر آل البيت ذكرًا في القرآن الكريم، سواء في جانب الفضائل أوجانب الأحكام.

٣- لم يخص أحد من آل البيت بأحكام في القرآن غير أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.

٤ - لا يوجد دليل قرآني يدل علىٰ وجوب محبة آل البيت علىٰ جهة الاستقلال، أما تبعًا للنبي ﷺ فموجود.

٥- لا توجد فضيلة خاصة في آية من القرآن لعلي وفاطمة والحسن والحسين **رضي الله عنهم** سوىٰ في آية المباهلة، وما عدا ذلك لا يصح قطعًا.

٦- لا يوجد دليل قرآني علىٰ عصمة أحد من آل البيت، أوعلىٰ استحقاق أحد منهم للخلافة، أوعلىٰ أنهم مغفوروالذنوب.

٧- أن القرآن الكريم يثبت حقًا ماليًّا لأهل البيت، يتمثل في جزء من خمس غنائم الجهاد والفيء فقط.

٩- القرآن الكريم يحث آل البيت علىٰ التحلي بأعلىٰ درجات التقوىٰ وعند ذلك يضاعف أجرهم[1].

نستخلص مما سبق أن الآية الوحيدة التي تخص آل البيت - إذا استثنينا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن -، هي قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران:٦١]، هذا ما قاله د. العيدي، ولكننا نضيف إليها قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ...﴾ [سورة الحج:١٩]، وهي وإن لم تكن واردة بخصوص آل البيت، لكنها تتضمن فضلًا لعلي **رضي الله عنه**. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب:٣٣]؛ لأنهم رضي الله عنهم يدخلون مع أزواج النبي ﷺ فيها - كما سيأتي -.

فيما يتعلق بآية المباهلة، فعن سعد بن أبي وقاص **رضي الله عنه** قال: «... لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ

(١) آيات آل البيت في القرآن الكريم الدلالات والهدايات/ ٤٩٧-٤٩٨.

الآيـةُ ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دَعَـا رَسُـولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّـا وَفَاطِمَةَ وَحَسَـنًا وَحُسَـيْنًا فَقَال: (اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِي)»[1].

وفي صحيح البخاري « عَنْ حُذَيْفَةَ قَال: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّـيِّدُ - صَاحِبَا نَجْرَانَ - إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيـدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَـالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَـلْ، فَوَاللهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعَنَّا لَا نُفْلِـحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَـا سَـأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَـا رَجُلًا أَمِينًـا وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَـا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ: لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُـمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ. فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَـالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا قَام، قَالَ رَسُولُ اللهِ: ﷺ (هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)»[2].

قال الزمخشـري: «وخص الأبناء والنسـاء؛ لأنهم أعـز الأهـل وألصقهم بالقلـوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتىٰ يقتل، ومن ثمة كانوا يسـوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب؛ لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم: حماة الحقائق.

وقدمهـم في الذكر علىٰ الأنفـس؛ لينبه علىٰ لطف مكانهـم وقـرب منزلتهم، وليـؤذن بأنهم مقدمـون علىٰ الأنفـس مفدون بهـا، وفيه دليل لا شـيء أقوىٰ منه علىٰ فضل أصحاب الكساء عليهم السـلام، وفيه برهـان واضح علىٰ صحة نبـوة النبي ﷺ؛ لأنه لم يروأحـد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلىٰ ذلك»[3].

* قولـه تعالـىٰ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [سـورة الحج:١٩].

في صحيـح البخاري عن علي رضي الله عنه قـال: «فينـا نزلت هـذه الآيـة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[4]. وكان أبـوذَرٍّ رضـي الله

(١) صحيـح مسـلم، رقـم(٢٤٠٤)، ٤٤- كتـاب فضائل الصحابـة،٤- باب من فضائل علي بـن أبي طالب رضي الله عنـه. ولم أذكر الحديـث الـذي فيه ذكر وفد نجران، ودعوتهم للمباهلة، ونكوصهم عنها، وفيه « فأتىٰ رسـول الله ﷺ وقد غدا محتضنًا الحسـين آخذا بيد الحسـن وفاطمة تمشـي، وعلي خلفها، وهويقول: « اذا انا دعوت فأمنوا...» لأن أسـانيده ضعيفة. ينظر الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف،لابن حجر١/ ٣٩٥-٣٩٦.بهامش الكشاف.

(٢) صحيح البخاري رقم(٤٣٨٠)، ٦٤-كتاب المغازي، ٧٣ - باب قصة أهل نجران.

(٣) الكشاف١/ ٣٩٧.

(٤) صحيح البخاري رقم(٣٩٦٧)، ٦٤- كتاب المغازي، ٨- باب قتل أبي جهل.

عنه يُقْسِمُ قسمًا أنَّ هَـذِهِ الْآيَةَ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي الذين بَرَزُوا فِي يَوْمِ بَـدْرٍ: حمزة وعلـي وعبيدة بن الحـارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة»[1].

قـال ابـن كثير بعـد أن ذكـر الأقـوال فيمن نزلـت هـذه الآيـة: «وقـول مجاهـد وعطـاء: إن المـراد بهـذه الكافـرون والمؤمنون يشـمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريـدون نصرة دين الله **عز وجل**، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحـق وظهور الباطل، وهـذا اختيار ابن جرير، وهوحسن»[2].

* قوله تعالـىٰ: ﴿ ...إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب:٣٣].

قد مر أن هذه الآيات نزلت في زوجات النبي ﷺ، وهـي تشـمل آل النبي ﷺ كلهـم، قال ابن كثير - بعد أن ذكر قول من قال: إنها في زوجات النبـي ﷺ خاصة -: « فـإن كان المراد أنهن كن سـبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديـث تدل علـىٰ أن المـراد أعم من ذلـك»، ثـم أورد عـدة أحاديث، ومـن جملتها حديث الكسـاء، وفيه:« قالت عائشة رضي الله عنهـا: خـرج النبـي ﷺ ذات غـداة وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسـود، فجاء الحسن **رضي الله عنـه** فأدخله معه، ثم جاء الحسـين فأدخله معه ثـم جـاءت فاطمـة فأدخلها معه، ثـم جاء علي **رضـي الله عنه** فأدخله معه، ثم قال ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[3].

وقـال الشـنقيطي:« الصواب شـمول الآية الكريمـة لأزواج النبـيّ ﷺ، ولعلـيّ وفاطمـة والحسن والحسين، رضي الله عنهم كلّهم»[4].

ولا شـك أن فيها فضيلـة عظيمة لأهل بيت النبي ﷺ.

(١) صحيح البخاري رقم(٣٩٦٩)، ٦٤- كتاب المغازي، ٨- باب قتل أبي جهل.
(٢) تفسير القرآن العظيم٣/ ١٨٩١.
(٣) تفسـير القرآن العظيم ٣/ ٢٢٤٥، والحديث في صحيح مسـلم رقم(٢٤٢٤)، ٤٤-كتاب فضائل الصحابة، ٩ - باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ.
(٤) أضواء البيان٦/ ٣٧٩.

المبحث السادس:

واجب المؤمنين تجاه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

بعد أن بينا مكانة الصحابة **رضي الله عنهم** من حيث قوة إيمانهم وصبرهم علىٰ الأذىٰ، وهجرتهم، وما تعنيه من ترك للأهل والوطن، والأموال...، ثم جهادهم بالنفس والمال، بذلوا كل ذلك وأكثر؛ لينصروا دين الله **عز وجل**، فما واجبنا نحن الذين جئنا من بعدهم، ووجدنا أمر الدين ميسرًا، ما موقفنا من هؤلاء النفر الذين اصطفاهم الله تعالىٰ لصحبة خيرة خلقه، وأفضل رسله عليه وعليهم الصلاة والسلام، ما موقفنا منهم؛ نوجز هذا الأمر في نقاط:

الأولىٰ: «اعتقاد إمامتهم في الدين»[1]، وأنهم خير القرون، مصداقًا، لقول الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران:١١٠]، قال ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما (هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلىٰ المدينة): «والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[2]، والآيات في خيريتهم كثيرة، ومنها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة : ١٤٣] ولا شك أن الصحابة أول الداخلين في ذلك.

أما الأحاديث فمنها قول النبي ﷺ: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم)[3].

وفي اعتقاد إمامتهم يعقد الآجري بابًا فيقول: «باب الحث علىٰ التمسك بكتاب الله **عز وجل**، وسنة رسوله ﷺ، وسنة أصحابه **رضي الله عنهم**، وترك البدع، وترك النظر والجدال فيما

(١) منزلة الصحابة في القرآن/ ٤٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم١/ ٥٣٦.
(٣) صحيح البخاري رقم(٢٦٥١)، ٥٢-كتاب الشهادات، ٩- باب لا يشهد علىٰ شهادة جور إذا أشهد. وصحيح مسلم رقم(٢٥٣٣)، ٤٤- كتاب فضائل الصحابة، ٥٢- باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم.

يخالف فيه الكتاب والسنة، وقول الصحابة رضي الله عنهم»[1].

الثانية: اتباعهم بإحسان:

فقد أثنىٰ الله عز وجل علىٰ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعلىٰ كل من اتبعهم بإحسان، فجعل اتباعهم بإحسان سبيلاً إلىٰ مرضاته، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة:١٠٠].

وتوعد بالنار وسوء المصير من اتبع سبيلاً غير سبيلهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء:١١٥].

الثالثة: الثناء والترضي عليهم والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر:١٠].

الرابعة: عدم اعتقاد العصمة لأحد منهم:

فلا عصمة لأحد بعد الرسول ﷺ، وذلك لا يقدح في إمامتهم، والشهادة لهم بحقيقة الإيمان[2].

وأود أن أنبه هنا إلىٰ أننا ينبغي أن نقف من الصحابة موقف الاعتدال، فبعض الناس يتوقع عصمتهم من الخطأ، فلا يقبل فكرة أن الصحابة قد يذنبون، وهذا خطأ، وفريق آخر يتلمس أخطاءهم، ويبرزها، ويضخمها، والمنهج الحق، أنهم - مع ما لهم من مكانة قد سبق بيانها - بشر، غير معصومين، قد يقعون في الخطأ، ولكنهم لا يصرون عليه، بل يبادرون للتوبة منه.

وسنورد بعض النصوص حول واجبنا نحوهم:

(١) الشريعة/ ١٧٠ .
(٢) منزلة الصحابة في القرآن/ ٤٨-٤٩.

قال ﷺ:(لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)[1].

وعن أنس **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله ﷺ: (حب الأنصار آية الإيمان، وبغضهم آية النفاق)[2].

وقال رسول الله ﷺ: (لا يُبغض الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر)[3].

قال أبوزرعة: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وإنما أدّىٰ إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولىٰ، وهم زنادقة»[4].

وقال المزني: «ويقال: بفضل خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق **رضي الله عنه**، فهو أفضل الخلق وأخيرهم بعد النبي ﷺ، ونثني بعده بالفاروق، وهو عمر بن الخطاب **رضي الله عنه**، فهما وزيرا رسول الله ﷺ وضجيعاه في قبره، ونثلث بذي النورين عثمان ابن عفان **رضي الله عنه**، ثم بذي الفضل والتقىٰ علي بن أبي طالب **رضي الله عنهم** أجمعين، ثم الباقين من العشرة الذين أوجب لهم رسول الله ﷺ الجنة، ونخلص لكل رجل منهم من المحبة بقدر الذي أوجب لهم رسول الله ﷺ من التفضيل، ثم لسائر أصحابه من بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، ويقال بفضلهم، ويذكرون بمحاسن أفعالهم، ونمسك عن الخوض فيما شجر بينهم، فهم خيار أهل الأرض بعد نبيهم، ارتضاهم الله عز وجل لنبيه، وخلقهم أنصارًا لدينه، فهم أئمة الدين، وأعلام المسلمين،

(١) صحيح البخاري رقم(٣٦٧٣)٦٢-كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ٥- باب قول النبي ﷺ: (لوكنت متخذًا خليلاً) وصحيح مسلم رقم(٢٥٤٠)٤٤- كتاب فضائل الصحابة، ٥٤- باب تحريم سب الصحابة.

(٢) صحيح مسلم رقم(١٢٨) ١- كتاب الإيمان، ٣٣- باب الدليل علىٰ أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق.

(٣) صحيح مسلم رقم(١٣٠)، ١- كتاب الإيمان، ٣٣- باب الدليل علىٰ أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق.

(٤) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي١/ ١٨٨.

رضي الله عنهم أجمعين»[1].

وقال ابن بطة تحت عنوان فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ: «وَيُشْهَدُ لِجَمِيعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِالْجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ مِن اللهِ، وَيَسْتَقِرُّ عِلْمُكَ، وَتُوْقِنُ بِقَلْبِكَ، أَنَّ رَجُلاً رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَشَاهَدَهُ وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَفْضَلُ مِمَّنْ لَمْ يَرَهُ وَلَمْ يُشَاهِدْهُ وَلَوْ أَتَىٰ بِأَعْمَالِ الْجَنَّةِ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ اَلتَّرَحُّم عَلَىٰ جَمِيعِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ وَأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَذِكْرُ مَحَاسِنِهِمْ وَنَشْرُ فَضَائِلِهِم، وَالِاقْتِدَاءُ بِهَدْيِهِم وَالِاقْتِفَاءُ لِآثَارِهِم، وَأَنَّ اَلْحَقَّ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ وَالصَّوَابَ فِيمَا فَعَلُوهُ»[2].

وقال الطحاوي تحت عنوان: حب أصحاب النبي ﷺ: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديمًا علىٰ جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون. وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة علىٰ ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق وهم: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبوعبيدة بن الجراح وهوأمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق»[3].

وقال الخطيب البغدادي:« عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن

(١) إسماعيل بن يحيىٰ المزني، ورسالته شرح السنة، / ٨٦-٨٧.
(٢) الشرح والإبانة / ٢٩٠- ٢٩٢.
(٣) العقيدة الطحاوية٢٩-٣٠.

طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن »، ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، ثم قال: « وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فهو على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك ورفع أقدارهم عنده، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه، لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.

هذا مذهب كافة العلماء ومن يعتد بقوله من الفقهاء...»[1].

فهذه بعض النصوص الواردة في واجب المسلمين نحو صحابة الرسول ﷺ ورضي الله عنهم.

الخاتمة

بعد هذا التطواف السريع مع الصحابة في القرآن الكريم، نجد أن خير وصف لهم ما وصفهم الله تعالى به، وما وصفهم به رسوله ﷺ، فهم خير أمة، وخير القرون، اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيه فآزروه ووقروه وعظموه، وقدموا أنفسهم وأموالهم فداء لهذا الدين العظيم، ربوا على نور الوحي، نقلهم من ظلمة الجاهلية إلى نور الحق، وتدرج بهم وترفق، فكان يأخذ بأيديهم كلما تعثروا، يخاطبهم بأفضل النعوت، حتى كمل الدين، فحملوه للعالمين، ونشروه في الآفاق، حتى وصل إلينا، فوجب علينا أن نعرف قدرهم، وأن ننشر ذكرهم.

(١) الكفاية في علم الرواية ١/ ١٨٠-١٨٧.

الطفولة موطن الفطرة – الجزء الثاني

د. فريد هادي

المبحث الخامس

القرآن الكريم والسنة المطهرة والقيم الإنسانية المشتركة

لقد أولىٰ الإسلام جانب الأخلاق والسلوك اهتماماً بالغاً لما للأخلاق من دور بارز في حياة المجتمعات، فإن « أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة»[1].

لوتصورنا مجتمعاً من المجتمعات البشرية انعدم فيه خلقا الصدق والأمانة، كيف يكون وضع هذا المجتمع في شتىٰ قطاعاته، الراعي يكذب علىٰ رعيته، ويخون الأمانة الموكلة إليه، فينهب أموال وخيرات شعبه، دون أن تتحرك فيه شعرة واحدة رفضاً لهذا المسلك المشين. والعالم لا يشعر بأدنىٰ حرج من أن يعرض علىٰ الناس ما يسميها نتائج علمية، وهومتيقن في قرارة نفسه أن الحق خلاف ذلك. ورجل الإعلام لا يتردد لحظة في تزوير الأخبار والكذب علىٰ الناس فيما يقوله لهم وينقله إليهم من أخبار غير صادقة. الأديب والروائي يسخر من عقول الناس ويضحك علىٰ مشاعرهم بحبك القصص المشوّقة التي تنمّي فيهم الخيانة والكذب. المدرّس يخون أمانة التعليم وتربية الناشئة بالتقصير في أداء الواجب حيناً، وبالكذب علىٰ طلابه حيناً آخر. المرأة تخون زوجها في فراشه تلبية لرغبة وشهوة ترىٰ من الخير لها إشباعها مع غير زوجها بدل الوفاء له والحفاظ علىٰ شرفه، وكذلك الزوج لا يرىٰ في خيانة زوجته بأساً، وفي هذه البيئة الموبوءة تتربىٰ الأجيال علىٰ الخيانة والكذب.

فهل هذا المجتمع يستطيع أن يعيش عيشة هنيئة سعيدة تتكاثف فيه جهود الأفراد بثقة وإخلاص وحب للرقي بمجتمعهم ؟ لا يقول بذلك عاقل.

وبالمقابل لونظرنا إلىٰ الإسلام لرأيناه مربّياً أفراده منذ الطفولة علىٰ الوفاء والصّدق ليكونوا عناصر ضامنة للمجتمع. يربي أفراده علىٰ

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٣٩.

الوفاء بما استرعاهم الله تعالىٰ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرّجل راع في أهله وهومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته»، قال: وحسبت أن قد قال: «والرجل راع في مال أبيه وهومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»[(١)]. ويربيهم علىٰ الصدق والعفة في كل شيء، قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله العافية، فإن الناس لم يعطوا في الدنيا بعد اليقين شيئًا أفضل من المعافاة، ألا وعليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النار، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله»[(٢)]. وعنه ﷺ قال: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[(٣)].

لذلك لم يترك الإسلام قيمة من القيم الإنسانية الحميدة المشتركة إلا دعا إليه، فدعا إلىٰ الكرم والحلم والحياء والصبر والعفووالرحمة والوفاء بالعهد والصدق والأمانة والتواضع والشجاعة والعفة والعدل والإيثار، ولم يترك خلقًا سيئًا إلا ونهىٰ عنه، فنهىٰ عن الظلم والعدوان، والكبر والخيلاء، والبخل والغضب والكذب والحسد والسخرية والعهر والجبن والغيبة والنميمة والخيانة وسوء الظن والفحش والغرور.

جاء الإسلام « ليحسن الحسن، ويقبح القبيح، فلم يأت ليربت علىٰ شهوات الخلق ولذائذهم، ويساير فسادهم، ولم يأت بما يعارض ما فيه الخير والنفع من أخلاقهم، فالله جل جلاله ما رغّب إلاّ في الخير، وما نهىٰ عباده إلا عن الشر، ولن تجد خلقًا حميداً ذمه الشرع، أوخلقًا فاسداً رغّب الناس فيه»[(٤)].

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٥ / ٣٨.

(٢) مسند أبي يعلىٰ الموصلي، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنىٰ التميمي (٢١٠ - ٣٠٧ هـ) ١ / ١١٢ رقم ١٢١، وقال المحقق: إسناده صحيح. تحقيق وتخريج حسين سليم أسد. الطبعة الأولىٰ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. دار المأمون للتراث.

(٣) مسند الشهاب للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت٤٥٤ هـ) ١ / ١٨٦ رقم ٢٧٥، قال المحقق: وهوحديث صحيح. تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي. الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م مؤسسة الرسالة.

(٤) دعوة الفطرة، تأليف الدكتور يوسف محي الدين أبوهلالة، ص ١٥٥، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨ هـ - دار العاصمة - الرياض.

ولو تتبعنا نصوص الشرع في ذلك لطال الأمر علينا، فنكتفي بذكر نماذج من الأخلاق والقيم الإنسانية الكريمة المشتركة، التي جاءت النصوص إقراراً لها وتثبيتاً لجذورها في النفوس والمجتمعات:

١-العفة والستر:

قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ[1] ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ[2] عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (سورة النور: ٣٠-٣١).

٢-الأمانة:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (سورة النساء: ٥٨)، الأمانة في كل شيء، حتىٰ ما يسمعه من كلام، فهي أمانة، ففي الحديث عنه ﷺ: «إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»[3].

٣-الوفاء:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٧)، آية تحرّك نوازع الخير بين الزوجين المنفصلين، تحرّك الآية في ذهن الطرفين الذكريات الجميلة والفضل الذي كان بينهما، وتوجههما إلىٰ استحضار هذه الذكريات الإيجابية الجميلة

(١) الحفظ بعدم الوقوع في حرام كالزنىٰ أوعدم ستره عن أعين الناس. وانظر التفصيل في هذا أضواء البيان ٦ / ١٨٦.
(٢) أصل الخمر: ستر الشيء، ويقال لما يستر به خمار، لكن الخمار صار في التعارف اسما لما تغطي به المرأة رأسها، وجمعه خمر. المفردات ص ١٥٩.
(٣) صحيح سنن الترمذي للشيخ ناصر الدين الألباني ٢ / ١٨٦ رقم ١٥٩٧، وقال: حسن.

بينهما في لحظة إقدامهما على الفراق الذي غالباً يكون في وقت عدم الرضا واستحضار الذهن أسوأ ما كان بينهما.

٤- العفو:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٩)، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩) ما أجمل النّفس القادرة على الصفح والعفو، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّ لي خادماً يسيء ويظلم، أفأضربه؟ قال: «تعفو عنه كل يوم سبعين مرة»[(١)].

٥- التواضع:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣)، وعنه ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(٢)].

كذلك من منهجية الإسلام تبنيه الصريح لمحاربة الأخلاق السيئة وتصويرها في كثير من الأحيان بصور تكرهها النفس، وما سلك الإسلام هذا الأسلوب إلا لدفع النفوس للتخلص منها والابتعاد عنها:

٦- التكبر:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ[(٣)] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (سورة لقمان: ١٨-١٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ (سورة الإسراء: ٣٧).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٨ / ٢٨ رقم ٥٦٣٥ ، قال : أحمد شاكر : إسناده صحيح. وانظر: تعليق الشيخ أحمد شاكر على الحديث ص ٣٠.

(٢) صحيح سنن الترمذي ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٢ م ١٩٩ رقم ١٦٥٢، وقال: صحيح.

(٣) الصعر: ميل في العنق ، والتصعير إمالته عن النظر كبرا. المفردات ص ٢٨١.

٧- الغيبة :

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الحجرات: ١٢)، وعنه ﷺ قال: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب له يوم القيامة فيقال له: كله ميتا كما أكلته حيا، فيأكله ويكلح[١]، ويصيح»[٢]. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال: كنا مع رسول الله ﷺ وارتفعت ريح خبيثة منتنة فقال: «أتدرون ما هذه ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»[٣].

٧- السخرية والاستهزاء :

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (سورة الحجرات: ١١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أربىٰ الربا الاستطالة في عرض مسلم بغير حق، وإن هذه الرحم شجنة[٤] من الرحمن، فمن قطعها حرم الله عليه الجنة»[٥].

وجعل سبحانه وتعالىٰ مقياس الصلاح والفساد في فترات الرسل عليهم الصلاة والسلام، أي فترات انقطاع الوحي عن أمة من الأمم، القيم الإنسانية المشتركة، جعلها سبحانه هي الميزان لأهل الفترة، وعلىٰ ضوئه يكون حسابهم.

إنّ هذه القيم الإنسانية، متىٰ ما تمثلها الإنسان سلوكًا صادقًا نابعًا من أعماق قلبه، أصابت عرفها ورحيقها القريب والبعيد، حتىٰ العجماوات من الحيوانات.

(١) الكلوح : العبوس ، يقال : كلح الرجل ، وأكلحه الهم. النهاية ٤/ ١٩٦.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٢/ ٢٦١ عزاه لأبي يعلىٰ ، وقال ابن حجر : سنده حسن.
(٣) الأدب المفرد ، للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (١٩٤- ٢٥٦ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٨٩ ، رقم الحديث ٧٣٢ ، نشر المكتبة الأثرية – باكستان. قال المحقق : ليس في شيء من الكتب الستة، وحسن سنده شيخ الإسلام ابن حجر في الفتح ٢٢ / ٢٦١.
(٤) أي : قرابة مشتبكة كاشتباك العروق ، شبهه بذلك مجازا واتساعا. وأصل الشجنة بالكسر والضم : شعبة في غصن من غصون الشجرة. النهاية ٢/ ٤٤٧.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/ ١١٨ رقم ١٦٥١ ، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

٨- البر والإحسان :

كالبر والإحسان إلىٰ الوالدين وهما أقرب الناس للمرء، أحسنا إليه، واعتنيا به حتىٰ كبر واستطاع أن يعتمد علىٰ نفسه، لذلك حثت النصوص بالبر والإحسان إليهما ورحمتهما، وقرنت ذلك بتوحيده وعبادته سبحانه ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (سورة الإسراء ٢٣-٢٤). هذا في حال كونهما مسلمين مؤمنين، أما إذا كانا علىٰ غير دين الإسلام، فإن النصوص كذلك تحث علىٰ الإحسان إليهما، ففضلهما باق، لذلك يقول تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة لقمان: ١٤-١٥). ويبقىٰ هذا الخلق الرفيع مع الوالدين حتىٰ لوكانا علىٰ غير دين الإسلام، بل حتىٰ لوكان الوالد رأس النفاق وأشد أعداء الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: م«ر رسول الله ﷺ بعبد الله بن أبيّ[١] وهوفي ظل أطم[٢]، فقال: غبر علينا ابن أبي كبشة، فقال ابنه عبد الله بن عبدالله[٣] بن أبيّ: يا رسول الله، والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه، فقال: لا، ولكن برّ أباك، وأحسن صحبته»[٤].

والأقارب وذوي الرحم، وهم أقرب الناس بعد الوالدين، قد جاءت نصوص كثيرة في

(١) زعيم المنافقين، مات سنة تسع، فألبسه النبي ﷺ قميصه، وصلىٰ عليه، واستغفر له، إكراما لولده، حتىٰ نزلت: (ولا تصل علىٰ أحد منهم مات أبدا ولا تقم علىٰ قبره).التوبة ٨٩. وقد كان رئيسا مطاعا، عزم أهل المدينة - قبل أن يهاجر النبي ﷺ - علىٰ أن يملكوه عليهم، فانحل أمره. انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٢٢ رقم ٦٥، تحت ترجمة ابنه.

(٢) الأطم بالضم: بناء مرتفع، وجمعه آطام. النهاية ١/ ٥٤.

(٣) هوابن عبد الله بن أبي بن سلول، وكانت سلول امرأة من خزاعة، كان اسمه الحباب - بضم المهملة والموحدتين - وبه يكنىٰ أبوه، فسماه النبي ﷺ عبد الله. شهد بدرا وأحدا والمشاهد، واستأذن رسول الله ﷺ في قتل أبيه، فقال: بل أحسن صحبته، استشهد باليمامة في قتال الردة سنة اثنتي عشرة. انظر: الإصابة ٤ / ١٥٥ رقم ٤٧٨٧.

(٤) رواه البزار، ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ٩/ ٣٢١.

الرحمة بهم والإحسان إليهم، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»[١]. أي: إن « الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها، والقاطع لها قاطع من رحمة الله تعالىٰ»[٢]. وعنه ﷺ قال: « إن الله يوصيكم بأمهاتكم (ثلاثا). إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب»[٣].

وقد بلغ من حث الإسلام علىٰ الإحسان إلىٰ الجار درجة عظمىٰ، حتىٰ قال عليه الصلاة والسلام: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه»[٤]. فالوصية بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان أوغير مسلم،[٥] لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (سورة النساء: ٣٦). حيث قال بعض أهل العلم في الجار الجنب إنّه الذي ليس بينك وبينه قرابة[٦]، وقال آخرون: «هوالجار المشرك»[٧]. لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يحسنون إلىٰ جيرانهم حتىٰ لوكانوا كفاراً، فقد روي أن عبد الله بن عمروذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه»[٨].

في منهج الإسلام ليس الخلق بلباس يلبس ثم يخلع ، بل طهارة النفس ونقاء الباطن الذي منه يصدر السلوك الحسن الممثل للخلق الحسن، وهذا ملازم للمسلم في كل حين ومع كل الناس ، لذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى

(١) صحيح البخاري ، طبعة دار الدعوة – تركيا ٧/ ٧٣.
(٢) فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، تأليف فضل الله الجيلاني ، تخريج محب الدين الخطيب ١/ ١٣٨ ، الطبعة الثالثة ، المكتبة السلفية – القاهرة. وقال في معنىٰ الشجنة: «وأصله عروق الشجرة المشبكة».
(٣) صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٢٩٥ رقم ٢٩٥٤ ، وقال الشيخ الألباني : صحيح.
(٤) الأدب المفرد ، مع شرح فضل الله الصمد ١/ ١٨٩ رقم ١٠١. قال الشيخ محب الدين الخطيب : أخرجه الشيخان وأبوداود في الأطعمة.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ١٢٠.
(٦) تفسير الطبري ٨/ ٣٣٨.
(٧) تفسير الطبري ٨/ ٣٣٩.
(٨) صحيح سنن الترمذي ٢ / ١٨٣ رقم ١٥٨٥ ، وقال الشيخ الألباني : صحيح.

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (سورة النساء: ٣٦).

فأثر تمثل القيم الإنسانية المشتركة يتعدىٰ إلىٰ سائر الناس، يقول عليه الصلاة والسلام: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[١]، هكذا مطلقاً مع سائر الناس. بل حتىٰ مع المحاربين لا تغيب هذه الآثار الراقية ويبقىٰ سموالخلق الإسلامي منعماً بالخير للجميع، لذلك نهىٰ ﷺ عن قتل النساء والصبيان، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهىٰ رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٢]، رحمة بهم وإحساناً.

وشملت هذه الآثار حتىٰ العجماوات من البهائم والحيوانات، فقد بين عليه الصلاة والسلام أن الإحسان لكل صاحب روح وحياة فيه أجر، فقال: « في الكبد الحارة أجر»[٣]. بل شملت الرحمة الحيوانات حتىٰ عند إرادة قتلها للأكل، فقال عليه الصلاة والسلام: « إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»[٤]. وأدّب الإسلام أفراده وعلّمهم أن لا يحد أحدهم السكين بحضرة الذبيحة ، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرىٰ ولا يجرها إلىٰ مذبحها[٥].

المبحث السادس

غاية الشعائر التعبدية

اعتبارات النجاة والخسران في ميزان الله:

عندما يضع المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ميزاناً بقوله: «الرّاحمون يرحمهم الرّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء...»[٦]، هذه الرحمة التي عمّها لكل

(١) صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ٢/ ٢١١ رقم ٤٦٥. قال المحقق : إسناده صحيح علىٰ شرط البخاري.
(٢) صحيح الإمام البخاري مع الفتح ١٢/ ١١٥.
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٢/ ٧٨٢ رقم ٤٢٥٤ ، وقال الشيخ : صحيح .
(٤) صحيح الإمام مسلم مع شرح النووي ١٣/ ١٠٦.
(٥) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ١٠٧.
(٦) صحيح سنن الترمذي للألباني ٢/ ١٨٠ رقم ١٥٦٩.

من علىٰ الأرض، وعندما يخص مرحلتين عمريتين بالذكر، ويشير إلىٰ الرحمة ومعرفة المنزلة، بل يفقد مخالف هذه القيم هوية الانتماء للأمة، أليس في ذلك تنويه ربّانيّ: «ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف شرف كبيرنا»[١].

إنّها ديانة تحصر هويتها فيمن سلم الناس من أذاهم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...»[٢] وعندما يقول عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخوالمسلم لا يخونه ولايكذبه، ولا يخذله، كلّ المسلم علىٰ المسلم حرام: عرضه وماله ودمه. التقوىٰ ههنا. بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم»[٣]، أيّ سقف يضع لعلاقات الناس فيما بينهم، بل قل أيّ طهر يتمثله من يتبعه ويتبع تعاليمه!

بل تضع هذه الرسالة الخاتمة، علىٰ لسان نبيّ الرّحمة ميزاناً للنجاة الأخروي لعل الإنسانية لم تعهدها، لتبيّن طبيعة الميزان الرّبانيّ، وطبيعة وزن الأعمال عند الحكم العدل، ميزان الله تعالىٰ عندما يزن السوأة الآتية من بائعة هوىٰ ببيعها طهرها مقابل وزن ما في قلبها من رحمة علىٰ حيوان أعجميّ يترجح كفة رحمتها فتمحىٰ خطاياها وتستحق رحمة الله والفوز فقد ورد في الصحيح مرفوعاً عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «غفر لامرأة مومسة مرّت بكلب علىٰ رأس ركي[٤] يلهث، قال: كاد أن يقتله العطش، فنزعت خفّها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك»، وفي الحديث النبوي الشريف كما في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «دخلت امرأة النار في هرّة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا جعلتها تأكل من خشاش الأرض».

إنّ الانتباه إلىٰ هذه القيم وآثارها في ميزان العبد أحوج ما نكون إليه، لتصلح أعمالنا وتطهر قلوبنا، وتثمر عباداتنا، فما أخطر الحديث الذي يرويه سيّدنا أبوهريرة رضي الله عنه وفيه: «قال

(١) نفسه ٢/ ١٧٩ رقم ١٥٦٦.
(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني ٢/ ٤٧١ رقم ٢١٦٨.
(٣) نفسه رقم١٥٧٢.
(٤) البئر سواء طويت أولم تطو.

رجل: يا رسول الله، إنّ فلانة تُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار» قال: يا رسول الله، فإن فلانة تُذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصّدّق بالأثوار من الأقط[1]، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في الجنة»[2]. فهل من دلالة أبلغ من قيمة السلوك والأخلاق والقيم الإنسانية المشتركة في ميزان الله.

الثمار المرجوة من الشعائر التعبدية:

إنّ من سموّ هذه الرسالة أنّها ليست رهبانية، ولم تدع إلىٰ انعزال عن الحياة ومكابدة مجرياتها، بل اعتبرت الحياة المحراب الأول للوصول إلىٰ الله، لذا كان من خيرية هذا الدّين أن لعباداته ثماراً سلوكية خيّرة، تعود بالنفع والصّلاح العام علىٰ المجتمع، بل إن هذه الثمار تكون دليلاً صادقاً علىٰ صحة العبادة، والعكس صحيح، وهوما نبّه عليه المولىٰ عز وجل في قوله: ﴿ اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(سورة العنكبوت: ٤٥). ولذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعدا»[3].

والصلاة التي تولّد هذه الآثار الطيبة إنّما هي الصّلاة الخاشعة، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ١-٢). فبالخشوع وحضور القلب يقف المصلي علىٰ معان لطيفة يفهمها من الآيات لم يكن قد انتبه إليها من قبل، فتنهاه الآيات عن الفحشاء والمنكر لا محالة[4]، لذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «سينهاه ما يقول»[5].

(١) الأثوار : جمع ثور ، وهي قطعة من الأقط ، وهولبن جامد مستحجر. النهاية في غريب الحديث ١ / ٢٢٨.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٨ / ٢٠٠ رقم ٩٦٧٣ ، قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح.
(٣) رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح. قاله في مجمع الزوائد ٢ / ٢٦١.
(٤) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ١ / ١٦١.
(٥) مسند الإمام أحمد ١٩ / ٣١ رقم ٩٧٧٧ ، قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح.
١١٥ أصل (الهلع) : الجزع ، و(الهالع) ههنا ذوالهلع ، ويقال إن الشح أشد من البخل. ومعناه البخل الذي يمنعه من إخراج الحق

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «شرّ ما في الإنسان شحٌّ هالع[١]، وجبن خالع»[٢]. (سورة المعراج: ١٩-٢٥). وبيّن تعالىٰ أن العبادة من صلاة ونفقة وبذل مال تنقي الإنسان من هذه الأخلاق الذميمة: «إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين. الذين هم علىٰ صلاتهم دائمون. والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» إلىٰ آخر الآيات التي تدل دلالة واضحة علىٰ أثر الاستقامة والعبادة.

ولدلالة هذه الآثار السلوكية علىٰ صدق وصحة العبادة ، نبه الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنّة فإذا كان أحدكم صائمًا، فلا يرفث[٣] ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أوشاتمه فليقل: إنّي صائم، إني صائم»[٤].

وكما أنّ الصوم جنة لصاحبه، ومانع من الآثام وقبيح الكلام والجهل والمشاجرة، كذلك حافظ للإنسان من دواعي الإغواء والشهوة، من غض البصر، وحفظ للفرج، فعن علقمة [٥] قال: «بينا أنا أمشي مع عبد الله رضي الله عنه فقال: كنا مع النبي ﷺ فقال: من استطاع الباءة[٦] فليتزوج فإنه أغضّ للبصر،

الواجب عليه ، فإذا استخرج منه هلع وجزع منه ، و(الجبن الخالع) : هوالشديد الذي يخلع فؤاده من شدته. معالم السنن للإمام الخطابي ، شرح سنن أبي داود ٣ / ٢٧ بتصرف بسيط.

١١٦ سنن أبي داود ٣ / ٢٦ رقم ٢٥١١.

١١٧ سورة المعارج ، آية ١٩ – ٢٥.

١١٨ الرفث : قبيح الكلام والجهل ضد العلم والحلم. انظر: المنتقىٰ شرح موطأ الإمام مالك ، تأليف القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي الأندلسي (ت ٤٩٤) ٢ / ٧٣ طبعة دار الفكر العربي.

(١) ١١٩ موطأ الإمام مالك بن أنس ، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١ / ٣١٠ رقم ٥٧ ، طبعة دار الدعوة – تركيا.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥) علقمة بن قيس بن مالك النخعي الكوفي ، فقيه الكوفة وعالمها ومقرؤها ، وخال فقيه العراق إبراهيم النخعي، ولد في أيام البعثة النبوية ، وعداده في المخضرمين ، هاجر في طلب العلم والجهاد ، ونزل الكوفة ولازم ابن مسعود. وقيل مات سنة إحدىٰ وستين. وقيل مات سنة إثنتين وستين. وقيل سنة خمس وستين. انظر : سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٣ رقم ١٤. ومنه يكون عبد الله المذكور في الرواية هو: ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) هومثل الباعة ، وسمي النكاح باءة لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن منه كما يتبوأ من داره... « وتقديره : من استطاع منكم الجماع لقدرته علىٰ مؤن النكاح فليتزوج ، ومن لم يستطع النكاح لعجزه عن مؤنه فعليه بالصوم «. انظر : شرح الكرماني لصحيح

وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1]»[2].

ولخطورة الآثار السلوكية ودلالتها على صحة العبادة قال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[3]، وقال تعالىٰ عن الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سورة البقرة: ١٩٧).

فمراعاة تقوىٰ الله في العبادة، والابتعاد في الحج عن النكاح ودواعيه من التعريض به وفحش الكلام، والفسق من المعاصي والسيئات، والجدال والخصام مع عموم الناس دليل علىٰ قبول العبادة ووقوعها في محلها الصحيح، وفي المقابل أيضا فسوء الخلق، وجلب الأذىٰ للناس دليل علىٰ أن العبادة لم تكن صحيحة، ولم تقع موقع القبول منه سبحانه وتعالىٰ، وهومصداق الحديث الذي فيه: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار» قال: يا رسول الله، فإن فلانة تذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: « هي في الجنة[4].

المبحث السابع:

دور الرسول العملي في غرس وتثبيت القيم الإنسانية المشتركة، ورعاية الطفولة، تواصله صلىٰ الله عليه وآله مع الأطفال تربية لهم:

من يتأمل سيرته صلوات الله وسلامه عليه، يجده قريباً من الأطفال، يحبهم ويحبونه،

البخاري٩/ ٨٨.

(١) بكسر الواوبالمد : رض الخصيتين ، وقيل : هورض العروق ، والخصيتان بحالهما ، والمراد أن الصوم يقطع الشهوة كما يفعله الوجاء. شرح الكرماني لصحيح البخاري ٩ / ٨٩.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٨ / ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق ٢٢ / ٢٦٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ١٨ / ٢٠٠ رقم ٩٦٧٣ ، قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح.

يربيهم بالقدوة والسلوك تارة، وتارة أخرىٰ بالتوجيه المباشر، ففي موقفه مع ابن عباس رضي الله عنهما، فيه توجيه تربوي مباشر، يقول ابن عبّاس رضي الله عنهما: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لواجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلاّ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

إنّ الإرشاد إلىٰ أهمية تربية وتعويد الأطفال الأخلاق الحسنة واضحة جليّة في أقواله صلوات الله عليه وفي مسلكه مع الأطفال. فقد ورد في تأديبه الأطفال علىٰ مكارم الأخلاق، عن عمر بن أبي سلمة قال: « كنت غلاماً في حجر النبيّ صلىٰ الله عليه وآله وسلّم، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال: «يا غلام سمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك»[2].

ودعوته صلىٰ الله عليه وآله وسلّم إلىٰ العناية باليتيم، ليس إلاّ دعوة لرعاية الطفولة لأنه لا يتم بعد البلوغ، فحديثه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين،» وأشار بإصبعيه يعني: السبابة والوسطىٰ»،[3] متوجه للطفل.

إنّ إشباع العاطفة، والقبلة التي تولد الاستقرار النفسي، لحاجة الإنسان عموماً بأن يكون محبوباً مقبولاً، والطفل علىٰ الخصوص، فربّما غفل عنه الكثيرون، وفي ذلك يروي سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه فيقول: «قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنّ لي عشرةً من الولدِ ما قبلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ : ثم قال: « من لا يَرحم لا يُرحم»[4]، فقبلة الطفل دليل رحمة القلب، وهي جالبة لرحمة الله بالشخص.

(١) صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٠٨ رقم٢٠٤٣.
(٢) صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٢/ ٢٢٥ رقم ٢٦٤٤.
(٣) صحيح سنن الترمذي للألباني ٢/ ١٧٩ رقم ١٥٦٤.
(٤) صحيح البخاري (كتاب الأدب ـ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته).

وكذلك وجّه النبي ﷺ بالفعل اللطيف اليسير، وهذا ما فعله مع الفضل بن العباس رضي الله عنهما عندما كان رديف رسول الله ﷺ في الحج فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه وجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلىٰ الشق الآخر. [متفق عليه].

إنّ الصّدق عنوان الطّهر، وقوة الفرد والمجتمع، كما الكذب عنوان الخراب ودمار الأنفس والمجتمعات، كان عليه الصلاة والسلام يؤصّله في المجتمع كلّ المجتمع: «إيّاكم والكذب، فإنّ الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلىٰ النّار، وإنّ الرجل ليكذب ويتحرّىٰ الكذب حتّىٰ يكتب عند الله كذّابًا، وعليكم بالصّدق، فإنّ الصّدق يهدي إلىٰ البرّ، وإنّ البرّ يهدي إلىٰ الجنّة، وإنّ الرجل ليصدق ويتحرّىٰ الصّدق حتىٰ يكتب عند الله صدّيقًا»[1]، وكان حرصه علىٰ حماية الطّفولة في هذا الجانب من أخطاء الكبار التي تؤصّل للخطأ والانحراف أحيانًا دون قصد ووعي، وفي ذلك يقول عبدالله بن عامر قصّته عندما كان طفلا صغيرا، فيقول: «دعتني أمّي يومًا ورسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلّم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أُعْطِك، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلّم: « وما أردت أن تعطيه ؟» قالت: أعطيه تمراً، فقال لها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: « أما إنّك لولم تعطيه شيئًا كتبت عليك كذبة»[2].

وكان يتعاهد الأطفال ويمازحهم ويحبب إليهم كل قيمة راقية، فمن ملاطفته للأطفال موقف يحكيه أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدمه عشر سنوات، يقول: كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يخالطنا حتىٰ يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النغير؟»[3]، النغير أي طير صغير كان يلعب معه، وكان يضع سبطيه رضي الله عنهما وأسامة حبّه ابن حبّه علىٰ فخذه ويقبلهم مظهراً هذه العاطفة الضرورية للأجيال التي بدأت لا تسمع

(١) صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٤٢ رقم ٤١٧٤.
(٢) صحيح سنن الترمذي ٣/ ٩٤٢ رقم ٤١٧٦..
(٣) صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٢/ ٣٠٤ رقم ٢٩٩٧.

إلاّ صوت الرصاص، ولا تفهم إلاّ العنف، ولا تشاهد حتىٰ في تسليتها إلا العدوان.

الخاتمة:

١- أهمية غرس القيم الإنسانية المشتركة في المجتمع، من خلال غرسها في الأجيال منذ الطفولة.

٢- سلوك الكبار المنحرف عن القيم الإنسانية المشتركة أكبر عائق لتأصيل هذه القيم في المجتمع.

٣- الحاجة إلىٰ قيام نخبة من أصحاب الفكر والقلم والمنبر، للتصدّي لما يحدث في مجتمعاتنا من عبث بهذه القيم، وضرورة تكثيف هذه الفعاليات، وبمشاركة من يندرجون تحت مرحلة الطفولة عمريّاً .

٤- جنايتنا في حق الطفولة كبيرة، فمجتمعاتنا تعيش التخلف القيمي في شتىٰ دوائرها ومستوياتها.

٥- كما أنوّه إلىٰ دور الرّسوم المتحرّكة في تثبيت القيم وزعزعتها في آن واحد، فعلىٰ أصحاب الفكر والمال التواصل، للفاعلية في هذا الميدان.

وصلىٰ الله علىٰ نبيّنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

❊ ❊ ❊ ❊

أقسام الوقف والابتداء ومصطلحاته

أعده/ د. محمد عبد الله الوائلي

أقسام الوقف والابتداء ومصطلحاته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ونبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن علماء الوقف والابتداء قد اختلفوا في أقسام الوقف والابتداء، والاختلاف كائن في العدد والمسمىٰ، وهذا الاختلاف يعود إلىٰ اصطلاح الإمام في هذا الفن. يقول الأشموني: «والناس في اصطلاح مراتبه مختلفون، كل واحد له اصطلاح، وذلك شائع لما اشتهر أنه لا مشاحة في الاصطلاح، بل يسوغ لكل أحد أن يصطلح علىٰ ما شاء»[(١)].

ثم إن بعض علماء الوقف والابتداء جعلوا لأقسام الوقف والابتداء مصطلحات (علامات) دالة علىٰ هذه الأقسام، واستخدمت بعض هذه العلامات في المصاحف القرآنية من القرن السادس الهجري وحتىٰ عصرنا الحاضر، وسوف أتحدث عن هذه الأقسام والمصطلحات في مطلبين:

المطلب الأول: أقسام الوقف والابتداء ومصطلحاته في كتب الوقف والابتداء

المطلب الثاني: علامات الوقف والابتداء في المصاحف القرآنية

المطلب الأول:
أقسام الوقف والابتداء ومصطلحاته في كتب الوقف والابتداء

- إنَّ من علماء الوقف والابتداء من قسم الوقف والابتداء إلىٰ قسمين:

١- تام ٢- قبيح[(٢)].

وقد يندرج ضمن الوقف التام هنا الوقوفات التامة المروية عن الإمام نافع المدني المقرئ (ت١٦٩هـ)، وأحمد بن موسىٰ اللؤلؤي (من علماء القرن الثاني الهجري)، والأخفش سعيد ابن مسعدة (ت٢١٥هـ)، ومحمد بن عيسىٰ الأصبهاني (ت٢٥٣هـ)، والقتبي عبد الله بن

(١) منار الهدىٰ: ص٨-٩.

(٢) ينظر: المكتفىٰ في الوقف والابتدا: ص١٣٨، جمال القراء: ٢/ ٥٦٣، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٥٠.

مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وأحمد بن جعفر الدِّينَوَرِي (ت٢٨٩هـ). فأخرج عنهم الإمامان النحاس والداني وقوفات كثيرة بمسمىٰ: (الوقف التمام)[١]. وفي الواقع تلك الوقوفات التامة المروية عنهم يندرج تحتها كل ما يحسن الوقف عليه كالتام والكافي.

- وقسمه أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري (ت٣٢٨هـ)، وأبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي (ت٤٥٤هـ)، إلىٰ ثلاثة أقسام.

قسم ابن الأنباري الوقف إلىٰ ثلاثة أقسام، لكنه قسمه أولاً إلىٰ: (تام، وكاف، وقبيح)، حيث يقول: «فينبغي للقارئ أن يعرف: الوقف التام، والوقف الكافي الذي ليس بتام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كاف»[٢]. ولكنه في التطبيق لم يستخدم هذا التقسيم. وتقسيمه هذا نقله عنه الداني، كما سيأتي.

ثم بعد ذلك قسمه إلىٰ: (تام، وحسن، وقبيح)، حيث يقول: «واعلم أن الوقف علىٰ ثلاثة أوجه: وقف تام، ووقف حسن ليس بتام، ووقف قبيح ليس بحسن ولا تام. فالوقف التام: هو الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده، ولا يكون بعده ما يتعلق به، كقول الله تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة: ٥]. فهذا وقف تام؛ لأنه يحسن أن تقف علىٰ: ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾، ويحسن الابتداء بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٦]. وكذلك: ﴿ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] وقف تام.

والوقف الحسن: هو الذي يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده، كقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[الفاتحة:٢]، الوقف علىٰ هذا حسن؛ لأنك إذا قلت: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ عُقِل عنك ما أردت، وليس بتام؛ لأنك إذا ابتدأت: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَبُح الابتداء بالمخفوض. وكذلك الوقف علىٰ:

(١) ينظر: القطع والائتناف: ص٧٧ و٩١ و١٠٦ و١١٧ و١٢٠، المكتفىٰ: ص١٦٢ و١٦٩-١٧١.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء: ١/ ١٠٨.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة:١] حسن، وليس بتام؛ لأنك تبتدئ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بالخفض.

والوقف القبيح: الذي ليس بتام ولا حسن، قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة:١] الوقف على: ﴿بِسْمِ﴾ قبيح؛ لأنه لا يُعلم إلى أي شيء أضفته. وكذلك الوقف على: ﴿مَٰلِكِ﴾ [الفاتحة:٤]، والابتداء: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قبيح. يقاس على هذا كل ما يرد مما يشاكله»[(١)]. وهذا التقسيم هو الذي استخدمه في التطبيق، والذي يظهر أنه يمكن الجمع بين هذين التقسيمين، وذلك أن ابن الأنباري لم يلتزم بما ذكره في تعريف الحسن، فإنه في التطبيق جعله مما يحسن الوقف عليه، ويحسن الابتداء بما بعده، فصار كالوقف الكافي عند الداني؛ فأكثر من (٩٠ ٪) مما حكم عليه ابن الأنباري بالوقف الحسن حكم عليه الإمام الداني بالوقف الكافي، بل تعليل ابن الأنباري للوقف يظهر مراده بالوقف الحسن في التطبيق، فيقول ابن الأنباري: «﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] وقف حسن، ثم تبتدئ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦]، فترفع: (الموتىٰ) بما عاد عليهم من الهاء»[(٢)].

ويقول: «﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٥] وقف حسن، ثم تبتدئ: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ بالرفع»[(٣)].

ويقول الداني: «وقال ابن الأنباري: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] حسن، يريد: كافيًا، وهو قول أبي حاتم»[(٤)].

وقد بين ذلك العماني، فقال: «وكان ابن الأنباري يعبر بالحسن عما وسمه أبو حاتم بالكافي، وإنما أراد مخالفته في العبارة، وعبارة أبي حاتم عندي أحسن وأليق بالمقصود؛ لأن أسماء الصفات يجب أن تقتضي موصوفاتها في العبارة... وما أظنه أراد إلا مخالفة أبي حاتم في

(١) إيضاح الوقف والابتداء: ١/ ١٤٩-١٥٠.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء: ٢/ ٦٣٢.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء: ٢/ ٦٩١.
(٤) المكتفىٰ: ص١٨٤.

العبارة فقط، ومقصوده بالحسن هو أن الوقف في درجة تقصر عن التمام، كقصد أبي حاتم بالكافي أنه درجة دون الدرجة العليا»[1].

إلا أن ابن الأنباري يستخدم مصطلح: (حسن غير تام)، أو (حسن وليس بتام)، أو (غير تام)، ويعلل بعده غالبًا، كأن يذكر بأن ما بعده نسق عليه، أو نعت، أو حال، أو مصدر، أو منصوب على الاستثناء، أو منصوب على التفسير، أو جواب الجزاء، أو خبر...إلخ[2]، وحينئذ يكون هذا المصطلح هو المتطابق لتعريفه للوقف الحسن، ولذلك فإن ما حكم عليه بهذا المصطلح وعلل بعده لم يقف عليه الداني غالبًا، والله أعلم.

- وأما تقسيم الوقف عند أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي (ت٤٥٤هـ)، فإنه على ثلاث مراتب؛ حسب ما يظهر من قوله، يقول الأندرابي (ت٤٧٠هـ) : «قال الشيخ الإمام أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين الرازي رحمه الله: في الوقف تمامه وحسنه وكافيه، أدبٌ يستعمله القارئ لمكان البيان والإفهام، وقد وردت السنة به، واستعماله يدل على معرفة الواقف»[3].

- وهناك أيضًا من قسم الوقف إلى ثلاثة أقسام، وجعل لها رموزًا، وهم: أحمد بن محمد بن أوس المقرئ (ت٣٣٤هـ، وقيل: بقي إلى حدود ٣٤٠هـ)، والحسن بن أحمد أبو العلاء الهمذاني العطار (ت٥٦٩هـ)، وموفق الدين أحمد بن يوسف الكواشي (ت٦٨٠هـ)، وهذه التقسيمات هي:

١- الوقف التام ٢- الوقف الكافي ٣-الوقف الحسن، إلا أن درجة الوقف الحسن عند الكواشي أعلى من درجة الوقف الكافي. فرمز ابن أوس والعطار للتام بـ(م)، وللكافي بـ(ك)، وللحسن بـ(ح). ورمز الكواشي للتام بـ(تا)، وللحسن بـ(حس)، وللكافي بـ(كا).

(١) المرشد: ١/ ١٤-١٥.
(٢) ينظر: الإيضاح في الوقف والابتداء: ١/ ٤٩١-٥٢٥، ٥٢٨، ٢/ ٥٦٦-٦٠٠، ٦١٨، ٩٣٣.
(٣) الإيضاح في القراءات: ص١٣٥.

فيقول ابن أوس: «فالوقف على ثلاثة أوجه: وقف حسن خفيف، ووقف كافي وهو يقرب من التمام، ووقف تام، وأنا مبين ذلك بعلامة في وسط الدارات إن شاء الله، فالحسن الخفيف علامته (الحاء)، والكافي علامته (الكاف)، والتام علامته (الميم)، والله المعين والموفق للصواب بمنه وقدرته. وإنما ذكرت (الخفيف) لئلا يطيل القارئ السكوت عليه، وأكثر ما يجيء ذلك في وسط الآي. و(الكافي) ذكرناه لأن ما يتلوه فيه ذكر ما قبله، ويكون ذلك على رأس الآي. و(التام) بين واضح على رأس الآي وتمام المعنى، وقد شرحته في موضعه. وفي الوقف الحسن ما يشبه التام، وقد بينته. فمن أحب أن لا يقف على الحسن ويقف على التام جاز له ذلك، وما كان شبه التام من الوقف الحسن والكافي فأحسنه أن يقف عليه»[1].

واعتمد أبو العلاء الهمذاني العطار عند تطبيقه للوقوف ثلاثة رموز، وهي: (م) للوقف التام، و(ك) للوقف الكافي، و(ح) للوقف الحسن. يقول محمد بن محمود السمرقندي الهمذاني (ت٧٨٠هـ): «»واعلم أن الشيخ الإمام أبا العلاء الهمذاني رحمة الله عليه وضع وقوف القرآن على ثلاث مراتب؛ أعلاها: تام، وعلامته: (م). ثم كاف، وعلامته: (ك). ثم حسن وعلامته: (ح)»[2].

ولعدم العثور على مقدمة كتاب العطار لم أعرف هل قسم الوقوف إلى أكثر من ذلك، ولكنه أيضاً استخدم في كتابه مصطلحات أخرى للوقف، منها: (جائز) في حدود (٨٠) موضعاً تقريباً[3]. وكذا: (صالح) في خمسة مواضع تقريباً[4]. وكذا: (مفهوم) في موضعين تقريباً[5]. وكذا: (وهو وقف سنة) في ثمانية مواضع[6].

(١) الوقف والابتداء لابن أوس (مخطوط): ص٤-٥.
(٢) نجوم البيان في الوقف وماءات القرآن: ص٩.
(٣) ينظر: الهادي في معرفة المقاطع والمبادي (مخطوط): ص١٢و٢٤ و٣٤ و٣٥ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٥١ و٥٤ و٦٦ و٧١ و٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٩. وهناك مواضع أخرى قال عنها: (جائز عند قوم) وعددها (١٩ موضعاً تقريباً). ينظر: ص١١ و ١٢ و٨٢ و٩١ و٩٥ و١٠٢ و١١٧ و١١٨ و١٣٧ و١٤٦ و ١٦٠.
(٤) ينظر: الهادي: ص ١٢ و٢١ و ٣٠ و ٣٥ و٣٧. وذكر موضعين آخرين قال عنهما: (صالح عند قوم). ينظر: ص١٣ و ٣٠.
(٥) ينظر: الهادي: ص٣٥ و٣٦.
(٦) ينظر: الهادي: ص ٦ و ٢٩ و ٤٥ و ٤٨ و ٥٦ و ٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦.

وقد استخدم عبارة: (ويتراقبان) أو (ويراقب ما قبله) في مواضع كثيرة من كتابه حدود ١٧٢ موضعاً تقريباً[١]. يقول: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] ك، ﴿بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٨١] ح، ويراقب ما قبله»[٢]. ويقول أيضاً: ﴿صَفْرَآءُ﴾ [البقرة: ٦٩] ح، على قول من ذهب إلىٰ أنها بمعنىٰ: (سوداء). ومن ذهب إلىٰ أنها بمعنىٰ: (الصفرة) وقف علىٰ: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، ويتراقبان، والمراقبة بين الوقفين: لا يُثبتا معاً ولا يسقطا معاً، بل يوقف على أحدهما، وأصل المراقبة في العَروض...»[٣].

ووقف المراقبة هذا أشار إليه جامع العلوم الباقولي أبو الحسن علي بن الحسين (ت٥٤٣هـ) في حدود (٧٨) موضعاً في كتابه: (الوقف والابتداء)، وعرفه بقوله: «ومعنىٰ المراقبة: هو أنك إذا وقفت علىٰ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا تقف علىٰ: ﴿فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وإذا وقفت علىٰ: [﴿فِيهِ﴾ لا تقف علىٰ]: ﴿لَا رَيْبَ﴾»[٤].

وقد سبقهما إلىٰ وقف المراقبة أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي (ت٤٥٤هـ)، حيث يقول الإمام ابن الجزري: «وأول من نبه علىٰ المراقبة في الوقف الإمام الأستاذ أبو الفضل الرازي، أخذه من المراقبة في العروض»[٥].

- ويذكر الكواشي في تفسيره المسمىٰ بـ(التلخيص في تفسير كلام الله العزيز) تقسيماته للوقف فيقول: «وقد ذكرت فيه ثلاثة وقوف: التام والحسن والكافي؛ لأنها حسن الوقف وأعجبها إلي، فللتام: (تا)، وللحسن: (حس)، وللكافي: (كا)، وبعض يقدم الكافي

(١) ينظر: الهادي: ص١٢و١٣ و١٣ و١٤ و١٤ و١٩ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٨ و٣١ و٣٥ و٣٦ وو٣٧ و٣٨، ٤٣.
(٢) ينظر: الهادي: ص١٣.
(٣) ينظر: الهادي: ص١٢.
(٤) الوقف والابتداء (مخطوط): ص٤. وما بين المعقوفين ساقط من الأصل، والسياق يقتضي إضافته.
(٥) النشر في القراءات العشر: ١/ ٢٣٨.

علىٰ الحسن»[1]. فكان الكواشي يفسر الآيات ويذكر علامة الوقف بعد الكلمة التي هي محل وقف، وقد استفاد كثيرًا من كتاب (المرشد) للعماني؛ فمن يقارن بينهما يجد أن الكواشي وافق العماني في وقوفات ثلاثة: (التام)، (الكافي)، (الحسن)، ولم يخالفه فيها إلا في مواضع يسيرة، وأما ما وقف عليه العماني بالوقف (الجائز)، أو(الصالح)، أو(المفهوم) فإن أغلبها لم يشر إليها الكواشي. ثم إنه يعلل في بعض المواضع بتعليلات لطيفة لم يشر إليها العماني. أما تقسيمات الكواشي في تفسيره الكبير: (تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر)، فإنه قسم الوقف فيه إلىٰ ستة أقسام.

- ومنهم من قسم الوقف إلىٰ أربعة أقسام، كأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت٢٥٥هـ)، وإبراهيم بن عبد الرزاق بن الحسن أبي إسحاق العجلي(ت٣٣٨هـ)، وأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت٣٣٨هـ)، وعلي بن إبراهيم الحوفي (ت٤٣٠هـ)، وأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ)، وعلي بن أحمد بن محمد بن الغزَّال (ت٥١٦هـ)، وأبي الأصبَغ الأندلسي عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحان (ت٥٦١هـ)، وعلي بن محمد علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ)، وعبد الله بن محمد معين الدين النكزاوي (ت٦٨٣هـ)، ومحمد ابن محمد بن محمد المعروف بابن الجزري (ت٨٣٣هـ).

فتقسيمات أبي حاتم وابن عبد الرزاق والداني هي: ١- التام ٢- الكافي ٣- الصالح ٤- القبيح، إلا أن الصالح عند أبي حاتم والداني هو الحسن أيضًا.

يقول الأندرابي (ت٤٧٠هـ، وقيل: ت بعد ٥٠٠) : «... قال: أخبرنا أبو حاتم سهل ابن محمد بن عثمان البصري المعروف بالسجستاني، قال: من المقاطع الوقف التام، والوقف المفهوم وهو الكافي، والوقف الصالح وهو الحسن؛ لأنّه لا يقدر الإنسان أن يبلغ

(١) تفسير الكواشي (التلخيص في تفسير كلام الله العزيز) (مخطوط): ١/ ٣.

كلاماً تاماً في كل مكان»[1].

ويقول الداني في (إيجاز البيان): «اعلمْ أنَّ علماءنا اختلفوا في تقسيم المقاطع والمبادي: فقال بعضهم: تنقسم ثلاثةَ أقسامٍ لا غير: تامة، وكافية، وقبيحة. وإلىٰ هذا ذهب ابن الأنباري، ومن قال بقوله. وقال آخرون بل تنقسم أربعةَ أقسام: تامة، وكافية، وصالحة، وهي المفهومة التي ليست بتامة ولا كافية، وقبيحة. وإلىٰ هذا ذهب أبو حاتم، وإبراهيم بن عبد الرزاق، ومَنْ قال بقولهما. وبذلك أقول، وإنا نُفْرِدُ هذه الأربعة الأقسام، ونُمَثِّلُ من كل قسم منها ما يُستدل به علىٰ ما يُراد منه، إن شاء الله تعالىٰ»[2]. ثم فصلها، وقال عن الوقف الكافي: «وقد يُسَمَّىٰ هذا الضرب مفهوماً أيضاً»[3]. وقال عن الوقف الصالح: «وقد يُسَمَّىٰ هذا الضرب أيضاً حَسَناً»[4].

ويقول في (المكتفىٰ): «باب ذكر البيان عن أقسام الوقف: اعلم أيدك الله بتوفيقه أن علماءنا اختلفوا في ذلك؛ فقال بعضهم: الوقف علىٰ أربعة أقسام: تام مختار، وكاف جائز، وصالح مفهوم، وقبيح متروك. وأنكر آخرون هذا التمييز، وقالوا: الوقف علىٰ ثلاثة أقسام: قسمان أحدهما مختار وهو التام، والآخر جائز وهو الكافي الذي ليس بتام. والقسم الثالث: القبيح الذي ليس بتام ولا كاف. وقال آخرون: الوقف علىٰ قسمين: تام، وقبيح لا غير. والقول الأول أعدل عندي، وبه أقول... قال أبو عمرو: وأنا أفسر الأقسام الأربعة المذكورة قسماً قسماً، وأشرح أصولها، وأبين فروعها وأمثل من كل قسم ما تيسر وخف...»[5]. ثم فصلها، فقال: «باب ذكر تفسير الوقف التام- اعلم أن الوقف التام: هو الذي يحسن القطع عليه والابتداء بما بعده؛ لأنه لا يتعلق بشيء مما بعده، وذلك عند تمام القصص وانقضائهن،

(١) الإيضاح في القراءات: ص١٣٥.
(٢) إيجاز البيان عن أصول قراءة نافع بن عبد الرحمن - القسم الأخير الخاص بعلوم القرآن-: ص ٣٨.
(٣) المرجع السابق: ص ٥٩.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المكتفىٰ: ص١٣٨-١٣٩.

وأكثر ما يكون موجودًا في الفواصل ورؤوس الآي، كقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، والابتداء بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ٦]...

باب ذكر تفسير الوقف الكافي- واعلم أن الوقف الكافي: هو الذي يحسن الوقف عليه أيضًا والابتداء بما بعده، غير أن الذي بعده متعلق به من جهة المعنىٰ دون اللفظ كما ذكرنا... ويسمىٰ أيضًا هذا الضرب مفهومًا...

باب ذكر تفسير الوقف الحسن- واعلم أن الوقف الحسن: هو الذي يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده؛ لتعلقه به من جهة اللفظ والمعنىٰ جميعًا، وذلك نحو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، الوقف علىٰ ذلك وشبهه حسن؛لأن المراد مفهوم، والابتداء بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يحسن؛ لأن ذلك مجرور، والابتداء بالمجرور قبيح؛ لأنه تابع لما قبله. ويسمىٰ هذا الضرب صالحًا...

باب ذكر تفسير الوقف القبيح- واعلم أن الوقف القبيح: هو الذي لا يعرف المراد منه، وذلك نحو الوقف علىٰ قوله: ﴿بِسْمِ﴾ [الفاتحة:١]، و﴿مَٰلِكِ﴾ [الفاتحة: ٤]، و﴿رَبِّ﴾ [الفاتحة: ٢]، [الزخرف: ٨٢]، و﴿رُسُلُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وشبهه، والابتداء بقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة:١]، و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، و ﴿ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ لأنه إذا وقف علىٰ ذلك لم يعلم إلىٰ أي شيء أضيف. وهذا يسمىٰ وقف الضرورة، لتمكن انقطاع النفس عنده. والجلة من القراء وأهل الأداء ينهون عن الوقف علىٰ هذا الضرب، وينكرونه، ويستحبون لمن انقطع نفسه عليه أن يرجع إلىٰ ما قبله حتىٰ يصله بما بعده، فإن لم يفعل فلا حرج عليه»[1].

(١) المكتفىٰ: ص١٤٠-١٤٨.

فاعتمد في كتابه: (المكتفىٰ) عند تعريفه لهذه الأقسام -كما سبق- وكذلك في التطبيق هذه المصطلحات الأربعةَ: (التام، الكافي، الحسن، القبيح)، وبهذا التقسيم والمصطلحات اختاره الأئمة: ابن الطحان وعلم الدين السخاوي وابن الجزري[1]. ويقول بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ): «والوقف عند أكثر القراء ينقسم إلىٰ أربعة أقسام: تام مختار، وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك»[2].

ويقول النحاس: «وهذا الكتاب نذكر فيه التمام في القرآن العظيم، وما كان الوقف عليه كافيًا، أو صالحًا، وما يحسن الابتداء به، وما يجتنب من ذلك)»[3]. والمتتبع لكتاب النحاس: (القطع والائتناف)، وكتاب الحوفي في التفسير: (البرهان في علوم القرآن)[4] يرىٰ أنهما استخدما مصطلحات أربعة للوقف، وهي: ١- قطع تام (أو قطع تمام) ٢- قطع كافي ٣- قطع حسن ٤- قطع صالح. وقد استفاد الحوفي كثيرًا من وقوفات الإمام النحاس، ويمكن القول بأنه اختصر كتاب النحاس.

وتقسيمات الغزال هي: ١- التام ٢- الكافي ٣- الحسن ٤- البيان. حيث يقول: «اعلم أن الوقف في القرآن علىٰ أربعة أوجه: وقف حسن، ووقف كاف، ووقف تام، ووقف البيان. فالوقف الحسن: ما صح الوقف علىٰ الكلمة، وساغ الابتداء بما بعدها، غير أن ما بعد الموقوف عليه مع ما قبله كلام واحد من طريق المعنىٰ، كقوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] الوقف عليه حسن، والابتداء بما بعده كذلك... وأما الوقف الكافي: فهو ما يقرب من التام، نحو قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] عند من لم يجعل قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] حالًا للضمير قبله. وأما الوقف التام: فهو أن يقف علىٰ آخر قصة انفصلت عما قبلها لفظًا

(١) ينظر: نظام الأداء في الوقف والابتداء: ص٢٨-٥٠، جمال القراء: ٢/ ٥٦٣-٥٦٤، التمهيد في علم التجويد: ص١٦٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٥٠.
(٣) القطع والائتناف: ص١٩.
(٤) وكان الحوفي يذكر الوقوف بعد الانتهاء من تفسير المقطع القرآني قبل الانتقال إلىٰ تفسير المقطع الآخر، تحت عنوان: (القول في الوقف والتمام).

ومعنىٰ، كقوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ٥]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧]. وأما وقف البيان: فإنه يُومِئ إليه إيماءً كأنه واقفٌ واصلٌ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩] يقف، ثم يبتدِئ بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [آل عمران:٢٩]؛ إيذانًا بأنه منفصل عن قوله: ﴿يَعْلَمُهُ﴾ لفظًا، إذ لو كان متصلًا بما قبله لكان مجزومًا. وكذا قوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: ١١١] حسن للبيان، والابتداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]؛ إذ لو كان معطوفًا لقال: (ثم لا ينصروا). وما عدا ما أوردناه من الوقف فهو مستقبح مستنكر عند الحذاق القدماء في حال السعة والاختيار، وهو لا يخلو من أن يكون قبيحًا أو محالًا أوشبيهًا بالمحال»[(١)].

ثم ذكر مصطلحاته فقال: «اعلم وفقك الله أن ما كان حسنًا من هذه الوقوف بينته بعلامة: (الحاء)، وأكثر ما يجيء ذلك في وسط الآي. وما كان من ذلك كافيًا فعلامته: (الكاف)، وأكثر ما يكون من ذلك علىٰ رؤوس الآي. والتام علامته: (الميم)، وهو علىٰ رأس وتمام المعنىٰ علىٰ ما أوضحته قبل»[(٢)]. فتبين أنه لم يذكر رمزًا لـ(وقف البيان)؛ لأنه في التطبيق لم يستخدمه، ولم يشر إليه - أي في التطبيق- إلا في موضعين فقط[(٣)]. فتكون تقسيماته للوقوف في التطبيق ثلاثية كتقسيمات ابن أوس والعطار. ويوجد تقارب كبير بين هؤلاء الأئمة (ابن أوس والغزال والعطار) في أماكن الوقوف ورموزه، مع إضافة المتأخر منهم وقوفات لم يذكرها المتقدم.

ويذكر النكزاوي تقسيمه للوقف، فيقول: «والذي ارتضيته أن الوقف ينقسم إلىٰ أربعة أقسام: تام، وكاف، ومفهوم، وما لا ينبغي الوقف عليه حالة الاختيار»[(٤)]. وعرف (التام)

(١) الوقف والابتداء للغزال: ١/ ١٣٤-١٣٥.
(٢) الوقف والابتداء للغزال: ١/ ١٤٩.
(٣) قال: «﴿مُّؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٢٨] حسن. وهذا يسمونه أهل البصرة: (وقف البيان)». الوقف والابتداء للغزال (مخطوط): ص١٧٤. وقال: «﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] ح؛ لأن التسبيح لا يكون إلا لله تعالىٰ، فهذا: (وقف البيان)...». الوقف والابتداء للغزال (مخطوط): ص١٨٥.
(٤) الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء: ١/ ١٩٠.

و(الكافي) بنحو تعريف الداني لهما. وعرف (المفهوم) بـ: هو كل كلام موقوف عليه مستغن بعامل ومعمول يفيد معنىً يكتفي به ليفهم منه معنىٰ الوقف علىٰ ما قبله، إما للفصل بين الأمر والنهي، وإما للفصل بين كلامين، وإما للفصل بين الحكاية عن كلام الكفار والحكاية عن كلام الملائكة، وإما للفصل بين الخبر والاستخبار، وإما للفصل بين الأمر والنهي الذي نصب جوابه، وإما للفصل بين الجازم والناصب، فهذا كله وما شابهه الوقف عليه مفهوم؛ لأنك تفهم بالوقف علىٰ الأول والابتداء بما بعده التغاير بين الكلامين أو المعنيين، وهو فيه بعض شبه بالوقف الكافي من جهة التعلق من طريق المعنىٰ في أكثر المواضع. وكلما جاء مما ذكرناه من الوقف التام أو الكافي أو المفهوم في رؤوس الآي أو في الفواصل كان ذلك أتم وأكفىٰ وأشد إفهامًا مما يرد من ذلك في الحشو.

وعرف (ما لا ينبغي الوقف عليه حالة الاختيار) بـ: هو الذي لا ينبغي الوقف عليه اختيارًا، ولا يفهم منه المراد، ولا يتم إلا باتصاله، وذلك نحو: الوقف علىٰ المضاف دون المضاف إليه، وعلىٰ الفعل دون الفاعل، أو علىٰ الفاعل دون المفعول، أو دون المصدر، أو دون الحال، أو دون التمييز، أو علىٰ المبتدأ دون خبره، أو علىٰ (كان) وأخواتها دون اسمها، أو علىٰ اسمها دون خبرها، ولا علىٰ المنعوت دون النعت، ولا علىٰ العطف دون المعطوف عليه إذا كان من عطف المفردات أو عطف بيان، ولا علىٰ المؤكد دون التأكيد، ولا علىٰ المبدل منه دون البدل، ولا علىٰ القسم دون جوابه، ولا علىٰ القول دون المقول، ولا علىٰ حروف الشرط دون جوابها، ولا علىٰ المستثنىٰ منه دون الاستثناء إذا كان ذلك متصلًا علىٰ مذهب القراء...إلخ[1].

- وقسمه الحسن بن علي أبو محمد العماني (ت نحو ٤٥٠هـ، وقيل بعدها)، وأبو سعيد محمد بن محمد بن خليفة (ت٤٥٤هـ)، وأحمد بن محمد أبو العباس القسطلّاني (ت٩٢٣هـ)، وأحمد بن محمد بن عبد الكريم الأشموني (من علماء القرن الحادي عشر الهجري) إلىٰ خمسة أقسام.

(١) ينظر: الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء: ١/ ١٩٠-١٩٧.

يقول العماني: «وهي خمس مراتب، فأعلاها رتبة هي: التام، ثم الحسن، ثم الكافي، ثم الصالح، ثم المفهوم. وهذه ألقاب استعملها أبو حاتم في كتابه، ولم يجعل كل لقب منها مقصورًا على معنىً بعينه، ولكنه قصد سائر الألقاب معنىً واحدًا، وهو أن الوقف يصلح في ذلك الموضع الذي يعبر عنه بلقب من هذه الألقاب، فأما نحن فقد ميزنا بينها ورتبناها مراتب، وجعلنا لها منازل، فوسمنا أعلاها منزلاً بالتمام، ثم ما بعده بالحسن، ثم بالكافي، ثم بالصالح، ثم بالمفهوم، على الترتيب الذي قدمت لك ذكره، ليعرف القارئ منازلها فيتخيرها على خير ومعرفة، وهذه العبارات وإن كانت دالة على مراتب الوقوف في الحسن فإنها على سبيل المقاربة، والحسن والكافي يتقاربان، والتمام فوقهما، والحسن يقارب التمام، والصالح والمفهوم قريبان أيضًا، والجائز دونهما في الرتبة»[1].

وتقسيمات ابن خليفة للوقوف هي: التام، الكافي، الحسن، المختلف فيه، المخير، ورمز لها برموز، حيث يقول: «أنواع الوقوف في القرآن على أنواع: وقف تام، وهو أن يكون عند تمام الكلام أو القصة لفظًا ومعنى. ووقف كاف، وهو قريب منه، ويكون رأس الآي؛ لأن النبي ﷺ - كان إذا قرأ قطع آية آية. ووقف حسن، وهو ما صح الوقف عليه، والابتداء بما بعده حسن، ولكن الكلام لا ينقطع عما بعده. ووقف مختلف عند القراء، فالوصل عند بعضهم أولى. ووقف مخير، نحو قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فالقارئ مخير في الوقف على: ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾، وله نظائر. فنحن نبين أنواع هذه الوقوف بعلامات الحمرة؛ طلبًا للإيجاز، فعلامة التام: (م)، وعلامة الكافي: (ك)، وعلامة الحسن: (ح)، وعلامة المختلف: (ف)، وأما وقف التخيير يكتب بينهم: (أو). فأما الوقف الذي يختلف باختلاف القراءات ننبه في مواضعه، آخر الوقف على قوله: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] عند من قرأ ﴿ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٢]

(١) المرشد في الوقف والابتداء: ١/ ١٢-١٤.

رفعـًا. وما عـدا ما ذكرنـا من الوقـف فالوصل أحـرىٰ إلا عنـد انقطاع النفس بالضـرورة، ولا تكلِّف نفسًا إلا وسعها»[1]. ومصطلحه بـ(وقف التخييـر) في حكم وقـف المراقبة كمـا يظهر في الأمثلـة، يقـول: «﴿ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ أو ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ [المائدة: ٣٢] ح»[2].

ويقـول القسـطلاني: «وسـيأتي تفصيـل مـا أجملتـه مـن الوقـوف إن شـاء الله تعالـىٰ في أواخـر السـور مرتبـًا علـىٰ ترتيـب الآيـات، فأسـوق إن شـاء الله الوقـوف الاختيارية مع ما يتعلـق بها مـن المباحث غالبـًا، مسـتوعبـًا أكثر ما في كتاب (المرشـد) لأبي محمد الحسـن بن علـي بن سـعيد العماني، مع زيـادات من غيره، كوقـف الداني، والسـجاوندي، وابن الأنباري، والجعبري، وتفسير البيضاوي، ونهرأبي حيان، وغيرهـا. وقد رقمت لكل من: الوقف الكامل، والتـام، والـكافي، والحسـن، والناقـص، بهذه الأحرف وهي: (م، ت، ك، ح، ن)»[3].

ويقـول الأشـموني: «ويتنـوع الوقـف نظرًا للتعلـق خمسـة أقسـام؛ لأنه لا يخلـو إما أن لا يتصـل مـا بعـد الوقـف بمـا قبلـه لا لفظـًا ولا معنـىً، فهـو التـام. أو يتصل مـا بعده بمـا قبله لفظـًا ومعنىً، وهو القبيح. أو يتصل ما بعده بما قبلـه معنىً لا لفظـًا، وهو الكافي. أو لا يتصل ما بعده بما قبله معنىً ويتصل لفظـًا، وهو الحسن. والخامس متردد بين هذه الأقسـام، فتارة يتصل بالأول، وتـارة بالثاني، علىٰ حسـب اختلافهما قراءةً وإعرابـًا وتفسـيرًا؛ لأنه قـد يكون الوقف تامًّا علىٰ تفسـير وإعراب وقراءة، غير تام علىٰ غير ذلـك، وأمثلة ذلك تـأتي مفصلة في محلها. وأشـرت إلىٰ مراتبه بتام وأتـم، وكافٍ وأكفىٰ، وحسـن وأحسـن، وصالـح وأصلـح، وقبيـح وأقبـح، فالـكافي والحسـن يتقاربـان، والتـام فوقهمـا، والصالـح دونهما في الرتبـة؛ فأعلاها الأتـم، ثـم الأكفىٰ، ثم الأحسـن، ثـم الأصلح ويعبر عنه بالجائز»[4].

(١) وقف القرآن العظيم (مخطوط): ص٥.
(٢) وقف القرآن العظيم (مخطوط): ص٥.
(٣) لطائف الإشارات لفنون القراءات: ٢/ ٥١٨-٥١٩.
(٤) منار الهدىٰ: ص٩-١٠.

ملاحظة: لم يلتزم الأشموني بما ذكره في تعريف الحسن، فإنه في التطبيق جعله قريباً من الوقف الكافي-وتقدم قوله: (فالكافي والحسن يتقاربان)- أي: مما يحسن الوقف عليه، ويحسن الابتداء بما بعده، حيث يقول: «﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾[النساء:١١٨] حسن؛ لأنَّ ما بعده غير معطوف علىٰ: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾»[١]. وقال: «﴿بِمَا قَالُوٓاْ ﴾ [المائدة:٦٤] حسن، ولا يجوز وصله بما بعده؛ لأنَّه يصير قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] من مقول اليهود ومفعول (قالوا)، وليس كذلك، بل هو ردٌّ لقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤]»[٢]. وقال أيضاً: «﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة:٧٣] حسن، ولا يجوز وصله بما بعده؛ لأنه يوهم السامع أنَّ قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [المائدة:٧٣] من قول النصارىٰ الذين يقولون بالتثليث، وليس الأمر كذلك، بل معناه: ثالث ثلاثة آلهة؛ لأنهم يقولون: الآلهة ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. وهذه الثلاثة إله واحد. ومستحيل أن تكون الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة»[٣]. وقال أيضاً: «﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص:٨٨] حسن، ولا يوصل بما بعده؛ لأن وصله يوهم أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ صفة لـ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾، وليس كذلك»[٤]. وقال أيضاً: «﴿إِنِّي عَٰمِلٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] حسن؛ لأن (سوف) للتهديد، فيبتدأ بها الكلام؛ لأنها لتأكيد الواقع»[٥]. وقال أيضاً: «﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنفال: ٦٧] حسن؛ لأن ما بعده مستأنف مبتدأ»[٦]. وقال أيضاً: «﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم: ٣٧] حسن؛ لأن ما بعده مبتدأ»[٧]. وقال أيضاً: «﴿مِن قَبْلُ ﴾ [يونس: ٧٧] حسن؛ لأن ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ منقطع لفظاً متصل

(١) منار الهدىٰ: ص١٠٧.
(٢) منار الهدىٰ: ص١٢٢.
(٣) منار الهدىٰ: ص١٢٣.
(٤) منار الهدىٰ: ص٢٩٤.
(٥) منار الهدىٰ: ص١٣٨.
(٦) منار الهدىٰ: ص١٩١.
(٧) منار الهدىٰ: ص٢٣٨.

معنىٰ»[1]. وقوله :(منقطع لفظاً متصل معنىٰ) هو المتطابق لتعريفه للوقف الكافي، والله أعلم.

وكتابه (منار الهدىٰ) اختصره السيد عبدالله مسعود المغربي الفاسي (كان حيّاً سنة ١١٤٨٧هـ) في كتاب أسماه: (وبْل الندىٰ المختصر من منار الهدىٰ في بيان الوقف والابتدا). واستخدم ١٢ رمزًا، حيث يقول: «(وأشرت إلىٰ مراتبه بتام وأتم، وكافٍ وأكفىٰ، وحسن وأحسن، وصالح وأصلح، وقبيح وأقبح)، يقول مختصر هذا الكتاب: وقد رمزت هذه الوقوف العشرة التي ذكرها المصنف في جدول مع ذكر الوقف الجائز، والذي لا يوقف عليه فصارت (اثني عشر وقفاً)، وكل رمز منها تفسيره في البيت الذي يليه من الجدول، وهو هذا:

ت	ك	ح	ص	ق	جا
تام	كافي	حسن	صالح	قبيح	جائز
أت	أك	أح	أص	أق	لا
أتم	أكفىٰ	أحسن	أصلح	أقبح	لا يجوز

وغالب الوقوف المذكورة في هذا المختصر مرموزة بهذه الرموز»[2].

- وقسمه محمد بن طيفور السجاوندي (ت٥٦٠هـ)، إلىٰ خمس مراتب، وإلىٰ ستة أقسام، يقول السجاوندي: «...ضامناً لتهذيب مراتب الوقوف عن سمات متداخلة المعاني في التحقيق، متباينة المباني في التلفيق، مقصورةٍ علىٰ خمس مراتب: لازم، ومطلق، وجائز، ومجوز لوجه، ومرخص ضرورة»[3]. ثم عرف هذه المراتب: فـ(اللازم) من الوقوف: ما لو وصل طرفاه غُيِّر المرام، وشُنّع معنىٰ الكلام. و(المطلق): ما يحسن الابتداء بما بعده، كالاسم المبتدأ به، والفعل المستأنف مع السين أو بغير السين، ومفعول المحذوف، والشرط، والاستفهام، والنفي. وأما (الجائز): فما يجوز فيه الوصل والفصل لتجاذب الموجبين من الطرفين. و(المجوز لوجه)-وهو ما يجوز فيه الوصل والفصل إلا أن وجه الوصل أولىٰ-.

(١) منار الهدىٰ: ص١٧٩.
(٢) وبْل الندىٰ المختصر من منار الهدىٰ في بيان الوقف والابتدا: ص٥-٦.
(٣) الوقف والابتداء: ١/ ص١٠٤-١٠٥.

و(المرخص ضرورة): ما لا يستغني ما بعده عما قبله، لكنه يرخص الوقف ضرورةَ انقطاع النفس لطول الكلام، ولا يلزمه الوصل بالعَود؛ لأن ما بعده جملة مفهومة[١].

ثم قال: «وأما ما لا يجوز الوقف عليه ففي مواجبه ونظائره كثرة، وما لابد من ذكره: أن لا يوقف بين الشرط وجزائه مقدماً كان الجزاء أو مؤخرًا...»[٢]. ثم ذكر المصطلحات، فقال: «فنشرع الآن في بيان الوقف علىٰ ترتيب سور القرآن، فنعلم (ما لا وقف عليه) بعلامة: (لا)، وكل آية عليها وقف نتجاوزها ولا نذكرها تخفيفاً، وكل آية قد قيل لا وقف عليها والوقف صحيح نعلمها أيضاً احتياطاً. ويُقيد (اللازم) في الوقف بحرف: (م)، والمطلق بحرف: (ط)، والجائز بحرف: (ج)، والمجوز بحرف: (ز)، والمرخص لضرورة بحرف: (ص). وبالله التوفيق»[٣].

فإذا أدخلنا قوله: «فنعلم (ما لا وقف عليه) بعلامة: (لا)» ضمن أقسامه للوقف فتصير الوقوف عنده ستة أقسام، ويكون مقصوده بـ(المراتب الخمس) التي هي محل وقف، والله تعالىٰ أعلم.

ونجد أن السجاوندي استخدم مصطلحات أخرىٰ في التطبيق لم يشر إليها في المقدمة، كمصطلح: (وقف)[٤]، (وقفة)[٥]، (وقفة لطيفة)[٦]، (سكتة)[٧]، والمتأمل في هذه المصطلحات من خلال التعليل بعدها يجد أنها ملحقة بالوقف المطلق (ط). وأيضاً استخدم مصطلح (قد قيل)، وهو مصطلح للوقف الذي قد قيل بأنه يصح الوقف عليه، أو ذكره بعضهم، ولكنه ضعيف عند السجاوندي، كمثل قوله: «﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٠١] قد قيل، وليس بصحيح؛ لبيان أن ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾

(١) ينظر: الوقف والابتداء: ص١٠٥-١١٢.
(٢) الوقف والابتداء: ص١١٣.
(٣) الوقف والابتداء: ص١٢٣-١٢٤.
(٤) ينظر: الوقف والابتداء: ص٢٠٧-٢٠٨، ٢٣١.
(٥) ينظر: الوقف والابتداء: ص١٤٢، ١٥١، ١٥٩، ١٦٠، ٢٣١، ٢٦٩، ٣١٧، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧٧.
(٦) ينظر: الوقف والابتداء: ص١٨٣، ٣٦٧، ٤٥١.
(٧) ينظر: الوقف والابتداء: ص٢٠٣، ٢١٣، ٢٤٢، ٣٢٢.

مفعول ﴿نَبَذَ﴾، لا بدل ما قبله»[1]. وقوله: «﴿مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] قد قيل، ولا يصح إلا ضرورة؛ للعطف»[2]. وقوله: «﴿مَا لَيْسَ﴾ [المائدة: ١١٦] قد قيل، علىٰ توهم أن الباء في ﴿بِحَقٍّ﴾ للقسم، وهو تعسّف؛ لأن المنكر لا يقسم به، والقسم لا يجاب بالشرط، بل الوقف علىٰ: ﴿بِحَقٍّ﴾»[3]. وقد اصطلح بعض من اختصر كتاب السجاوندي علامة (ق) لعبارة: (قد قيل)[4]، ولذلك أضيفت في بعض نسخ (علل الوقوف) من قبل بعض النساخ والمحققين.

وقد نظم الحكيم زاده البغدادي (ت بعد ١٠٥٩هـ) هذه المصطلحات والرموز، ورموز أخرىٰ - استنبطها من مصطلحات السجاوندي-في منظومته: (مبادئ معرفة الوقوف)، وهذه الرموز هي: (لا)، (م)، (ط)، (ج)، (ز)، (ص)، (ق) (قف)، (صل)، (صلي)، (قفه)، (سكتة)، (وقفة)[5].

وجمع محمد بن محمود السمرقندي الهمذاني (ت٧٨٠هـ) في كتابه: (نجوم البيان في الوقوف وماءات القرآن) بين مصطلحات السجاوندي ومصطلحات العطار، وأضاف إليها مصطلحات أخرىٰ مدلولة لعبارتهما، فصار مجموع علاماته للوقوف: (٢٣) علامة[6].

- وذكر أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي (ت٤٦٥هـ) ستة أنواع للوقف، فقال: «واعلم أن الوقوف علىٰ ضروب، منها: وقف التمام، كقوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٦]، ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]،

(١) الوقف والابتداء: ص١٣٣.
(٢) الوقف والابتداء: ص١٨٤.
(٣) الوقف والابتداء: ص١٩١.
(٤) مثل: أبي المحامد محمد بن محمد البخاري الزندي (ت حدود ٧٠٠هـ)، حيث قال في كتابه: (مختصر وقوف المدلل للسجاوندي) (ص٣): «(ق) علامة: (قد قيل)؛ لأن بعض علماء الوقف وقف عليه بتأويل. وأما (ك) علامة: (كذلك)، أي: لو اجتمع كلمتان يوقف عليهما ويكون علامتهما واحداً ودليل الوقف فيهما واحداً يبين علة الوقف والعلامة في الأولىٰ ويقول في الثانية: كذلك». وسيأتي قول محمد محمود السمرقندي (٧٨٠هـ).
(٥) ينظر: مبادئ معرفة الوقوف لحكيم زاده: ص ٤٠-٤٧.
(٦) ينظر: نجوم البيان في الوقف وماءات القرآن: ص٣-١٠.

﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] علىٰ أحد القولين، وأشباه كثيرة، كتمام قصة موسىٰ، وقصة البقرة، وشبه ذلك.

والثاني: الحسن، وهو ما يتميز به المعنىٰ من المعنىٰ، مثل ذلك قوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢] إذا رجعت ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ علىٰ المبتدأ، أو ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] إذا لم تنصب ﴿ غِشَٰوَةٌ ﴾.

والثالث: الكافي، مثل ذلك قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]، وهكذا: ﴿ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٨]، ويبتدئ: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

والرابع: السنة، وهو أن يقف علىٰ رؤوس الآي، كما فعل رسول الله ﷺ في رواية أم سلمة، حتىٰ قطَّع الفاتحة فقال: ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ﴿ ٱلدِّينِ ﴾، وهو قول أبي عمرو ومن قال بقوله.

والخامس: وقف البيان، كما روي عن نافع ونصير: ﴿ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ﴾ [الفجر: ٦-٧] وقفا عليه؛ لأنهما لم يجعلا ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ نعتًا، وجعلا ﴿ إِرَمَ ﴾ قبيلة أو رجلًا، ومن جعل ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ نعتًا لم يقف. وهكذا: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة: ١٨٠] علىٰ قولهما، يجعلان ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ متعلقة بإجازة الورثة، ولا يجعلانها منسوخة، والصحيح أنها منسوخة؛ لقول النبي ﷺ: (لا وصية لوارث)، أو مخصصة.

والسادس: وقف التمييز، كما ذكرنا في الفرق بين ما اختص به الرسول ﷺ من التوقير، وما اختص به الله تعالىٰ من التسبيح.

والحسن قد يسمىٰ مستحسنًا، ومن عرف هذه الجملة قاس عليهما ... فمن أراد ذلك فليتأمل (درة الوقوف والجامع)، وبينت فيه وقف الفقهاء، والصوفية، والمتكلمين، والقراء، وأهل المعاني»[1].

وقال في موضع سابق: «واعلم أنه يقع التمييز في الوقف وإن كان في الإعراب لا يجوز، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩]، يقف

(١) الكامل في القراءات: ص١٣٨-١٤٠، الوقف والابتداء للهذلي: ص٥٦-٥٨.

ليفرق بين ما يجب للرسول، وبين ما يجب لله؛ إذ التسبيح لا يجب إلا له. وهكذا: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، ثم يبتدئ: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وشبيه ذلك كثير. وهكذا يقف على: ﴿قَالَ﴾، ثم يبتدئ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ يميز بين ما ارتفع بالمبتدأ وبين الفعل»[(١)].

والذي يظهر أنه يوجد تقارب في وقفي البيان والتمييز، فإن ما حكم عليه الهذلي بالوقف التمييز قد حكم عليه بعضهم بالوقف البيان، يقول جامع العلوم الباقولي: «فأما قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] فبيان، أراد أن يبين لك أن الهاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، وفي: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للرسول»[(٢)].

ويقول العطار: «﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] تام عند أحمد بن موسىٰ اللؤلؤي، و﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ ليس نسقًا عليه؛ لأن التسبيح لا يكون إلا لله **عز وجل**. وقال غيره: الوقف هاهنا ليس بتام، ولكنه وقف البيان»[(٣)]. ويقول العطار أيضًا: «﴿قَالَ﴾ ح، ويبتدئ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]؛ ليفرق بين ما يرتفع بالفعل وبين ما يرتفع بالابتداء، ويسمىٰ: (وقف البيان)، ويجب أن تؤمي إليه إيماءً، كأنك واقف واصل به[(٤)]»[(٥)].

و(وقف البيان) هذا قد سماه بهذا الاسم من قبل: الإمام المقرئ يعقوب الحضرمي

(١) الكامل في القراءات: ص١٣٢، الوقف والابتداء للهذلي: ص٣٥.
(٢) الوقف والابتداء للباقولي: ص١٨٢.
(٣) الهادي: ص١٥٦.
(٤) ولعل مقصود العطار وكذلك الغزال -كما سبق قوله- في قولهما: (كأنك واقف واصل)، هو الوقف بنية الوصل، يقول العطار في موضع آخر من (الهادي: ص١٨٤): «... جاز له أن يقف علىٰ: ﴿إِرَمَ﴾ [الفجر: ٧] علىٰ نية وقف البيان، كأنه واقف واصل، كما روي عن نافع والكسائي وأبي جعفر الرؤاسي ونصير». ومن المحتمل أن مقصودهما: الوقفة اللطيفة أو السكتة الخفيفة؛ فإن السجاوندي في(علل الوقوف: ٢/ ٦٠٣) قال: «﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾، بعضهم يسكت بين ﴿قَالَ﴾ واسم ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأن المعنىٰ: (قال يعقوب: الله علىٰ ما نقول وكيل)، غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول، وذلك لا يجوز، فالأحسن أن يفرق بينهما بالصوت، فيقصد بقوة النغمة اسم ﴿ٱللَّهُ﴾». والله تعالىٰ أعلم.
(٥) الهادي: ص٧٦. وينظر: الوقف والابتداء للباقولي: ص٢٢٣.

(ت٢٠٥هـ)[١]، والإمام أبو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ)[٢].

- وقسمه أحمد بن محمد بن المراغي (ت٧١٧هـ) إلىٰ سبعة أقسام، فقال: «والوقوف علىٰ سبعة أوجه: وقف واجب، ووقف تام، ووقف كاف، ووقف حسن، ووقف مجيز، ووقف لازم، ووقف كفر»[٣].

- وقسمه إبراهيم بن عمر الجعبري (ت٧٣٢هـ)، وشيخ الإسلام أبو يحيىٰ زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، وعبد الباقي العدني الزبيدي (ت١٠٢٧هـ) إلىٰ ثمانية أقسام.

فتقسيمات الجعبري هي: ١- الكامل، ورمز له بـ(ك). ٢- التام، ورمز له بـ(ت). ٣- الكافي، ورمز له بـ(ف). ٤- الصالح، ورمز له بـ(ص). ٥- المفهوم، ورمز له بـ(م). ٦- الجائز، ورمز له بـ(ج). ٧- المتجاذب، ورمز له بـ(ذ). ٨- الناقص، ورمز له بـ(ن). وعرف هذه الأقسام، فقال: «إن انعقدت جملتها بأجزائها، وتجرَّدت عما بعدها تجرُّدًا كليًّا فالوقف (الكامل). أو تعلقت تعلق التبع فـ(التام). أو العمل فـ(الكافي). أو التفسير فـ(الصالح). أو العلة أو السبب فـ(المفهوم). أو الجواب فـ(الجائز). أو لم تنعقد أجزاؤها أو لم تتم فـ(الناقص)... و(متجاذب): طرفان فالأنسب، كاتحاد العامل وتعدده، واجتماع الوعد والوعيد، وإبهام حكاية والتفات...»[٤].

وقال الأنصاري في مقدمة كتابه: (المقصد لتلخيص ما في المرشد): «ثم الوقف علىٰ

(١) يقول العطار في (الهادي: ص١٢٠): «﴿دَعۡوَةً﴾ [الروم: ٢٥] ح، وهو وقف نافع وأحمد بن موسىٰ اللؤلؤي وأبي الحسن الأخفش وغيرهم، وقال يعقوب: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةً﴾ [الروم: ٢٥]، فهذا الوقف الذي يخفىٰ علىٰ العالم علمه: وقف البيان، ثم قال الله: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعناها: إذا أنتم تخرجون من الأرض».

(٢) يقول النحاس في (القطع: ص٤٥٢): «فقال أبو حاتم: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨] وقف البيان، وليس بالتمام». وقال العطار في (الهادي: ص١٣٩): «وقال أبو حاتم: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨] وقف البيان، لا بالتمام ولا بالكافي». وقال النحاس في (القطع: ص٥٢٦): «وقال أبو حاتم: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١] وقف بيان». وقال الداني في (المكتفىٰ: ص٥٦٣): «وقال نافع ويعقوب والقتبي: ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١] تام. وقال أبو حاتم: هو وقف بيان».

(٣) فوائد البدرية في بيان علم القرآن من العلل والمراتب والوقوف اللازم والكفر الجازم لابن المراغي: ص٢. وقال أيضًا (ص٩): «ثم اعلم بأن علامة الوقف اللازم في جميع القرآن كتبت في المصاحف بالميم الأحمرية: (سبعًا وثمانين) موضعًا...». ثم ذكر (ص٢٢) وقوف الغفران وعددها: (١١) وقفًا.

(٤) وصف الاهتداء في الوقف والابتداء: ص١٣٣-١٣٤.

مراتب: أعلاها التام، ثم الحسن، ثم الكافي، ثم الصالح، ثم المفهوم، ثم الجائز، ثم البيان، ثم القبيح، فأقسامه ثمانية. ومنهم من جعلها أربعة...»[1]. ولكنه في التطبيق التزم بتقسيمات العماني؛ لأنه اختصر كتابه (المرشد).

وأما تقسيمات العدني فجمعها من تقسيم الداني والسجاوندي للوقوف، حيث يقول: «وقسمت الوقوف إلىٰ ثمانية أقسام: تام، وكاف، وحسن، ولازم، ومطلق، وجائز، ومجوز، ومرخص، فالثلاثة الأول اصطلاح الحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، والخمسة الأخر اصطلاح العلامة أبي عبد الله ابن طيفور السجاوندي صاحب (عين المعاني)، وأعلمت لكل إمام بعلامته فيما اتفقا عليه من الوقوف، وأفردت لكل شيخ علامته فيما اختلف فيه، تقليدًا لكل إمام برمزه: فالتام: (تام)، والكافي: (ك) والحسن: (حسن)؛ لئلا يلتبس بالجيم، واللازم بحرف: (م)، والمطلق بحرف: (ط)، والجائز بحرف: (ج)، والمجوز بحرف: (ز)، والمرخص ضرورة بحرف: (ص). وأما حدودها فيؤخذ من الأصلين. وإلىٰ ما روي عن ابن مسعود **رضي الله عنه** من وقوف النبي ﷺ بحرف: (نبوي)»[2].

المطلب الثاني: علامات الوقف والابتداء في المصاحف القرآنية:

يقول أستاذنا الدكتور غانم قدوري الحمد – حفظه الله–: «ويظهر أن تقسيم السجاوندي هو الذي اشتهر في العصور المتأخرة، وأخذ به في المصاحف، بإثبات الرموز التي اختارها، فالمصاحف التي ترجع إلىٰ القرون الأولىٰ لم تظهر فيها علامات الوقوف، فلم تظهر في مصحف جامع الحسين في القاهرة، ولا في مصحف متحف طوب قابي سرايي، وكذلك لم يستعملها ابن البواب في مصحفه الذي كتبه في بغداد سنة: (٣٩١هـ)، وكذلك لم تظهر تلك العلامات في مصحف إشبيلية المؤرخ بسنة: (٦٢٤هـ). ويصعب تحديد تاريخ محدد لاستعمال علامات الوقوف في المصاحف،

(١) المقصد لتلخيص ما في المرشد: ص٥.
(٢) بغية القارئ المُجيد من طلاب القرآن المجيد للعدني: ص٢.

لكـن يمكـن القول: إنهـا ظهـرت في مصاحف القـرون المتأخـرة»[١]. وقـال أيضـاً في موضع آخـر: «وقـد ظهـر في مصحـف مـؤرخ بسـنة: (٦٣٥هـ) عدد من علامـات الوقف، مثل: ط، ج، لا»[٢].

وقـد اطلعت علىٰ بعـض المصاحف التي قيل عنها بأنها كتبت في القرن السادس الهجري، واعتمدت علامات للوقوف، ومنها:

١- مصحف (من منتصف سورة المؤمنون إلىٰ منتصف سورة سبأ)، كُتب سنة: (٥٠٥هـ)، حيث يقول الخطاط في خاتمته: «كتبه عثمان بن محمد، ببلدة (بُسْـت)، في شهور سنة: (خمس وخمـس مائـة»[٣]، في هـذا المصحـف علامـة وقـف واحـدة، وهـي: (قـف)، وضعـت هذه العلامة داخل دائـرة مزهرة، ومن خلال مقارنة وقوفـه مع وقوف من تقدمـه لا يظهر أنه اعتمد اعتمادًا كليًّا علىٰ أحدهم، والله أعلم.

٢- مصحـف كُتـب سـنة: (٥٣٣هـ)، كتبـه: محمـد بن زكريـا القرشـي، وذكر كاتب المصحـف في فاتحتـه أنـه اعتمد علـىٰ كتاب: (المكتفـىٰ في الوقف والابتـدا) للداني في وضع علامـات الوقـوف في المصحف، مسـتخدماً: (ت) للوقف التام، و(ك) للوقف الكافي، و(ح) للوقف الحسن[٤].

٣- مصحـف كتب سـنة: (٥٤٩هـ)، كتبه أبو سعد محمد بن إسماعيل محمد[٥]، وفي هذا المصحف علامة وقف واحدة، وهي: (قف).

٤- مصحف بروايـة ورش عن نافع، وجاء في بطاقة التعريف به أنه كتب سنة: (٥٥٦هـ)[٦]، وفي هـذا المصحـف اسـتخدام علامـة وقـف واحـدة، وهـي: (ص). وهي موجـودة فقط في

(١) علم المصاحف- مجموعة أبحاث: ص٣٥.
(٢) علم المصاحف- مجموعة أبحاث: ص١٢٢.
(٣) المصحف من مقتنيات المكتبة الوطنية - فرنسا، برقم (arabe ٦٠٤١).
(٤) المصحف من مقتنيات مكتبة ميونخ - ألمانيا، برقم (٨٠). أفادني بهذا المصحف أستاذي المكرم: أ.د. غانم قدوري الحمد- جزاه الله خيـراً-، وقـال: «ويتضح من الموازنة بين ما ورد في هذه الصحيفة وما ذكره الداني في المكتفىٰ في سـورة الجمعة صحة ما ذكره الخطاط في أول المصحف من أنه اعتمد علىٰ كتاب المكتفىٰ».
(٥) المصحف من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة.
(٦) المصحف من مقتنيات متحف والترز للفنون بأمريكا.

بعض صفحات المصحف[1]، والذي يظهر أن علامة الوقف أضيفت مؤخرًا، واعتمدت وقوفات الإمام محمد بن أبي جمعة الهبطي الفاسي (ت٩٣٠هـ).

ومن أوائل المصاحف التي اعتمدت مصطلحات الإمام السجاوندي المصاحف الآتية:

١- المصحف الذي أشار إليه شيخنا الأستاذ الدكتور غانم -كما تقدم-، الذي كتب سنة: (٦٣٥هـ).

٢- مصحف جامعة لايزبيك رقم (٣٢١ .ms or). قيل: إنه كتب في القرن السابع الهجري[2].

٣- مصحف بخط: عبد الله بن محمود الصيرفي، وذكر الخطاط بأنه كتبه في شوال سنة: (٧٢٠هـ).

٤- مصحف بخط: مباركشاه بن قطب، وذكر في خاتمته بأنه كتبه سنة: (٧٢٣هـ).

٥- مصحف تيموري، وذكر الخطاط في خاتمته بأنه كتبه سنة: (٧٢٥هـ). وقد اعتمد الخطاط علامات السجاوندي، وأضاف إليها علامتين، وهما: (قف)، (ق)، وإن كان السجاوندي لم يصطلح هاتين العلامتين، إلا أنه أشار إليهما، كأن يقول: (وقف)، (قد قيل).

٦- وقد استخدم محمد بن محمود السمرقندي الهمذاني (ت٧٨٠هـ) في المصحف الذي كتبه مصطلحات الإمام السجاوندي ومصطلحات أخرىٰ كـ(ق) و(صلىٰ)، وعلامة التعانق (ﮬ)، حيث يقول معرفًا منهجه في ذلك: «من الصنايع الخارجة ما يتعلق بوقوف السجاوندي عشرون:

(١)-أن كل موضع هو علىٰ وضع الشيخ الإمام المفسر محمد السجاوندي مكتوب بالحمرة.

(٢)- أن السجاوندي جعل الوقوف علىٰ خمس مراتب: لازم، ومطلق، وجائز، ومجوز لوجه، ومرخص لضرورة». ثم ذكر مصطلحات السجاوندي الست، ثم أشار بعدها إلىٰ المصطلحات الأخرىٰ فقال:

(١) أفادني بهذا المصحف والمصحف السابق والأول: أ.د. حاتم التميمي - جزاه الله خير الجزاء.
(٢) أفادني بذلك: أ. د. حاتم التميمي - جزاه الله خيراً.

«(١٠)- أن الموضع الذي قد قيل عليه الوقف وليس اختيار الشيخ كتبت عليه حرف: (ق).

(١١)- أن الموضع الذي يجوز الوقف عليه، إلا أن جانب الوصل أولىٰ كتبت عليه: (صلىٰ).

(١٢)- أن كل وقفين بينهما مراقبة جُعل عليها شكل واو مقلوب هكذا: (ﯓ)»[١].

٧- وفي القرن التاسع الهجري كتب مصحف بالرسم العثماني وبالخط الريحاني، وبهامشه القراءات العشر، واستُخدم فيه علامات السجاوندي الست: (م)، (ط)، (ج)، (ز)، (ص)، (لا). وأضيف إليها علامتان، وهما: (صلىٰ)، (ق)[٢].

- وألف عثمان بن محمد شاه الغزنوي (ت٨٢٩) رسالة في: (رموز المصاحف في الوقف)، فذكر فيها أربع عشرة علامة، علامات السجاوندي الست: (لا)، (م)، (ط)، (ج)، (ز)، (ص). وأضاف إليها: (ق) لـ(قد قيل)، (س) لـ(السكتة)، (قف)، (قفه) وهما في حكم الوقف المطلق، (قلا) لـ(قيل لا وقف)، (صل) لـ(تركه أولىٰ)، (صلىٰ) لـ(الوصل أولىٰ)، (ك) لـ(كذلك)[٣].

- وفي سنة (٧٩٠هـ) كُتب مصحف برواية الدوري عن أبي عمرو، وبهامشه القراءات السبع، بيد الخطاط محمد إسماعيل الحلبي[٤]، وفيه ثلاث علامات: (ت) للتام، (ك) للكافي، (ح) للحسن، كما صرح بذلك في خاتمة المصحف. ومن خلال تتبع الوقوف ومقارنتها مع وقوفات ابن الأنباري وابن أوس والنحاس والداني والعماني والغزال والعطار يظهر أنه لم يقلد أحدًا من هؤلاء، وقد يكون استفاد منهم، والله أعلم.

- وكُتب مصحف برواية الدوري أيضًا، وعليه عشر علامات: (ت)، (ك)، (ح)، (م)، (ط)، (ز)، (ص)، (صل)، (ق)، (لا)، وكُتب في بطاقة التعريف: (كتب في القرن الثامن أو التاسع الهجري تقديرًا)[٥]. والمتتبع للوقوفات فيه يظهر أنه اعتمد اعتمادًا كبيرًا علىٰ وقوفات

(١) الصنايع القرآنية (ص١٤١).
(٢) المصحف من مقتنيات متحف والتر بأمريكا.
(٣) ينظر: رموز المصاحف في الوقف: ص١٥٥-١٥٧.
(٤) المصحف من مقتنيات مكتبة ميونخ تحت رقم (١١١٣). أرسله إلي مصوراً أستاذنا: أ.د. حاتم التميمي.
(٥) المصحف من مقتنيات مكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم (٣٦٧).

الإمامين الداني والسجاوندي.

- وهناك مصحف آخر برواية الدوري وبهامشه القراءات، كتبه الخطاط يوسف بن منصور بن علي بن يعقوب سنة: (١٠٠٥هـ)، واستخدم خمس علامات للوقوف (ت، ك، ج، ص، ف)، فيقول في آخر المصحف: «اعلم وفقك الله أن هذه الختمة تشتمل علىٰ حرف أبي عمرو بن العلاء من طريقة الدوري عن اليزيدي عنه، فالمشهور عنه في الأصل، وعلىٰ الهامش ما تراه من الخلاف، ويشتمل علىٰ الأحرف السبعة. فإذا كان علىٰ رأس الآي هكذا: ت كان وقفًا تامًّا، وإن كان كافيًا فكاف هكذا: ك، وإن كان جائزًا فجيم هكذا: ج، وإن كان صالحًا فصاد هكذا: ص، وإن كان مفهومًا ففاء هكذا: ف. وكل عين هكذا: ع فهي علامة ربع الحزب من ستين، ونصفه وربعه مكتوبان في الهامش، وكذلك السجدات الأربع عشرة مكتوبات في الهامش»[(١)].

ثم توالت المصاحف علىٰ مر القرون في بلاد المشرق وهي تستخدم هذه العلامات: إما علامات السجاوندي وهو الأكثر، مع إضافة في بعضها. وإما علامات السجاوندي والداني معًا[(٢)]. وإما علامات أخرىٰ كـ: (ت)، (ك)، (ح). أو: (ت)، (ك)، (جا)، (ح)، (ص)، (لا)[(٣)].

والملاحظ أن كثيرًا من الخطاطين الذين اعتمدوا وقوفات الإمام السجاوندي لم يكونوا ذا دقة في وضع علامات الوقف، فوضعوا علامات الوقف في مواضع كثيرة وهي ليست بمحل وقف، وهناك من التزم بوقوفات السجاوندي، وهم قلة، مثل:

(١) المصحف من مقتنيات مكتبة جامعة الملك سعود تحت رقم (٦٢٦٧).

(٢) كمصحف من أول الفاتحة إلىٰ نهاية سورة الأنعام برواية حفص، وبالرسم العثماني، بخط القاضي عبد الكريم بن عمر بن موسىٰ النوفلي الفازي، فذكر في خاتمته بأنه كتبه لنفسه سنة: (١٢٦٥هـ). واعتمد وقوف السجاوندي والداني، بـ(٨) علامات، هي: (م)، (ط)، (ج)، (ز)، (ص)، (ت) لـ(التام)، (ك) لـ(الكاف)، (حسن) لـ(الحسن)، وقد صرح بذلك. والمصحف موجود في المكتبة الرقمية العالمية تحت رقم (١٤١٩٣).

(٣) كالمصحف المنسوب للشيخ رضوان بن محمد الشهير بالمخللاتي (ت ١٣١١هـ)، نسب إليه؛ لأنه كتب له مقدمة، يقول: «سألني كاتب هذا المصحف-أصلح الله لي وله الحال- أن أضع له مقدمة، تزيل عن غامض رسومه وخفي ضبطه الأشكال، فأجبته إلىٰ ذلك». واعتمد الخطاط (٦) علامات للوقف، وهي: (ت)، (ك)، (جا)، (ح)، (ص)، (لا). والمصحف طبعته المطبعة البهيّة بالقاهرة سنة: (١٣٠٨هـ).

– مصحف كُتب في القسطنطينية، بخط: حافظ محمد بن قاسم الشهير بالإمام، وذكر في خاتمته المصحف بأنه كتبه سنة: (١٠٣٧هـ). وميزة هذا المصحف أن ترتيب صفحاته موافق لما هو عليه الآن في المصاحف، كمصحف المدينة ومصحف البحرين بدءًا وانتهاءً، أي أنه (مصحف الحُفَّاظ).

– مصحف بخط: حافظ محمد أمين الرشدي، كتب سنة: (١٢٣٦هـ).

– مصحف بخط: السيد حسن العاشقي تلميذ حافظ القرآن عثمان الشوقي، وذكر الخطاط في خاتمته بأنه كتبه سنة: (١٢٦٨هـ).

– مصحف بخط: نوري حافظ عثمان المشتهر بقايش زاده، وذكر الخطاط بأنه كتبه سنة: (١٣٠٩هـ)، وأن هذا المصحف رقمه (١٠٢) من المصاحف التي كتبها. وهو مكتوب بالرسم العثماني من حيث الجملة. وعلىٰ هامشه القراءات والرسم وعد الآي، بخط الخطاط محمد خلوصي.

وأما المصاحف التي كتبت في بلاد المغرب والأندلس فلم تستخدم علامات الوقف في المصاحف إلا في بداية القرن الحادي عشر الهجري، حيث استخدمت علامة واحدة للوقف وهي: (صه)، واعتمدت في ذلك وقوفات الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي (ت٩٣٠هـ)، ومن أقدم هذه المصاحف:

مصحف كتب بخط أندلسي، وبالرسم العثماني، وبرواية ورش، كتبه الخطاط: محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الرياحي، وذكر الخطاط بأنه كتبه في العاشر من محرم عام: (١٠٤٤هـ).

وبالنسبة للمصاحف في عصرنا الحاضر، فهي في الغالب علىٰ ثلاث مدارس:

المدرسة الأولىٰ: مدرسة اعتمدت وقوفات الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي الفاسي (ت٩٣٠هـ)، كمصاحف بلاد المغرب العربي (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، موريتانيا). وجعلت هذه المصاحف علامة (صه) رمزًا لوقوفات الهبطي.

المدرسة الثانية: مدرسة اعتمدت وقوفات الإمام السجاوندي، كمصاحف (قازان - تترستان، وباكستان، والهند، وبنغلاديش، وأندونيسيا، وماليزيا)، مع تغيير بسيط في بعض الوقوف، وكذلك مصاحف بلاد تركيا التي اعتمدت وقوفات الإمام السجاوندي كاملة دون تغيير أو زيادة أو نقصان.

المدرسة الثالثة: مدرسة استندت إلىٰ علامات الإمام السجاوندي مع تغيير في بعضها، واستفادت في مواضع الوقوف من وقوفات الإمام ابن الأنباري والنحاس والداني والعماني والسجاوندي والأشموني وغيرهم، ومن أشهر هذه المصاحف: مصحف محمد علي خلف الحسيني، ينسب إليه؛ لأنه قام بتصحيحه. ويسمىٰ أيضًا: مصحف الملك فؤاد الأول، انتهىٰ الخطاط من كتابته سنة (١٣٣٧هـ)، وصدرت طبعته الأولىٰ سنة (١٣٤٢هـ).

ورموز هذا المصحف ست علامات، وهي:

(م) علامة الوقف اللازم.

(لا) علامة الوقف الممنوع.

(ج) علامة الوقف الجائز جوازًا مستويَ الطرفين.

(صلىٰ) علامة الوقف الجائز مع كون الوصل أولىٰ.

(قلىٰ) علامة للوقف الجائز مع كون الوقف أولىٰ.

(∴)علامة تعانق الوقف بحيث إذا وُقف علىٰ أحد الموضعين لا يصح الوقف علىٰ الآخر.

وقد استفاد لجان مراجعة المصاحف من رموز هذا المصحف ومواضعها، ومن هذه المصاحف التي استفادت من مصحف محمد خلف الحسيني: مصحف الأزهر، ومصحف الطبعة الشامية، ومصحف المدينة النبوية، ومصحف البحرين، وغيرها.

إلا أن مصحف الأزهر اقتصر علىٰ ثلاث علامات: (م)، (ج)، (لا).

وكذلك مصحف البحرين اقتصر علىٰ أربع علامات: (م)، (قلىٰ)، (ج)، (صلىٰ).

وفي النسخة الثانية من مصحف المدينة حذف منه علامة الوقف: (لا).

حسن الخلق

د/ حسني محمد الزبير

حسن الخلق

تذكر كتب التاريخ والسير أن العرب قبل الإسلام تطبعوا بطبيعة الصحراء القاسية، فاتسموا بفضاضة الطبع وخشونة الخلق، ومع ذلك فإن أخلاقهم قبل الإسلام لم تكن تخلوا من محاسن الأخلاق كالعفة، والشرف، والصدق في الحديث، والأمانة، والوفاء بالعهد وعدم نكثه، وعزة النفس، والإباء عن الضيم، والحلم، والأناءة، وإكرام الضيف، واحترام الجوار، وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها، واحترام الحرم والأشهر الحرم. وكانوا يعظمون هذه الصفات الأخلاقية تعظيماً شديداً، ولهذا لم يستطع أبو سفيان بن حرب أن يكذب على النبي ﷺ عند هرقل عظيم الروم عندما ذهب في تجارته للشام سنة ٦ هـ - قبل أن يسلم، وكان حينئذ من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وسأله هرقل عن أخبار الرسول ﷺ، وإلى ما يدعو الناس، فأجابه أبو سفيان بالصدق ولم يستطع أن يكذب حياء وخوف العار والفضيحة، حيث قال: (والله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عليه)[(١)]. وقد شهد لهم العالم بذلك، حيث ذكر المستشرق كوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب):

(كان للعرب قبل ظهور محمد ﷺ آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى أمم العالم القديم)[(٢)]. المتطلع لأخلاق العرب قبل الإسلام يرى أنها كانت ناقصة[(٣)]، لذا لم تصنع لهم تاريخاً مميزاً إلى أن أرسل الله النبي محمداً ﷺ فأكملها، وجمعها بعد التفرقة، وأوضح أن رسالته إنما جاءت لتكمل محاسن الأخلاق، قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق)[(٤)].

لقد ضرب النبي محمد ﷺ مثلاً رائعاً في سمو الروح والأخلاق، أدّى إلى تليين

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم (٧).
(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، (ص ٩٢).
(٣) ولعلنا نرى ذلك جلياً في قصة أبي سفيان مع عظيم الروم إذ إن عدم كذبه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن منبثقاً من عقيدة إيمانية ، وإنما خوفاً من العار والفضيحة.
(٤) رواه أحمد في المسند [٨٩٥٢]، تحقيق الأرناؤوط، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٤٥].

طباع العرب وقلوبهم، وتهذيب أخلاقهم، والتفافهم حوله. خصّه الله عز وجل بآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

كان ﷺ سهلاً، لينًا، قريبًا من الناس، قاضيًا لحاجاتهم، يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، شهد له رب العزة بعلو قدره، وسمو أخلاقه، إذ قال في محكم آياته: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

يخبرنا سعيد بن هشام رضي الله عنه، قال: «أتيت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فقلت: أخبريني عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلُقه القرآن، أما تقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]»[(١)].

وفي سنن الترمذي أن عائشة رضي الله عنها سُئلت عن خُلق النبي ﷺ فقالت: «لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[(٢)]. يصفه عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- فيقول: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[(٣)].

ويروي الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه فيقول: «خدمت النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم عشر سنين فما قال لي أُفّ قط، وما قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقًا، ولا مسستُ خزاً قطّ ولا حريراً ولا شيئًا كان ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا قطّ ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ»[(٤)]. وكان البراء رضي الله عنه يقول: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسن الناس خُلُقًا)[(٥)].

وتقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم

(١) رواه مسلم [٧٤٦].
(٢) رواه الترمذي [٢٠١٦]، وانظر مختصر الشمائل [٢٩٨]، والمشكاة [٥٨٢٠].
(٣) رواه البخاري [٣٣٦٦].
(٤) رواه الترمذي [٢٠١٥].
(٥) صحيح مسلم [٢٣٣٧].

الله، فينتقم لله عز وجل»[1].

وعن علي رضي الله عنه أنّه قال: إن يهودياً، كان يقال له: جريجرة، كان له علىٰ رسول الله ﷺ دنانير فتقاضىٰ النبي ﷺ فقال له: «يا يهودي، ما عندي ما أعطيك» قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتىٰ تعطيني، فقال ﷺ: «إذاً أجلس معك» فجلس معه فصلىٰ رسول الله ﷺ في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة وكان أصحاب رسول الله ﷺ وسلم يتهددونه، ويتوعدونه ففطن رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تصنعون به؟» فقالوا: يا رسول الله، يهودي يحبسك، فقال رسول الله ﷺ: «منعني ربي أن أظلم معاهداً ولا غيرَه» فلما ترحل النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وقال: شطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلىٰ نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله مولده بمكة، ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا متزي بالفحش، ولا قول الخنا، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، هذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله، وكان اليهودي كثير المال»[2].

بهذه الأخلاق الرفيعة والسمات العطرة والسيرة العطرة هذب رسول الله ﷺ القدوة الحسنة أخلاق العرب، وليّن طباعهم وقلوبهم، وجعلها مستعدة للرقي والتقدم، وصنع لهم تاريخاً، ومكّن لهم أسباب القوة والعزة والمنعة في زمن قصير.

وفي هذا يقول الباحث الروسي آرلونوف: «في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين ظهرت ديانة، أساسها الاعتراف بوحدانية الله، وهذه الديانة تعرف بالمحمدية، أو كما يسميها أتباعها الإسلام، وقد انتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً، ومؤسس هذه الديانة هو العربي محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وقد قضىٰ علىٰ عادات قومه الوثنية، ووحّد قبائل العرب، وأثار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإله الواحد، وهذب أخلاقهم، وليّن طباعهم وقلوبهم، وجعلها مستعدة للرقي والتقدم، ومنعهم سفك الدماء ووأد البنات. وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد ﷺ تدل علىٰ أنه من المصلحين العظام، وعلىٰ أن في نفسه قوة فوق قوة البشر، فكان ذا فكر نيّر، وبصيرة وقيادة، واشتهر بدماثة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن

(١) صحيح مسلم [٢٣٢٨].
(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين، النيسابوري [٤٢٤٢ / ٢٥٢].

المعاملة مع الناس، قضىٰ محمد ﷺ أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حبّاً جمّاً، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة»[١].

ويضيف هنري سيروي: إن محمداً - صلىٰ الله عليه وسلم - لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب[٢].

لقد أكد النبي ﷺ مكانة الأخلاق ووقعها في الدين، وحضّ علىٰ التحلي بالأخلاق الكريمة التي تهذب النفس، وتجعلها نقية زكية؛ وتوصلها إلىٰ درجة الكمال، وعن أنس بن مالك، قال: أوّلُ خُطبة خَطبها رسولُ الله ﷺ أَن صَعِد المنبر، فحمد الله، وأثنىٰ عليه، وقال: «يا أيّها النّاسُ، إنّ الله قد اختار لكم الإسلام دينًا، فأحسنوا صُحبة الإسلام بالسّخاء، وحُسن الخُلق»[٣].

ورفع مرتبة حسن الخلق فقال عليه السلام: «مَا عمِل ابنُ آدمَ شيئًا أفضلَ من الصّلاة، وَصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَخُلُقٍ حسن»[٤].

وجعل عليه السلام التحلي بالأخلاق الحسنة من كمال الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام: (أكمل الناس إيمانًا أحسنهم خلقًا)[٥]. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعلُ، وتصدقُ، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لا خير فيها، هي من أهل النار». قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأثوار، ولا تؤذي أحداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة»[٦].

لقد أعلىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم منزلة حُسن الخُلق وجمع بينها وبين تقوىٰ الله عز وجل، إذ سئل عن أكثر ما يدخل النّاس الجنة؟ فقال: «تقوىٰ الله وحسن الخُلُق» وسئل عن أكثر ما يدخل النّاس النار؟ فقال: «الفم والفرج»[٧]. جعلها أفضل ما يُعطىٰ المرء. ففي الحديث أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا النبي

(١) آرلونوف: النبي محمد، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩.
(٢) هنري سيروي: فلسفة الفكر الإسلامي، (ص ٨).
(٣) تاريخ ابن عساكر، حديث رقم [٥٤٢٢٧].
(٤) صحيح الجامع [٥٦٥٥٦]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [١٤٤٨].
(٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٢٨٤].
(٦) رواه أحمد [٩٦٧٥] تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد (إسناده حسن).
رواه الترمذي حديث رقم [٢٠٠٤].

ﷺ عن أفضل ما أُعطي المرء المسلم. قال:»خُلُقٌ حَسن»[١].

وكان صلىٰ الله عليه وآله وسلم يحفّز المؤمنين ويوصيهم بحُسن الخُلق، وجعل حُسن الخُلق أكمل خصال الإيمان فقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٢].

وأجزل الثواب ورفع مقام من خصّه الله بهذه المنقبة المحمودة، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل وصائم النهار»[٣]، وأخبر أن حُسن الخُلق أثقل ما يُوضع في الميزان، قال ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»[٤]. وعلّل الإمام المناوي رحمه الله ذلك فقال: «لأن صاحبه في درجة الصائم القائم بل فوق درجتهما؛ لأنّ الحَسن الخُلق لا يحمل غيره أثقاله، ويتحمل أثقال غيره وخُلقهم كما سبق، فهو في الميزان أثقل لما تقرر من أن جهاد النفس علىٰ تحمل ثقلها وثقل غيرها أمر مهول لا يثبت له إلا الفحول»[٥].

وقد أخبر رسولنا الكريم أن النّار تحرم علىٰ من حَسن خُلقه، قال ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم علىٰ النّار- أو بمن تحرم عليه النّار؟- علىٰ كل قريب هيّن سهل»[٦].

وجعل من اختص بهذه المنقبة خير الناس وأحبهم إليه، وأقربهم منه مجلساً، فقال ﷺ: (خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أخلاقاً)[٧]، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أحبكم إلي وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً)[٨]. وكان ﷺ يلازم الخُلق الحَسن في جميع أحواله، ويُوصي صحابته رضوان الله عليهم بالتحلي بحُسن الخُلق، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيث ما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخُلق حَسن»[٩].

وجعل البركة وزيادة الأعمار في من

(١) رواه ابن ماجه [٣٤٣٦]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٤٣٣].
(٢) رواه الترمذي [١١٦٢]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٢٤٨].
(٣) رواه أبو داود حديث رقم [٤٧٩٨].
(٤) رواه الترمذي [٢٠٠٢]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٨٧٦].
(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرىٰ، ٥/ ٣٦٥، برقم: ٧٥٩٩.
(٦) رواه الترمذي [٢٤٨٨]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٩٣٥].
(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٩٢٣٥]، تحقيق الأرناؤوط (وإسناده حسن).
(٨) رواه الترمذي [٢٠١٨]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٧٩١].
(٩) رواه الترمذي حديث رقم [١٩٨٧]، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وانظر المشكاة [٥٠٨٣].

حَسن خُلقه، قال ﷺ: «حسن الخُلق وحسن الجوار يعمّران الديار، ويزيدان في الأعمار»[(١)].

والأحاديث في ثواب حُسن الخُلق وفضله أكثر من تحصىٰ في هذا المقام، ولو لم يكن فيه إلا ضمان النبي ﷺ ببيت في أعلىٰ الجنة لمن حَسن خُلقه لكان كافياً، قال ﷺ: (أنا زعيم ببيت في أعلىٰ الجنة لمن حَسن خُلقه)[(٢)].

بهذه الوصايا الشريفة التي ترغّب وتدعو إلىٰ حُسن الخلق، غيّر الرسول الكريم أمّة العرب من أمّة اتسمت بفضاضة الطبع وخشونة الخُلق، إلىٰ أمّة تسودها قيم الأخلاق والأدب، وتغشاها الرحمة والعدل والمساواة، وضربت المثل الأعلىٰ في حُسن الخُلق، فسادوا الدنيا في ذلك، وضربوا أروع الأمثلة في رقي تعاملهم في السلم وفي الحروب، وتعاملهم مع عدوهم، الأمر الذي كان لها الأثر الكبير في دخول الناس في دين الله أفواجاً، ولا عجب في ذلك فقد رباهم رسول الله ﷺ، وورثوا عنه الأخلاق الحسنة.

فما أحوجنا إلىٰ هذا الخلق الرباني الذي لن يتحقق إلا بالتمسك بكتاب ربنا، واتباع سيرة نبينا القدوة الحسنة، وسيرة آل بيته، وصحابته رضوان الله عليهم. يقول العلامة البريطاني الدكتور م. ج. دُرّاني: «وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني، الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين، لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدّل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة، وقانون واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، وحكومة واحدة. وأصبحت تلك الأمة التي لم تنجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلىٰ أقصىٰ أرجاء المعمورة، تدعو إلىٰ مبادئ الإسلام وأخلاقه، ونظام الحياة الإسلامية، وتعلم الناس أمور الدين الجديد»[(٣)].

قد يتصور بعضنا أن حُسن الخُلق محصور في الكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة فقط، والحقيقة أن حسن الخلق أوسع وأشمل من ذلك. قال صاحب كتاب بهجة الناظرين: «حُسن الخُلق هو الأمر

(١) رواه أحمد في مسنده [٢٥٢٩٨]، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة [٥١٩].
(٢) رواه أبو داود حديث رقم [٤٨٠٠].
(٣) رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشي، الدار الكويتية (٤ / ٢٨ ـ ٢٩).

الجامع لخصال الخير وأعمال البر، الذي ينتظم الشريعة بأسرها، فمن تمكن من نفسه، لم يصدر عنه إلا الأفعال الجميلة والأقوال الطيبة»[١]. وفي الترمذي أن عبد الله بن المبارك وصف حُسن الخُلق، فقال: هو بَسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذىٰ[٢]. وقال القاضي عيّاض: «هو مخالطة الناس بالجميل والبشر، والتودد لهم، والإشفاق عليهم، واحتمالهم، والحلم عنهم، والصبر عليهم في المكاره، وترك الكبر والاستطالة عليهم، ومجانبة الغلظة والغضب والمؤاخذة»[٣].

وقال الحافظ ابن حجر: «حُسن الخُلق اختيار الفضائل وترك الرذائل»[٤]. وسئل الحسن البصري عن حُسن الخُلق، فقال: «الكرم والبذلة والاحتمال»[٥].

وقال مقاتل:

«حُسن الخُلق بالتجاوز، والصفح»[٦].

وسئل الشعبي عن حسن الخلق، قال: «البذلة والعطية والبشر الحسن»[٧]. وقال الماوردي في وصف صاحب حسن الخلق: أن يكون سهل العريكة، ليّن الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيّب الكلمة»[٨]. وقد أوجز الإمام علي رضي الله عنه خصال حُسن الخُلق في ثلاث فقال: «حُسن الخُلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة علىٰ العيال»[٩].

وقد أجمل النبي ﷺ- والذي أُوتي جوامع الكلم - البرّ في حُسن الخُلق، فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرِّ والإثم؟ فقال: «البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١٠]. يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- تعليقاً علىٰ هذا الحديث: «وهذا يدل علىٰ أن حُسن الخُلق هو الدّين كلّه، وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ولهذا قابله بالإثم». ثم قال: «الدّين كله خُلق، فمن زاد عليك في

(١) بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين، أبو أسامة الهلالي، دار ابن الجوزي (١/ ٦٧٠).
(٢) رواه الترمذي في سننه [٢٠٠٥].
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٧).
(٤) رياض الصالحين للنووي، تحقيق: مصطفىٰ عمارة، دار إحياء الكتب العربية (ص٢٨١).
(٥) المصدر السابق (ص ٤٥٧)، إحياء علوم الدين للغزالي، دار الكتب العلمية (٣/ ٦٦).
(٦) فتح القدير (تفسير الآية: وجاءهم رسول كريم).
(٧) المصدر السابق (١/ ٤٥٧).
(٨) أدب الدنيا والدين، للماوردي، المكتبة العصرية (ص ٢٧٥).
(٩) إحياء علوم الدين للغزالي، دار الكتب العلمية (٣/ ٦٦).
(١٠) رواه مسلم [٢٥٥٣].

الخُلق زاد عليك في الدّين»[1].

يعتقد بعضنا إن الإنسان إذا جُبل علىٰ خُلق ما فإنه سيلازمه طيلة حياته واستحالة تغييره مستدلين ببعض الأمثال كقول المثل: «من شبّ علىٰ شيء شاب عليه».

وقول أبي العتاهية:

كلُّ امرئٍ متَصرّفٌ بطباعِه
ليسَ امرؤٌ إلاَّ علىٰ ما يُطْبَعُ[2]

بل وبعضهم يذهب إلىٰ أن عامل الوراثة له دور رئيسي في تكوين الأخلاق مستدلين بقول زهير بن أبي سلمىٰ:

فَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يَحْمِلُ الْحَقِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ[3]

وقول جميل بن عبد الله بن معمر العذري:

بنو الصَّالحينَ الصَّالحونَ ومنْ يكنْ
لآباءِ صدقٍ يلقَهمْ حيثُ سيَّرا
أرىٰ كُلَّ عودٍ نابتٍ في أرومةٍ
أَبَىٰ مَنْبِتُ العِيدانِ أن يَتَغَيَّرا[4]

وقول النجاشي:

خلائق فينا من أبينا وجدنا
كذلك طيب الفرع ينمي علىٰ الأصل[5]

ولكن الواقع يخالف ذلك، فقد أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوىٰ أنه بالإمكان تغيير الطباع والسلوك السيئ واكتساب الأخلاق الحميدة الفاضلة إذ يقول (إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم)[6]، وما ذكرنا من سيرتة العطرة مع قومه وتحولهم من مجتمع غلظة وفظاظة إلىٰ مجتمع حضاري إلا ليدل علىٰ أن الأخلاق صفة تكتسب وأن القدوة الحسنة شرط في اكتساب الخلق الحميد.

الناس بعمومهم يحكمون علىٰ الشخص كفرد أو جماعة أو حتىٰ كمجتمع من خلال السلوكيات والأخلاق، فالسلوك والأخلاق هي مرآه تعكس حضارة الفرد والمجتمع، فإذا حسن السلوك حكموا عليه بالرقي والتحضر، وإذا ساء السلوك حكموا عليه بالتخلف والهمجية. والإنسان بطبعه يتأثر بشكل مباشر بالبيئة

(١) مدارج السالكين، ابن القيّم الجوزية (١/ ٤٩٩).
(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر (٧/ ٥٩).
(٣) زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، دار الجيل (١/ ٨٩).
(٤) زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، دار الثقافة (١/ ١٤٤).
(٥) ديوان القيّم، إبراهيم الحجي، أكاديمية القيّم (ص ٢).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم (ص ١٧)، والخطيب في تاريخه (٩/ ١٢٩)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة [٣٤٢].

التي يعيش فيها، فالبيئة المنظمة تنتج مجتمعاً حضارياً، والبيئة الهمجية لا تنتج إلا مجتمعاً فوضوياً منعدم القيم والأخلاق. فالأخلاق أساس بقاء الأمم، وهي المؤشر على استمرار بقائها أو انهيارها، فالأمة التي تنهار أخلاقها يوشك أن ينهار كيانها.

ولله در أحمد شوقي حيث يقول:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ
فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ويقول أيضاً:

وَإِذَا أُصِيبَ القَوْمُ فِي أَخْلاَقِهِمْ
فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاَ

إن ما ورد في تقرير المنظمة العالمية الأخير لشفافية التعامل والانضباط والعدل واحترام القانون، واختفاء معظم دولنا الإسلامية من التراتيب الأولى، بل وقبوع بعض دولنا الإسلامية في ذيل قائمة الدول الأكثر فساداً وخرقاً للقانون وأقلها شفافية وانضباطاً، وتراجع مراكز بعض دولنا عما كانت عليه في السنوات السابقة ليعكس حالة مجتمعاتنا - إلا من رحم الله - من إصرار على التخلف السلوكي والفوضى والانحطاط في التعامل والأخلاق.

البعض منا يضع اللوم على القوانين المعمول بها، ويرى أنها غير فعّالة، متجاهلاً ومعطلاً المسئولية الفردية، وناسياً أو متناسياً أن القوانين إنما وضعت لتنظيم حياة البشر وليس لتربيتهم. إنّ ما وصلت إليه أمتنا من تخلف حضاري، وفقدان القيم في كثير من الزوايا، واندثار معظمها، بعد أن كنا أمة حضارية يضرب بها المثل، ليجدر بنا أن نجلس ونفكر للخروج من هذا المأزق. الكل منا كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وعوامنا يعلم أننا نعاني أزمة خُلق وأدب، وتخلف سلوكي، وسوء في التعامل، بل ويتذمر منها، ويطلب حلولاً عملية مجدية. والسؤال: فهل إلى خروج من سبيل؟ ولعلّ الجواب على ذلك يكمن في أنّ عدل الله وحكمته وسنته في خلقه تبلغنا أن التغيير لا يكون إلا منّا وبنا، فالله عز وجل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١]، فتغيير حالنا للأصلح لا ولن يتأتى إلا باحترام أنفسنا أولاً، ثم احترام الآخرين، واحترام الأنظمة والقوانين، وزرع الثقة في أنفسنا بأننا أهل للتغيير، فلا شيء أضر على الإنسان من عدم ثقته بنفسه والاستسلام للفشل. إن الأخلاق لا تكتمل إلا باتباع المنهج السوي، منهج القدوة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومنهج آل بيته وأصحابه، والصالحين، واحترام العلماء، والتقيد بالأنظمة والقوانين، ومجاهدة النّفس والصبر على ذلك - فإن الصبر

من الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها حُسن الخُلق وتكتمل ثمارها عندما يتم ربط العبادات بحُسن الخُلق، فإنّ النّفس إذا استشعرت حقيقة العبادة انعكس ذلك علىٰ أخلاقها، فالمؤمن الذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر لسوف يدرك أن هناك حاجزاً بين عبادته وسلوكه. ولا ننسىٰ التركيز علىٰ غرس هذه الفضيلة عند النشئ، وقد أحسن ابن قريع بقوله:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئًا
فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ[1]

إن الوازع الديني وحسن العشرة لهما تأثير رئيسي في إحداث تغيير ملموس في حسن خُلُق الإنسان، ويدل علىٰ ذلك قول الحكم بن عبدل:

ولمْ أَجِدْ عُرْوَةَ الخَلائِقِ إلاَّ الـ
ـدِّينَ لمَّا اعْتَبَرْتُ والحَسَبا[2]

إن مسئولياتنا كأفراد تتحتم علينا أن نلتزم بتعاليم ديننا السمحة، ونجتهد في تحسين أخلاقنا، فأكمل المؤمنين إيماناً وأقربهم إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم مجلساً من تمسّك بصفات حسن الخلق، مِن حُسن التعامل مع أنفسنا والآخرين، وبشاشة الوجه، وحلو الحديث، وطيب المعشر، والحياء، والصدق، والبرّ، والحلم، والعفو، والرفق، والعفة، والبشاشة، والطلاقة، والابتسامة، وكظم الغيظ. وجاهد نفسه وعودها علىٰ الابتعاد عن الأخلاق الذميمة من بذاءة اللسان، والظلم، والحقد، والبخل، والكسل، والخيانة، والرياء، وقطع الأرحام، والتعصب للرأي، والإعراض عن قبول النصيحة، وطلب الجاه، والبعد علىٰ أن يُحمد بما لم يفعل. وجعل وصية الرسول عليه الصلاة والسلام: (اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) نصب عينيه.

ولله در الشاعر إذ يقول:

أَقْبِلْ عَلَىٰ النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا
فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ[3]

وقد أحسن الشاعر حيث قال:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ
فَالْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَالدِّينُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا
وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِيهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا
وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِيهَا[4]

(١) شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك (٢/ ١٨).
(٢) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٥/ ٣٠).
(٣) ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٥/ ٣٥٣).
(٤) المحاضرات في الأدب واللغة، الحسن اليوسي، دار الغرب الإسلامي، (ص ٣٧٨-٣٧٩).

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «الخلق الحسن أفضل أعمال الصديقين وهو علىٰ التحقيق شطر الدين، وهو ثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة في نفوسهم»[١]. وقال ابن القيم رحمه الله : «الدين كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلقِ زاد عليك في الدين»[٢]. وقال الإمام الماوردي رحمه الله: « إذا حسنت أخلاق إنسان كثر مصافوه، وقلّ معادوه، فتسهّلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب»[٣].

ونختم بأحسن الكلام، كلام رسولنا المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم: (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يُبغض الفاحش البذيء)[٤]. ودعائه عليه السلام: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنّي سيء الأخلاق، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت»[٥].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) فيض القدير، (٢/ ٤٤٦).
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، (٢/ ٢٩٤).
(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي، المكتبة العصرية، (ص ٢٧٥).
(٤) رواه الترمذي [٢٠٠٢]، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني [٨٧٦].
(٥) رواه مسلم [١٢٩٠].

مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه التاريخ من المبتدأ إلى نهاية طبقات الصحابة

أ: خالد علي محمد اللهبي

مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة

في كتابه التاريخ من المبتدأ إلىٰ نهاية طبقات الصحابة

جمعًا ودراسة

رسالة علمية قدمت لنيل الدرجة العالمية (الماجستير)

من قسم التاريخ – كلية الدعوة وأصول الدين – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

إعداد الطالب

خالد علي محمد اللهبي

المشرف

د. عبدالرحمن بن رباح سفر الحجيلي

العام الجامعي ١٤٣٦هـ/ ١٤٣٧هـ.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً صلىٰ الله عليه وسلم عبده ورسوله. أما بعد:

فإنّ علم التاريخ من العلوم التي يستفاد منها في سبر العبر والعظات وطلب الاقتداء بمن مضىٰ وسلف، وقد عني الأئمة في القرون الثلاثة الأولىٰ بجمع الحوادث التاريخية عناية فائقة وساقوها غالباً بالأسانيد ليتسنّىٰ للقارئ التحقق من صدق الخبر.

وفي القرن الثالث الهجري بدأ ظهور المؤلفات التاريخية الشاملة علىٰ أساس الترتيب الزمني المتسلسل، فيبدأ المؤرخ (مثلاً) ببداية الخليقة، إلىٰ البعثة النبوية، ثم يذكر الأحداث علىٰ نظام الحوليات، أو يرتب التراجم علىٰ الطبقات، ومن أبرز مؤرخي القرن الثالث الهجري الذين ساروا وفق هذا المنهج: ابن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، وخليفة بن خياط (ت: ٢٤٠هـ)، وأبوحنيفة الدينوري (ت: ٢٨٢هـ)، واليعقوبي (ت: ٢٩٢هـ)، وابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ)، وغيرهم من الأئمة رحمهم الله جميعاً[١].

ومن علماء القرن الثالث الذين صنفوا وفق هذا المنهج الإمام الحافظ المسند أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي الكوفي المتوفىٰ سنة ٢٩٧هـ، وله كتاب التاريخ، وكان من أوعية العلم كما وصفه الحافظ الذهبي رحمه الله[٢].

وقال عنه الخطيب: «وكان كثير الحديث واسع الرواية ذا معرفة وفهم»[٣].

ولم يشتهر هذا الإمام بين المشتغلين بالتاريخ من المعاصرين كشهرة من تقدم ذكرهم من المؤرخين؛ ولعلّ السبب في

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٢٩١-٢٩٢، د. محمد صامل السلمي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ.
(٢) سير أعلام النبلاء ج١٤ ص٢١، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
(٣) تاريخ بغداد ج٣ ص ٤٢، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، المحقق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

ذلك يعود إلىٰ فقدان كتابه (التاريخ) الذي وصفه الخطيب والذهبي: أنه كبير. فلم يصل إلينا منه إلا اثنا عشر ورقة.

وقد كان كتاب (التاريخ) لابن أبي شيبة مورداً للعديد من المؤرخين الذين جاءوا بعده، فنقلوا عنه الكثير من المرويات، كابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب، والحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة، وغيرهم من المؤرخين.

ولما كان من المحتم علىٰ طلاب مرحلة الدراسات العليا تقديم مشروع علمي لنيل درجة العالمية (الماجستير) أحببت أن أسهم بخدمة التاريخ الإسلامي؛ بإبراز جهود أحد علمائه الذين خفي علىٰ الكثير ما لهم من مآثر في خدمة التاريخ، فوقع الاختيار بعد الاستشارة والاستخارة علىٰ: مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه التاريخ.

ونظراً لكثرة عدد مرويات كتاب التاريخ؛ فقد رأيت أن أقتصر علىٰ مروياته الواردة في المبتدأ، وقصص الأنبياء، والمتعلقة بإرهاصات نبوة نبينا محمد ﷺ، وسيرته العطرة، وما يتعلق بسيرة صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين إلىٰ نهاية طبقات الصحابة، وبذلك وسمت هذا المشروع: بـ **(مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه التاريخ من المبتدأ إلىٰ نهاية طبقات الصحابة جمعاً ودراسة)**.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. أنّ هذا الموضوع لم يكتب فيه من قبل - فيما أعلم - ولم تجمع مرويات هذا الكتاب وتُدرس، فحريٌّ بمثله أن يبرز؛ عسىٰ أن تسدّ هذه الرسالة مسدّ الفقد الحاصل لهذا الكتاب.

٢. أنّ للإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة مكانة رفيعة عند العلماء والمؤرخين، فهو من المصنفين المتقدمين في التاريخ حيث ولد وتوفي في القرن الثالث الهجري. وقد أثنىٰ عليه العلماء ووصفوه بالعلم والحفظ.

٣. أنّ كتاب التاريخ من الكتب المسندة

المفقودة، وقد عول عليه كثير ممن جاء بعده، فابن عساكر وحده نقل منه ٦٨٥ مروية[1]، ونقل عنه غيره من المؤرخين كابن كثير، وابن العديم وغيرهم من أهل العلم.

٤. شمولية وغزارة المادة التاريخية للكتاب، فالمرويات المنشورة منه في الكتب تشمل: المبتدأ، وأخباراً تتعلق بقصص الأنبياء والرسل، ومقتطفات من أحداث السيرة، كبشارة الأنبياء ببعثته ﷺ وصفته في الكتب السماوية، وأخبار الكهان والرهبان بنبوته وتحنثه في غار حراء، وأسماء زوجاته، وأخبار الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فيذكر مدة خلافتهم وأعمارهم وأسامي وكنىٰ الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وغير ذلك من الأخبار.

أهداف الدراسة:

١. جمع مرويات كتاب التاريخ للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة المتناثرة في كتاب واحد، وهو شرف يطمح إليه الباحث.

٢. تسليط الأضواء علىٰ هذه المرويات ودراستها وبيان أهميتها؛ لكون الكتاب مصدراً متقدماً ومفقوداً، ولكون المؤلف من الأئمة المعتبرين عند المحدثين والمؤرخين.

٣. إبراز محتوىٰ هذه المرويات وقيمتها العلمية، وترتيبها حسب موضوعاتها مراعياً الفترة الزمنية، لعل الله أن يجعل في هذا العمل نفعاً للمشتغلين في ميدان التاريخ.

الدراسات السابقة:

بعد تتبع وبحث وتحرٍ وسؤال للمختصين، لم أعثر علىٰ دراسة تاريخية مفردة تتعلق بالحافظ أبي جعفر ابن أبي شيبة، ولا عن كتابه التاريخ، وهذا ما زاد رغبتي وتعلقي بهذا المشروع.

إلا أن هناك رسالة ماجستير من قسم العقيدة في الجامعة الإسلامية بعنوان:

(١) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق للدكتور طلال الدعجاني ج١ ص ١٣٩.

(محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش)، دراسة وتحقيق: أ. د محمد بن خليفة التميمي، وهي تشتمل على ترجمة للحافظ أبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ودراسة للمسائل العقدية المتعلقة بكتاب العرش، ثم بعد ذلك حقق الكتاب واعتنى بإخراجه حديثياً.

خطة البحث:

تشتمل خطة البحث على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وفهارس:

أما المقدمة: فتشتمل على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه.

وأما التمهيد: فيشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: ترجمة الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: حياته الشخصية.

المطلب الثاني: حياته العلمية.

المبحث الثاني: دراسة كتابه التاريخ، ويشتمل على مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب.

المطلب الثاني: توثيق نسبة المرويات للكتاب.

المطلب الثالث: موضوع الكتاب ومنهج المؤلف فيه.

الفصل الأول: مرويات محمد بن عثمان بن أبي شيبة في بدء الخلق والأنبياء والرسل، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مروياته المتعلقة ببدء الخلق.

المبحث الثاني: مروياته المتعلقة بخلق آدم وخطيئته وتوبته وخروجه من الجنة.

المبحث الثالث: مروياته المتعلقة بالأنبياء والرسل عليهم السلام.

الفصل الثاني: مرويات محمد بن عثمان ابن أبي شيبة المتعلقة بسيرة النبي ﷺ، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مروياته المتعلقة بما كان من ذكره ﷺ قبل أن يخلق.

المبحث الثاني: مروياته المتعلقة بولادة النبي ﷺ ومبعثه.

الفصل الثالث: مرويات محمد بن عثمان بن أبي شيبة المتعلقة بطبقات الصحابة رضوان الله عليهم، ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: الطبقة الأولى على السابقة في الإسلام ممن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وحلفائهم ومواليهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

المبحث الثاني: الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهد بدراً، ولهم إسلام قديم، وقد هاجر عامتهم إلى أرض الحبشة، وشهدوا أحداً وما بعدها من المشاهد.

المبحث الثالث: الطبقة الثالثة من المهاجرين والأنصار ممن شهد الخندق وما بعدها.

المبحث الرابع: الطبقة الرابعة ممن أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك.

المبحث الخامس: الطبقة الخامسة فيمن قبض رسول الله ﷺ وهم أحداث الأسنان، ولم يغز منهم أحد مع رسول الله ﷺ.

المبحث السادس: طبقات الصحابيات رضوان الله عليهن.

خاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وأهم التوصيات.

الفهارس: وتشتمل على:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

المنهج المتبع في البحث:

١- استخدام المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية، وذلك باستقراء المصادر التي أوردت مرويات الإمام محمد بن عثمان بن أبي شيبة التاريخية، والتركيز على الكتب التي هي مظنة وجود المادة العلمية.

٢- ترتيب المرويات، وفقا لخطة البحث بما يتناسب والتسلسل الزمني للأحداث، كما هو الحال في كتب التواريخ، فابتدأت بالمرويات المتعلقة ببدء الخلق، ثمّ خلق آدم وخطيئته وتوبته وخروجه من الجنة، وأتْبَعْتُ ذلك بالمرويات المتعلقة بالأنبياء والرسل ومن عاصرهم، ثم أوردت ما يتعلق بنبينا ﷺ من بشارات وأخبار عن ولادته ومبعثه، ثمّ مرويّات الصحابة رضوان الله عليهم.

٣- اتبعت تقسيم المصنف في الصحابة، فقسمتهم لطبقات، حيث تبين لي أنه قسمهم لطبقات كما سيأتي في دراسة الكتاب، واعتمدت منهج ابن سعد في عدد الطبقات وصفات أهل كلّ طبقة، فقسّمت الصحابة على خمس طبقات، وأتْبَعْتُهُم بطبقة سادسة للصحابيات، إلا أني اعتمدت في ترتيب الصحابة داخل كلّ طبقة حروف المعجم باستثناء الطبقة الأولى فبدأتها بالخلفاء الراشدين الأربعة ثم باقي العشرة لفضلهم وتقدّمهم، وما بعد ذلك فعلى حروف المعجم، وطبقات النساء بدأت فيها بزوجات النبي ﷺ أمّا الصحابة الذين لم يترجم لهم ابن سعد فقد اجتهدت في وضعهم في الطبقة المناسبة بناء على ما ورد من أخبار في سيرهم.

٤- بعض المرويات المتعلقة بأكثر من صحابي، كإعتاق أبي بكر لبلال يصح أن توضع ضمن مرويات أبي بكر أو بلال، وقد اعتمدت في تصنيفها على من نقلها من كتاب التاريخ، فوضعتها ضمن مرويات بلال لأنّ ابن عساكر أوردها في ترجمته لبلال، وهكذا في باقي المرويات وهي كثيرة.

٥- اشتملت مصادر المرويات التي جمعتها على قطعة مخطوطة من كتاب

التاريخ لابن أبي شيبة تضمنت ستًا وسبعين مروية، وُزعت على ثلاثة مباحث وفقًا لخطة البحث.

٦- عملتُ على تحليل الحوادث التاريخية بما يقتضيه المقام من تحقيق للقول الراجح، أو توضيح مشكل، أو إزالة إيهام إن دعت الحاجة لذلك.

٧- عزوتُ المرويات إلى كتب أهل العلم المسندة، ونقلتُ حكم أهل العلم عليها، وما كان فيه خلاف فإني أجتهد في نقل ترجيحات أهل العلم مع التوثيق. والعزو للمصادر والمراجع يكون بذكر الجزء ورقم الصفحة، عدى الكتب الستة فإني أضيف رقم الحديث حسب ترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، واكتفي برقم الترجمة في تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر.

٨- ترجمة رجال الإسناد في كل مروية مع التركيز على مدى الضبط والعدالة، والتعريف بالأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة، ولا أكرر الترجمة إن تكرر ذكر صاحبها في مروية أخرى إلا إن رأيت حاجة لذلك فإني أعيد الترجمة مختصرة.

٩- إذا كانت المروية في الصحيحين أو أحدهما، فإني اكتفي بهما، ولا أدرس المروية في المصادر الأخرى، إلا لزيادة في اللفظ مؤثرة، ولا أدرس أسانيد المرويات التي لا تحتاج لدراسة، كالتي تتحدث عن سنة وفاة صحابي، أو ثناء صحابي أو تابعي على صحابي، إلا إن تضمنت أمورا تتعلق بالعقيدة، وإن وجدت كلاما لأهل العلم أو لبعض الباحثين في المروية نقلته.

١٠- التعريف بأسماء الأماكن التي وردت في المروايات، وتوضيح معاني ما أشكل من ألفاظ ما أمكنني ذلك.

١١- ميزت المرويات بتغلظ الخط ورقمتها، وفصلت بينها وبين الدراسة بلفظ (التعليق)، وقد بلغ عدد مرويات البحث كاملةً أربعمائة وستّ مرويات.

وقبل الختام بالنتائج والتوصيات نذكر موضوع الكتاب ومنهج المؤلف فيه[1]:

تميز كتاب التاريخ للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة بسعة المادة التاريخية، ويظهر ذلك جليّا من خلال كثرة مرويات الكتاب، وسعة الحقبة الزمنية التي تناولها، والتي تمتد من بدء الخلق وحتىٰ عصر المؤلف، وهذه الشمولية في مادة الكتاب جعلت من تكلم عنه من أهل العلم يصفه بأنه (تاريخ كبير) كما تقدم، وبعد النظر في المرويات التي تمّ جمعها ودراستها تبين لي التالي:

يبدأ الجزء المخطوط الذي وصل إلينا بذكر جملة من المرويات المتعلقة بخلق آدم وخطيئته وتوبته وخروجه من الجنة، وعددها أربع وخمسون مروية، والجزء الذي وصل إلينا لا يبدأ من أول الباب بل من خلاله؛ فالمروية الأولىٰ ناقصة من أولها، وقد أتممتها من مصادر أخرىٰ، ويأتي بعد ذلك: «بابٌ في نبوة النبي - وما كان من ذكره قبل أن يخلق»، وتضمن هذا الباب سبعة عشر مروية، وجاء بعده: «بابٌ في ذكر مولد النبي - وما ذكر فيه»، ويتضمن أربع مرويات.

واقتبس ابن عساكر مئات المرويات من كتاب التاريخ لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة تضمنت مروية واحدةً عمر الدنيا، ومروية أخرىٰ عن خلق الأيام، وتناولت أربع مرويات بناء البيت الحرام.

وتناولت ست وثلاثون مروية قصص الأنبياء والرسل، وهم: آدم: ست مرويات، خمس منها موجودة في الجزء الذي وصل إلينا من المخطوط مع مرويات خلق آدم وخطيئته وتوبته وخروجه من الجنة، ونوح: ست مرويات، وإبراهيم: ثلاث مرويات، وذو القرنين: خمس مرويات، وأيوب: مرويتان، وذو الكفل: مروية واحدة، وموسىٰ: ست مرويات، واحدة منها موجود في المخطوط ضمن بشارات الأنبياء بنبينا محمد ﷺ، وإلياس: مروية

(١) استفدت في هذا المطلب بشكل كبير مما كتبه الدكتور طلال الدعجاني في كتابه (موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق) ج١ ص ١٣٨-١٤٠.

واحدة، وسليمان: ثلاث مرويات، ويحيىٰ: مروية واحدة، وعيسىٰ: مرويتان، هذا وفي نبوة ذي القرنين خلاف سيأتي الكلام عليه خلال الدراسة. وتضمنت المرويات مرويةً واحدةً لكلٍ من قابيل، وطالوت.

كما تناولت المرويات الواردة في تاريخ دمشق أحداث السيرة النبوية كبشارة الأنبياء ببعثته ﷺ، وصفته في الكتب السماوية، وإخبار الكهان والرهبان بنبوته، وتحنثه في غار حراء وأسماء زوجاته، ولم أقف علىٰ مرويات مفصلة في أحداث السيرة بعد مبعثه ﷺ.

وتناول عدد كبير من المرويات أخباراً عامّة عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة، فيذكر مدة خلافة الراشدين، وأسامي الصحابة، وكناهم، وإسلامهم، وقدومهم علىٰ النبي ﷺ، ومشاركتهم في الغزوات، وفضائلهم، ومكانتهم العلمية، وصفاتهم، وأعمالهم.

وقد تضمنت المرويات التي نقلها ابن عساكر ذكراً للخلفاء الأمويين والعباسيين، وأخباراً عن التابعين ومن بعدهم، ولم يتضمن بحثي هذه المرويات لأني قيدته بنهاية طبقات الصحابة رضوان الله عليهم.

وتدل المرويات المتقدمة علىٰ سعة المادة التاريخية لكتاب (التاريخ) للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة، فشملت بدء الخلق وقصص الأنبياء والرسل، والأمم الماضية، ولا ندري هل عالج ابن أبي شيبة في تاريخه أخبار الروم والفرس وغيرهما كما فعل الطبري في تاريخه؟ كما روىٰ ابن أبي شيبة مرويات تتعلق بالسيرة النبوية كالبشارات بنبوته والكلام عن مولده ﷺ وذكر زوجاته أمهات المؤمنين، وروىٰ في كتابه الكثير من المرويات عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الكرام، وتضمن الكتاب أخباراً كثيرة عن التابعين ومن بعدهم.

مصادر الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في ذكر الأحداث قبل البعثة النبوية، هي القرآن الكريم، والأحاديث المسندة للنبي -، وليست كثيرة، وأقوال علماء التفسير، والتي يرويها بأسانيده

إليهم، والكثير منها إسرائيليات نجدها مبثوثة في كتب التفاسير.

أمّا ما يتعلق بمرويات السيرة والصحابة رضوان الله عليهم فنجد المصنّف اعتمد على مؤلفات من تقدّمه من أهل العلم، فيروي هذه المؤلفات بأسانيده إليهم، ومن أبرزهم الهيثم بن عديّ، ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة، كما يذكرُ أحاديثا مسندة لنبينا ﷺ فيما يتعلق بأخبار السيرة، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم كذكر إسلامهم وقدومهم إلى الرسول ﷺ، وذكر ثناءه عليهم. كما ينقل الكثير من المرويات التي أخذها عن شيوخه ومعاصريه.

ومن خلال النظر في المرويات المجموعة، والقطعة المخطوطة التي وصلتنا يظهر أنّ المصنف لا يضع عناوين لكلّ مروية، وقد اعتمد المصنف على سرد المرويات مسندةً دون التعقيب أو الحكم عليها، ولم يقتصر على المرويات الصحيحة بل نقل الصحيح والضعيف كما هو الحال عند المؤرخين.

المرويات الواردة في الصحابة هي المرويات الأكثر عدداً في هذا البحث، وليس في المرويات التي وقفت عليها ما يدل على أنّ ابن أبي شيبة اعتمد سرد الأحداث والمرويات على السنين، بل تبين لي من خلال بعض المرويات التي أوردها ابن عساكر أنّ المصنف قسم من ترجم لهم إلى طبقات ورتبهم على المدن[1].

والمرويات التي فيها إشارة لتقسيم المتَرجَم لهم على المدن كلها مرويات تتعلق بالتابعين وهم ليسوا ضمن بحثي، ولا يلزم من ذلك أن يكون المصنف قسم الصحابة لطبقات على المدن، فابن سعد في طبقاته قسّم الصحابة لطبقات بناء على السابقية إلى الإسلام لا على المدن، أمّا التابعين ومن بعدهم فقسمهم على المدن ويعيد الإشارة باختصار للصحابة الذين نزلوا هذه المدن، ولعلّ المصنّف سار

(١) ينظر: تاريخ دمشق ج٧ ص ٤٨، ج٤٦ ص ٣٠٠، ج٦٠ ص ٤١٩.

علىٰ هذا النهج، والله أعلم، فهذا يتوافق مع منهج كبار المؤرخين في القرن الثالث الهجري، كمحمد بن سعد وخليفة بن خيّاط.

ويمكننا القول انّ أهم مميزات الكتاب هي طول الفترة الزمنية التي أرّخ لها، وسعة معلوماته، وتعدد مصادره، كما يمتاز بحفاظه علىٰ الإسناد، ونسبة الاقوال إلىٰ أصحابها، وبذلك يتمكن الباحث من معرفة قيمة هذه المروية من خلال نقد إسنادها ومعرفة ما فيها من علل، ونَقلُ المصنف رحمه الله لمرويات ضعيفة ليس غَفلةً أو جَهلاً، بل هو منهج معلوم ومتّبع عند المحدثين والمؤرخين، حيث يذكرون ما يبلغهم ويسوقون سنده، ومن أسند فقد أحال، فيُعرَف الصحيح ويؤخذ، ويُعرف غيره ويترك، والله أعلم.

النتائج والتوصيات

وبعد أن وفقني الله لجمع ودراسة ما أمكن من مرويات كتاب التاريخ للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة رحمه الله، ختمت الرسالة بأبرز النتائج والتوصيات المتعلقة بالبحث فيما يلي:

نتائج البحث:

أولاً: يعتبر الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة من العلماء البارزين في القرن الثالث الهجري، وقد صنف في مختلف الفنون بما فيها التاريخ، وبالتالي يمكن أن يذكر اسمه مع مؤرخي القرن الثالث كابن سعد وخليفة بن خياط والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري وغيرهم من أهل العلم.

ثانيـًا: كتاب التاريخ للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة من المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي، ولذلك اعتمد عليه ونقل عنه من جاء بعده من أهل العلم، فبالرغم من فقد الكتاب إلا أنّ الكثير من مروياته بقيت محفوظة في كتب المؤرخين والمحدثين الذين جاءوا بعد ابن أبي شيبة ونقلوا عنه، وقد جمعت ودرست في هذا البحث أكثر من أربعمائة مروية من المبتدأ إلىٰ نهاية طبقات الصحابة رضوان الله عليهم.

ثالثـًا: كتاب التاريخ للحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة من الكتب التاريخية الكبيرة التي تميزت بطول الفترة الزمنية التي أرّخ لها، وسعة معلوماته، وتعدد مصادره، كما امتاز بحفاظه علىٰ الإسناد، ونسبة الأقوال لأصحابها.

رابعـًا: اشتمل كتاب التاريخ علىٰ موضوعات تاريخية كثيرة، منها: بدء الخلق وقصص الأنبياء والرسل، والسيرة النبوية كالبشارات بنبوته والكلام عن مولده - وذكر زوجاته أمهات المؤمنين، ورُويت الكثير من المرويات عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الكرام، وتضمن الكتابُ أخباراً كثيرة عن التابعين ومن بعدهم.

خامسـًا: تنوعت مصادر الحافظ ابن أبي شيبة في ذكر الأحداث، فقد استقىٰ مروياته من الأحاديث النبوية التي تلقاها عن شيوخه بالأسانيد، وأقوال علماء التفسير، كما اعتمد علىٰ مؤلفات من تقدّمه من أهل العلم، فيروي هذه المؤلفات بأسانيده إليهم، كما ينقل الكثير من الأخبار التي أخذها عن شيوخه ومعاصريه.

سادسـًا: سَرَدَ المصنف المرويات مسندةً دون التعقيب أو الحكم عليها، ولم يقتصر علىٰ المرويات الصحيحة، بل نقل الصحيح والضعيف كما هو الحال عند المؤرخين.

التوصيات:

بفضل الله تعالىٰ ومنته فتح لي هذا البحث آفاقـًا بحثية أحببت أن أوصي بها فيما يلي:

أولاً: جمع ودراسة المرويات التاريخية للكتب المفقودة، والاستفادة في ذلك من المصنفات التي اعتنت بجمع أسانيد الكتب، فإن ذلك يضيف للمكتبة الإسلامية ويخدم الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي، ويُعرف بمناهج هؤلاء العلماء في تدوين التاريخ الإسلامي، كما يعطي ملامح عن الحقبة التاريخية التي عاش فيها المؤلف.

ثانيـًا: خدمة أمهات الكتب التاريخية

التي تحوي مرويات من كتب المتقدمين مسندةً إلىٰ مصنفيها، كتاريخ بغداد وتاريخ دمشق، باعتبارها كتب موسوعية حوت الكثير من المرويات للعديد من الكتب المفقودة.

ثالثًا: العناية بالقطع المخطوطة الصغيرة، وعدم إغفالها لكونها أجزاء صغيرة لكتبٍ مفقودة، فقد تكُون هذه القطع نواة لدراسات علمية، وأبحاث جادة؛ فمن الركائز الأساسية التي قام عليها هذا البحث قطعة مخطوطة صغيرة لكتاب التاريخ المفقود.

رابعًا: عدم الاقتصار علىٰ مصدر واحد عند جمع المرويات، فجلّ ما وقفت عليه من دراسات سابقة في جمع المرويات ودراستها تجمعها من مصدر واحد فقط، كتاريخ الطبري، أو تاريخ دمشق؛ وذلك أن جمع المرويات من مختلف المصادر يوفر للباحث عدداً أكبر من المرويات، وينتج عن ذلك فهم أعمق للكتاب المفقود ولمنهج المؤلف فيه، ولمدىٰ عناية المؤرخين بهذا الكتاب واعتمادهم عليه كأحد المصادر الأصلية.

وبهذا القدر كفاية، والله أعلم، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊ ❊

مملكة البحرين – العدد (٣٥٢) السنة (٤٠) – صفر ١٤٤٠هـ – أكتوبر ٢٠١٨م